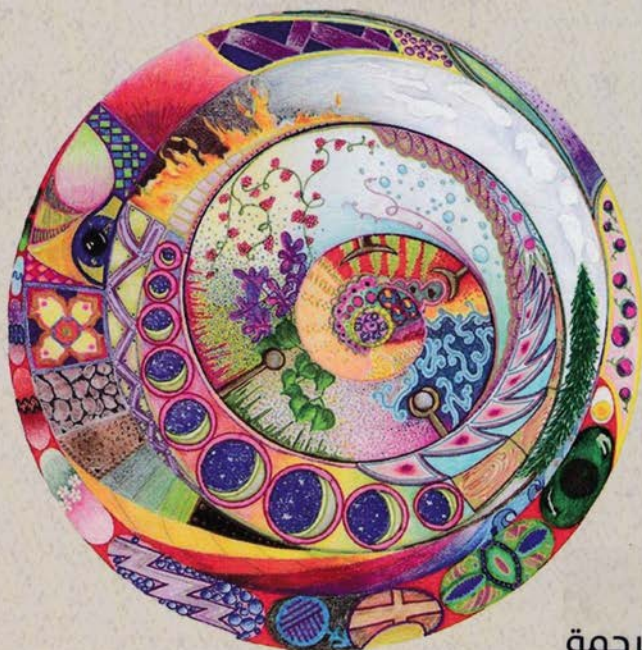


إيه سي غرايلينغ

معنى الأشياء

عن تطبيق الفلسفة على مناهي الحياة

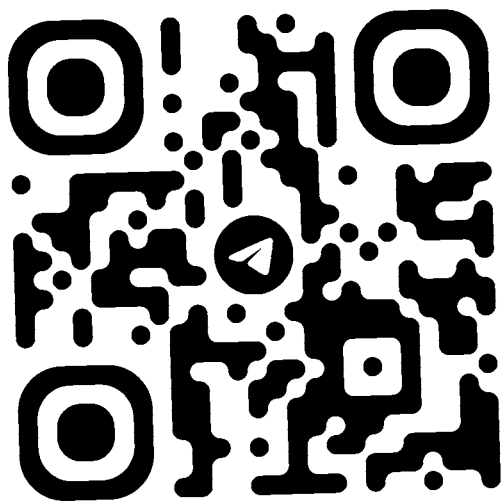


ترجمة
أحمد الزناتي

منشورات
حياة



مكتبة



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

معنى الأشياء

الكتاب: معنى الأشياء

العنوان الأصلي: The Meaning of Things: Applying Philosophy to Life

المؤلف: إيه سي غرايلينغ

الترجمة: أحمد الزناتي

التدقيق اللغوي: أحمد مدره

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف: مها عيداروس

مكتبة
t.me/soramnqraa

عدد الصفحات: 322

الترقيم الدولي: 6 - 34-998800 - 1 - 978

الطبعة الأولى: 2025

هذه النسخة مرخصة بموجب العقد مع مالك الحقوق.

Copyright © A. C. Grayling 2001

جميع الحقوق محفوظة

منشورات
حياة



يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني:

hayat-publishing.com

معنى الأشياء

عن تطبيق الفلسفة على مناحي الحياة

مكتبة

t.me/soramnqraa

إيه سي غرايلينغ

ترجمة

أحمد الزناتي

”لا يكمن معنى الأشياء في ذاتها، بل في مواقفنا تجاهها“.

أنطوان دو سانت إكزوبيري

,

تصدير

أيها القارئ: هذا كتاب حسن النية!

تحية مونتيني إلى قرائه

مكتبة

t.me/soramnqraa

في مقدمة كتابة الصغير الذي تضمّن طائفة من المقالات المتنوعة، التي جُمِعت تحت عنوان ”تخمينات حول الحقيقة“، كتب رجل الدين يوليوس هير ”Julius Hare“ ابن القرن التاسع عشر:

”هأنذا أضع بين يديك بعض الاقتراحات التي تتجاوز كونها مجرد لمحات، بل لعلّي أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنها أحلام مادتها الأفكار... ولو صادف كلامي هذا العدد الغفير من الأشخاص الذين يقرؤون لُتملى عليهم أفكارهم، فخذ نصيحتي ولا تنغمس في قراءة الكتاب أكثر من ذلك؛ فمن يرغب في اقتناء منزل جاهز مفروش عليه ألا يأتي للبحث عنه في محجر. أما لو كنت من طينة من ينشدون بناء عمارة أفكارهم بأيديهم، ولا ينقصهم سوى مادة البناء، فلعلك تجد بين دفتي هذا الكتاب أفكارًا كثيرة تلائمك“.

مع قلة القسمات المشتركة بين وجهة نظر هير والتأملات التالية، تُعدّ كلماته السابقة مقدمة ضافية لكتابتنا؛ لسقراط عبارة ذائعة تقول: ”إن حياة لم تخضع للفحص والتأمل فهي حياة لا تستحق

أن تُعاش"، وهو يقصد من ذلك أن الحياة، التي يعيشها صاحبها من دون تفكير ولا مبادئ، إنما هي حياة خاضعة لهوى المصادفة، ومرهونة - إلى حد كبير - باختيارات الآخرين وأفعالهم، إلى درجة أنها لا تمثل قيمة حقيقية لمن يحيها.

كما قصد سقراط أن الحياة الجديرة بأن تُعاش هي الحياة التي تضع نصب عينها أهدافاً، وتتحرى النزاهة في اختيار أهدافها. إنها الحياة التي يختارها صاحبها ويملك زمامها بين يديه إلى أقصى حد ممكن، بالنظر إلى كونه عنصرًا إنسانيًا عالقًا بين شبكتي المجتمع والتاريخ.

وكما تشير العبارة المنقولة عن سقراط فإن الحياة المدروسة هي الحياة التي يثرها التفكير في الأمور المعنية بمسألة القيم والأهداف والمجتمع، والتحويلات الملازمة للحياة الإنسانية، والرغبات الشخصية والعامة، وكذا على النقيض: أعداء ازدهار الإنسان، وأعداء وجود معنى للحياة.

إننا غير معنيين بالوصول إلى نظريات متماسكة مُحَكَّمة حول تلك المسائل. لكننا، حين نتطلع إلى حياة ثرية لها توجُّه هادف، فنحن - بالضرورة إذ ذاك - معنيون بتوجيه بعض الانتباه إليها، ولو كان نذرًا يسيرًا!

وإن مثل التفكير في أشباه هذه الأمور كمثّل رجل يدرس خريطة قبل الخروج إلى رحلة سفر. صحيح أن دراسة الخريطة لا ترقى إلى مرتبة السفر ذاتها، لكن دراستها ستشيع على الأقل في نفس المسافر شعورًا بعدم فقدان البوصلة، وتُبَصِّرُه بكيفية ارتباط الأماكن بعضها

بعض، خصوصًا الأماكن التي يتوق الإنسان إلى زيارتها. ومن لا يُنعم النظر في حياته فكأنما هو ضال في دروب بلاد مجهولة غريبة، وليس ثمة خريطة تهديه سواء السبيل؛ إذ ليس في وسعه -وهو يتخبط هائمًا على وجهه- أن يفاضل بين طريق وآخر دون مرشد ولا دليل، وهو -إذ ذاك- لا يجد اختلافًا بين طريق يختاره كيفما اتفق وأي طريق آخر (ولو كان هو الطريق الصحيح)، ولو قُدِّر له اختيار الطريق الصحيح (الذي يقوده إلى ما فيه خيره وصلاحه) فسيكون الفضل في هذا للمصادفة البحتة لا أكثر!

إن ما طرحه في الصفحات التالية بشيء من الحيطة والحذر من نقاشات وخرائط طريق أولية إنما طرحه من باب تحفيز العقل على التفكير ليس إلا، أو بالأحرى هو إسهامات لخوض غمار النقاش، وهي لا تقدم بالقطع حقائق نهائية حول الموضوعات محل النقاش. ولأنني قلما أتقيد بالفضائل المستحسنة، ونادرًا ما أتجنب الرذائل المُستهجَنة، لا تدَّعي أفكاري الواردة هنا أي حق في القداسة، ناهيك عن ادعائها المداهنة، أو ادعاء الفضيلة، بل إنها على طرف النقيض من ذلك تمامًا.

بدأت هذه النقاشات حينما نُشرت -للمرة الأولى- على هيئة مقالات في صفحات "صحيفة الجارديان" "The Guardian"، في عمود صحفي عنوانه "الكلمة الأخيرة" "Last Word" يظهر في عدد يوم السبت، وقد رُيِّنت تلك المقالات برسوم توضيحية صنعتها ريشة المصور الرائع كليفورد هاربر "Clifford Harper".

ومعظم هذه المقالات وجيز المادة. غير أنني ربما أسترسل - أحياناً- في بعضها وأستفيض في قولي، وعلى ذلك فكل مقالة منها تحمل موضوعاً قائماً برأسه، مع أن جمعها وترتيبها (في هذا الكتاب) ليس اعتباطياً البتة، ومن ثم راعيت ترتيبها وفق منظومة متسقة؛ فالمقالات المكتوبة بشأن الوعظ تعقبها مقالات أخرى متعلقة بالتسامح، والمتصلة بالخوف تعقبها أخرى متصلة بالشجاعة، أما المقالات المتصلة بالحزن والموت والأمل فقد جُمِعت معاً، وكذا جُمِعت المقالات المتصلة بالصراحة والكذب، والخيانة والوفاء، واللوم والمعاقبة جميعها معاً. أما الموضوعات الأخرى المقترنة بعضها ببعض اقتراناً طبيعياً (كالحب والكراهية على سبيل المثال) فهي ما يمكن قراءتها معاً بطبيعة الحال، ومن ثم أفردت لكل منها باباً مستقلاً لاعتبارات أخرى.

ومع ذلك فالقصد من وراء تلك المناقشات -بالدرجة الأولى- هو قراءتها باعتبارها فصولاً منفصلة قائمة برأسها، لا على هيئة حلقات متوالية؛ وإنما ذلك لكونها خليطاً متنوعاً وليست أطروحة متصلة الأسباب، وقد كان باعته الأساسي الرغبة في التعليق على أحداث الحياة اليومية في ظرفها الإنساني الذي يواكبها؛ إذ كان الفاصل بين كل مقالة وأخرى مسافة زمنية قدرها أسبوع كامل، وهذا من شأنه أن يعزز مسألة استقلال كل مادة وشموليته.

وكما يُقال: "كل الطرق تؤدي إلى روما"، وكذا كل موضوعات كتابنا موصولة بطرق مستقيمة يفضي بعضها إلى بعض بوجه من الأوجه، إن نحن تأملنا فصول الكتاب قليلاً.

والكتاب مُقسَّم إلى ثلاثة أبواب، أحدها متصل بالمسائل التي تعادي ازدهار الإنسانية، من بينها العنصرية، والقومية، والمعتقدات، والانتقام، والفقر، والاكثاب. وما من شك عندي أن بعض الناس سيُصدَم من إدراج المعتقد الديني تحت هذه الفئة، وقد يشعر أن في هذا نوعاً من الإهانة الموجهة إليه! أما إذا سلك المتدينون سلوك طائفة الكويكرز، أو اتفقوا مع آراء معتنقي العقيدة البوذية، فلن يوجد ما يمكننا أن نخلف بشأنه في مسألة الدين، اللهم إلا اختلافنا حول المعتقدات المؤمنة بالظواهر الخارقة.

ومع ذلك فالعقائد الدينية كانت ولا تزال في الأغلب الأعم منها مصدر شقاء للإنسانية، ومن ثم لا يمكن إقصاؤها من معترك حياة الإنسان اليومية. لكنني مع ذلك أؤمن إيماناً راسخاً بقيمة كل الأشياء الروحية، وأعني بها تجليات الروح الإنسانية، بما تمتلك من قدرة على الحب والاستمتاع، والإبداع ورقة القلب، والتحلي بالأمل، وإبداء الشجاعة. والعجيب حقاً أن الجنس البشري هو مبتكر أكثر ألوان القسوة الوحشية من السلب، والجشع، والصراعات، ومظاهر القبح المتعددة، وهو -على ذلك أيضاً- مبتكر أفضل ما وُجد في هذا العالم، الأمر الذي يبعث على الاحتفال والتفاؤل في آن واحد! ويبدو أن بعض الناس عاجزة عن الاعتراف بأن الجنس البشري هو منبع كل المشاعر التي من شأنها أن تجعل هذا العالم مُحتملاً، ومنها مشاعر الشفقة، والجمال، والحنان، ولذا يعجز الناس عن

* طائفة دينية مسيحية نشأت في القرن السابع عشر في بريطانيا على يد جورج فوكس، وهي تتسم بطابع روحاني يرفض الشعائر الدينية المسيحية الموروثة، وتعتقد أن الإيمان نابع من الداخل دون الحاجة إلى شعائر ولا وساطة كهنوتية. (المترجم)

التسليم بأن عبقرية الجنس البشري هي المسؤولة في المقام الأول عن كل الإنجازات التي أحرزت في مجالات الفنون والعلوم؛ فهم ينسبون الخير إلى قوى عليا خارقة، وينسبون الشر حصراً إلى أفعال البشر! وهذا افتئات صريح على البشرية، فضلاً عن كونه بقايا إرث غير عقلاني نابع من حقبة الطفولة الإنسانية الغارقة في غياهب الجهل والخوف؛ إذ كانت تعتقد أن الطبيعة محكومة بقوى غير مرئية، معادية للبشر في أغلب الأحيان.

ولو كان للتأمل في الحياة أن يسهم بسهم وافر في تحقيق شيء، فإنه سيسهم في التحرر من طغيان المعتقدات الجامدة، واستبدال الالتزام بالمشاعر الإنسانية بها، والنظر بعين التسامح والحكمة التي تعلمها البشر عبر تجاربهم الفردية.

الباب الأول

عن الفضائل والخصال البشرية

الوعظ

“عادة ما يكون الواعظ إنسانًا مُرائيًا...”

أوسكار وايلد

الواعظ الأخلاقي هو من يسعى إلى فرض رؤيته على الآخرين حول طريقة معيشتهم وسلوكهم.

لكل إنسان الحق في تبني وجهة نظر حول ما يمكن عدّه سلوكًا مقبولًا، كما أن لكل إنسان الحق في أن يعرب عن رؤيته إعرابًا صريحًا حازمًا قدر استطاعته، أما الأوصياء على الأخلاق فلا يبتغون إلى ذلك سبيلًا؛ فهم يطالبون غيرهم بالامتثال إلى وجهات نظرهم، ويسعون إلى تحقيق مآربهم عبر إكراه البشر، متوسلين في ذلك بأدوات تتراوح بين الإدانة المجتمعية والرقابة القانونية، وغالبًا ما تكون الوسيلة الأخيرة هي خيارهم المفضل.

وهم، إذ يجبرون الآخرين على الإذعان لتفضيلاتهم الفكرية، يكشفون عن عدد من السمات السلوكية الآتية التي تدمغ سلوكهم، من بينها بلادة الحس، والتعصب، والقسوة، وجذب الخيال، والعجز عن إبداء التعاطف مع الآخرين، وعدم إظهار التفهم، والجهل بالمصالح والاحتياجات البديلة داخل محيط التجربة الإنسانية، والغطرسة المتمثلة في الشعور المفرط بأن طريقتهم هي الطريقة

الوحيدة المقبولة. وهم يدافعون عن أفعالهم بدعوى درء المفسد عن غيرهم، وهم بذلك لا يدعون احتكار إصدار الأحكام الأخلاقية وحسب، بل يستأثرون بالحق في اتخاذ القرار نيابة عن الآخرين؛ ليقرروا ما هو خير لغيرهم وما هو شر.

وإذ يهاجم سدنة الأخلاق التشريعات الليبرالية المتصلة بالحرية الجنسية، والحق في الإجهاض، وفي ممارسة البغاء، ويمارسون فرض الرقابة على التجديف، وإثبات أبناء السفاح، وما إلى ذلك من الأمور، فهم يكشفون عن طريقتهم في إظهار العداء ضد أنماط الحياة التي يبغضونها على المستوى الشخصي، ويسعون إلى فرض اختياراتهم الشخصية عوضاً عنها، وعادة ما يتخذ ذلك شكل الصورة الخيالية التقليدية عن "أخلاقيات الأسرة".

يزعم هؤلاء القوم أنهم يمثلون رأي الغالبية من الناس، وهو موقف أشبه ما يكون بموقف وحش كاسر غادر، كما أنه موقف ربما يتملصون من تبنيه في قضايا أخرى، لكنها مناورة غير نزيهة؛ ذلك أن مبعث دوافعهم الحقيقية هو خوفهم من تفشي المواقف والممارسات الأكثر رخاوة وانفلاتاً، والأجراً من أن يتحملها حياؤهم الأخلاقي، كما أن مخاوفهم الدينية وخشيتهم من أن يتحولوا هم أنفسهم - على سبيل المثال - إلى مثليين أو شهوانيين، ناهيك عن غيرها من الدوافع الشخصية الأخرى، تلك التي تدفعهم إلى محاولة نهى بقية العالم عن التفكير، أو زجر الآخرين عن تنفيذ ما يخشى الوعظ التفكير فيه أو رؤيته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

عندما يكون الجسم السياسي* للدولة مُحَصَّنًا ضد الأوصياء على الأخلاق، تظهر تلك الفئة بهيئة مثيرة للسخرية، وهو ظهور أقرب إلى مظهر المتزمتين السريعي الغضب الذين يرغبون ويزيدون ويضربون الأرض بأقدامهم ويُلَوِّحون تلويحات غاضبة في وجه كل من يخالفهم الرأي وكل من يهدد رغباتهم الآثمة. أما حين يفتقر الجسم السياسي للدولة إلى التحصين ضد تلك الفئة، فما تلبث أن تشكل خطرًا جسيمًا؛ إذ لا تكتفي بإشاعة حالة احتقان مجتمعي وتألّب مشاعر الرأي العام فقط، بل إن تلك الفئة تجلب في ركابها صنوف التعاسة على من يختلف نمط حياتهم عنهم.

مما يُعتَقَد في كل حقبة زمنية أن المجتمع يمر بحالة أزمة، فيسارع الناس إلى القول، وهم يقرقرون كالدجاج بالسنثهم: إن الأمور تزداد سوءًا؛ فمعدلات الجريمة في تزايد، ومستوى الحياة في تدهور، والعالم كله يموج بالقوضى. ويميل المتدينون إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون أسوأ عصورهم، حتى أن نُذُر نهاية العالم لائحة في الأفق. بيد أن تلك مشاعر مضللة؛ لأنها تنطلق من اعتقاد مؤدّاه أن العالم (ربما في مكان ما مختلف، أو زمن ما سابق) قد امتلك شيئًا من محاسن الأخلاق، ثم فَقِدَت منذ ذلك الحين، على أن الاعتقاد بأنه قد وُجِدَ "عصر ذهبي بَرّاق" انعدمت فيه الأخطار ومظاهر الإزعاج تمامًا إنما هو اعتقاد تشوبه نشوة حالمة أشبه ما تكون بنشوة "احتساء شاي ما بعد الظهيرة"!

* الجسم السياسي «body politic» استعارة مشهورة في أدبيات السياسة تُعَدُّ الأمة فيها كيانًا مؤسسيًا، وتُشَبَّه بجسم الإنسان. (المترجم).

ولكننا، حالما نشرع في فحص تلك الخزعات وتمحيصها لتقديم حلول عملية لمشكلات عصرنا الراهن (وهو دأب دعاة الأخلاق)، نكون قد وقعنا في ورطة بالفعل. ولنتأمل -مثلاً- من يكيلون المديح والثناء -مبالغين في تقدير- إلى ما يُسمَّى "القيم الفيكتورية"، ويزعمون أننا لو عُدنا لنهل منها لأصبحنا قادرين على إيجاد حلول لمشكلات مجتمعنا، ذلك المجتمع الذي يزعمون أنه غارق في الإحباط. يخبروننا أن علينا أن نحذو حذو الفيكتوريين من خلال تبني الحياة الأسرية، والتمسك بقيم الطهارة، والتقوى، والعمل الجاد، والنظام. ومن وجهة نظرهم، تتجسد "الفضيلة الفيكتورية" في أبهى صورها في شخصية السيدة "نابلز"، الغسالة الأرملة في رواية تشارلز ديكنز؛ فهي المرأة التي تسهر على سد رمق أطفالها الثلاثة في بيت تضربه الفاقة، لكنه -حسب تعبير ديكنز- "بيت يشيع فيه جو الرضا المقرون بالطهر والنظام"، وهكذا تغدو وليمة عيد الميلاد "المحدودة العدد"، التي تخيم عليها الكآبة، رمزاً للقيم العائلية؛ إذ يتجمع آل كراتشيت معاً على مائدة واحدة!

كما تُختصر قيم العصر في سلوك أهل البر والإحسان الفيكتوريين الذين أخذوا على عاتقهم بناء المدارس وإعمار المكتبات. ينادي المعجبون بالقيم الفيكتورية باستخلاص الدروس والعبر من الشخصية الروائية المرسومة آنفاً، وقاتئذ سينصلح حال المجتمع، والواقع أنهم -إذ ذاك- قد أმაطوا اللثام عن رؤيتهم لما يسمونه "تدني أخلاق المجتمع".

* المقصود: رواية ترنيمة عيد الميلاد. (المترجم).

وكان مؤشرهم على ذلك تصاعد معدلات المواليد غير الشرعيين (أبناء السّفاح)، وهو الاصطلاح الذي ما زالت واحدة من رموزهم تصر على استعماله حتى اليوم (أقصد المؤرخة جيرترود هيميلفارب "Gertrude Himmelfarb")، وهو دليل يكشف بجلاء وجهة نظر الفيكثوريين، كما يثير التساؤلات في الوقت ذاته حول رؤيتهم لمفهوم الرذيلة.

تنطوي فكرة فساد النسب في حد ذاتها على مفارقة تاريخية تدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان الفيكثوريون الجدد واعين بطبيعة المشكلات التي يواجهها المجتمع المعاصر! الغريب أن كنيسة إنجلترا نفسها أمسكت عن استعمال تلك المصطلحات؛ فليست الخطيئة أن يُولّد طفل من أبوين غير متزوجين زواجًا رسميًا، بل الخطيئة الكبرى بحق هي أن ينشأ طفل في بيئة يعيش أفرادها في فقر مدقع.

فكل زيجات العالم الرسمية لم تقف حائلًا أمام إصابة ملايين الأطفال في العهد الفيكثوري بنقص النمو الجسدي، ولا التعثر في مواصلة التعليم بسبب هيمنة الفوارق الاجتماعية، ولم تمنع الزيجات الرسمية تفشي مبدأ "عدم المساواة" بين البشر؛ إذ ضرب الفقر المدقع أطنابه في العاصمة الإنجليزية، وكانت شوارع لندن وقتذاك مرتعًا لأنشطة أشد خطرًا مما هي عليه الآن، وصنعت القوى الرأسمالية من بغاء الأطفال واحدًا من أكثر الأنشطة رواجًا في ما يتعلق باستغلال عمالة الأطفال داخل العاصمة.

تشبه فكرة من يحتلون منا موقعًا عاليًا في سلسلة الهرم الغذائي إلى حد كبير فكرة من يظن أن الجالسين أسفل الهرم الغذائي يحسنون التصرف، ويلزمون الهدوء، ويؤدون واجباتهم على أكمل وجه، ويحافظون على نظافتهم، ويعيشون عيشة منظمة رصينة، ويحققون الاكتفاء الذاتي، ويمارسون حياة مستقلة مكتفية بذاتها، ويحسنون تربية أبنائهم وفق الأخلاق القويمة، ويلتزمون التزامًا صارمًا بسداد أقساط الرهن العقاري، حتى إنهم لا يرون غضاضة في الخروج للعمل كل يوم أيًا كانت قيمة الأجر الذي سيتقاضونه.

في نفوسنا ميل إلى تصوّر ذلك؛ فمعنى ذلك أننا سندفع ضرائب أقل (لأن معدل الجرائم سينخفض وستنخفض معه قيمة حصة الضمان الاجتماعي التي ندفعها)، وعليه ستمكن من الاحتفاظ بمكانتنا المرموقة في الحياة، ومن ثم فنحن نسعى إلى حث الآخرين على التحلي بمكارم الأخلاق الشخصية؛ لأن في ذلك تحقيق منفعتنا الخاصة، لكن حث البشر على التحلي بمكارم بالأخلاق -في واقع الأمر- نادرًا ما يؤتي ثماره!

ينادي الفيكتوريون الجدد بحل مشكلة انتشار معدلات الجريمة من خلال حث الناس على التحلي بخصال الطهر والورع، ولنا أن نتخيل بذاءة الرد الذي سيتلقاه أحدنا لو أشار بالاقتراح ذاته على لص يقطع الشوارع.

إن الطريقة الناجعة الوحيدة لإرساء قواعد مجتمع صالح هي تبني الأخلاق الجمعية التي يسود عليها التوافق، وأعني بذلك بلورة تصوّر يجري تشكيله عبر عقد جلسات نقاش وتفكير مكثفة ونحن

في أفضل حالات الحس السليم المتسامي، وهي جلسات يكون محورها كيفية تمكين المجتمع من تدبير شؤوننا في اتجاه إرساء العدالة واللياقة الأخلاقية.

إن الفقر والجهل وتردي الأحوال الصحية والحرمان من المزايا وتفشي معدلات الجريمة ليست مجرد شرور في حد ذاتها وحسب، بل هي إهدار لموارد المجتمع، ومن هنا تستلزم مكافحتها منا التحلي بالخيال الخصب والعزم القوي، مثلما تستلزم استثمار رأس مال.

أما الفيكتوريون الجدد فيقدمون حلاً يتلخص في عكوف الفقراء والأमीين والمجرمين على قراءة أعمال صمويل سمايلز "Samuel Smiles"، ومن ثم يصيرون بذلك بشرًا أكرم خُلُقًا من تلقاء أنفسهم.

حري بنا ونحن نجول بأبصارنا في شوارع المدن الكبرى (حيث يمد المتسولون أكفهم بالسؤال مثلما كانوا يفعلون في الحقبة الفيكتورية القديمة الطيبة، وعندما كانوا يفتershون مداخل المتاجر للنوم، ويلجؤون إلى الجريمة عندما تضيق الدنيا في أعينهم)، أقول: حري بنا أن نتعلم أن الوعظ الأخلاقي - في حد ذاته - ليس وسيلة لحل المشكلة.

* صامويل سمايلز (1812 - 1904)، كاتب وصحفي ومصلح أخلاقي بريطاني، شدّد على أهمية الإصلاح الأخلاقي. (المترجم).

التسامح

”أقدر الناس على بلوغ ذروة التسامح هم غير المُثقلين بالقناعات
الراسخة“.

ألكسندر تشيس

التسامح فضيلة نادرة بالغة الأهمية، وهي فضيلة محكومة
بحدود، لكنها غالبًا ما تكون حدودًا مرسومة رسمًا مُحكمًا وفي غير
موضعها. ولنتأمل - مثلاً - قرار قاضي مدريد حينما رفض التماس
شرطة المدينة الذي يطالب فتيات الليل في حي ”كاسا دي كامبو“
بارتداء مزيد من الملابس سترًا لأنفسهن، والمعتاد في تلك الناحية
أن ترتدي فتيات الليل ملابس غير محتشمة، كحمالات الصدر فقط
أو التنانير القصيرة، وهي الملابس التي رآها رئيس الشرطة ملابس
غير محتشمة، فحكم القاضي أن هذا هو الزي الرسمي لمهنتهن،
ومن ثم يحق لهن ارتداؤه. هنا حكم ”دانيال“* بالعدل.

وفحوى الحكم هنا هو التسامح في حد ذاته، وهو الحكم الذي
كان سينال استحسان أعظم أنبياء فضيلة التسامح على مدار التاريخ،
ألا وهو جون ستيوارت مل ”John Stuart Mill“؛ إذ كتب في

* دانيال: أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسيحي، والشخصية
المركزية في سفر دانيال، والإشارة هنا تمثل استعارة رمزية بالطبع. (المترجم).

كتابته الخلاق عن الحرية: ”إن الإنسانية لتستفيد من ترك الأفراد أحرارًا يعيشون الحياة على مرادهم أضعاف ما تستفيدة من إرغام كل فرد على التقيد بطريقة عيش سواء“.

والحق أن هذه الملاحظة تنطوي على اعتبارات في غاية الأهمية؛ فهي من جهة تضع تعريفًا للإنسان غير المتسامح بأنه الراغب في إجبار الآخرين على العيش وفق منظوره، والساعي إلى فرض ممارساته ومعتقداته عليهم بالقوة، ومن جهة ثانية تشير إلى أن المجتمع البشري يجني أعظم الفوائد من السماح بازدهار مجموعة متباينة من أنماط الحياة، من حيث كونه يعكس تجارب خليفة بأن تعلمنا جيدًا كيفية التعامل مع الظرف الإنساني عمومًا، كما أن عبارة ”مل“ الآتفة الذكر تحمل بين طياتها فرضية تقول إنه لا ينبغي لأحد أن يُملي على غيره طريقة عيشه ولا سلوكه، بشرط ألا يلحق الآخرون الأذى بغيرهم نتيجة ممارستهم لهذا النمط المختلف من العيش أو تخلُّقهم بذلك النمط المغاير من السلوك.

تلكم هي مبادئ الفكر الليبرالي، وهي كلمة ممقوتة إلى حد اللعن وسط من يخشون أن تنشق الأرض وتبرز الشياطين لو لم يُشدّد الخناق على الأفكار والغرائز البشرية، ومع ذلك فالتسامح لا يقع في موضع القلب والروح من الليبرالية وحسب، بل هو أيضًا المفارقة التي تسكنها! فالليبرالية تحض على إبداء التسامح حيال وجهات النظر المتعارضة، وتبيح لها أن تقول كلمتها، تاركة الخيار في يد الديمقراطية لتقرر أي الأفكار يسود وأيها يبيد. لكن ذلك يسفر في كثير من الأحيان عن موت فضيلة التسامح نفسها؛ لأن من يعيشون وفق وجهات نظر متشددة في نواحي الحياة السياسية والأخلاقية

والدينية لن يتوانوا ثانية واحدة عن تكميم أفواه الليبراليين إذا ما سنحت لهم أدنى فرصة، والسبب في ذلك أن الليبرالية -بطبيعتها- تهدد الهيمنة التي يسعون إلى فرضها على غيرهم.

ثمة سؤال يقول: "هل ينبغي للمتسامح أن يصفح عن المتعصب؟"، والرد الطبيعي هو كلمة "لا" قولاً واحداً حازماً؛ إذ ينبغي لفضيلة التسامح أن تحمي نفسها بوسيلة سهلة، ألا وهي التأكيد على أن لكل امرئ مطلق الحرية في طرح وجهة نظره، ولكن لا يمكن لأحد إرغام الطرف الآخر على قبولها؛ فلا إكراه بغير الحجة الدامغة، ولا التزام بغير التفكير الصادق النزيه.

قالت هيلين كيلر "Helen Keller" ذات مرة: "التسامح هو أسمى نتيجة يستطيع التعليم تحقيقها". وهي محقة في كلامها؛ إذ يستطيع الإنسان أن يثق في أن المنطق غير المتحيز، الذي يفكر به العقل الواعي، قادر في معظم الأحوال على تحقيق قيم الخير والصدق.

إن التعصب ظاهرة مثيرة للاهتمام على الصعيد النفسي؛ لأنه عرض من أعراض الشعور بانعدام الأمان والخوف. قد يزعم مضطهدوك من المتعصبين الراغبين في أن تتوافق مع طريقة تفكيرهم أنهم يسعون إلى إنقاذ روحك رغماً عن أنفك، في حين أنهم لا يفعلون ذلك إلا بسبب شعورهم الذاتي بالتهديد؛ فحركة طالبان الأفغانية -على سبيل المثال- تُكره النساء على ارتداء الحجاب، وتجبرهن على البقاء في المنزل، وتفرض عليهن ترك التعليم والعمل؛ لأنهم يخافون من حرية المرأة، وكذا يصير كبار السن غير متسامحين إزاء

الشباب في اللحظة التي يبدي فيها الشباب عدم اكتراثهم بالقيم التي طالما عرفها كبار السن ووقروها منذ زمن طويل؛ فالخوف يُولّد التعصب، والتعصب يُولّد الخوف، وهذه حلقة مفرغة.

ومع ذلك ففضيلة التسامح ونقيضها ليستا معيارًا شكليًا لقبول الأفكار أو رفضها، ولا هما من الثوابت الفكرية التي يُحتكم إليها في هذا الصدد؛ ففي وسع الإنسان التسامح مع "معتقد أو ممارسة ما" دون أن تستسيغها نفسه؛ ذلك أن جوهر التسامح في صميمه هو الاعتراف بوجود رقعة واسعة رحبة من التعايش السلمي في هذا العالم، وإذا ما شعر المرء بإهانة بسبب ما يفعله الآخرون فمرد ذلك أن فعلتهم لامست شيئًا مخفيًا في نفسه.

إننا نبدي مزيدًا من التسامح إزاء الآخرين حينما نتعلم كيفية التسامح مع أنفسنا، وحينما نوقن أن أحد أهداف الحياة المتحضرة هو أن نتعلم كيف نفعل ذلك.

الرحمة

”ومن يقف في وجه الشر يؤذ الخير...”

توماس فولر

كتب الفيلسوف الروماني ”سينيكا“ في رسالة بعث بها إلى الإمبراطور الروماني نيرون حول موضوع الرحمة: ”كي لا يضللنا مصطلح الرحمة ويغويننا بارتكاب عكسه، دعونا نتساءل أولاً: ما الرحمة؟“

غالبًا ما تكون الرحمة فضيلة ممدوحة، ولكنها لا تخلو في بعض الأحيان من خطورة؛ فهي ليست لونًا من الشفقة أو العطف أو الإنسانية، بل هي شكل محدد من أشكال ضبط النفس الذي يتيح لإنسان إلغاء عقوبة مستحقة آن أوانها. تعني الرحمة ”كف اليد عن إنزال العقوبة في حق من ارتكب إثماً“، وغالبًا ما تكون الرحمة مدفوعة بشعور العطف أو الشفقة أو التعاطف، لكنها ليست على الدرجة نفسها مثلها.

في كثير من الأحيان، عندما يُرفع ”طلب استئناف“ في حق المحكوم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص بتهمة الاحتيال (كما هو الحال في الصين) -على سبيل المثال- أو رجماً حتى الموت بتهمة الزنا (كما هو الحال في المملكة العربية السعودية)، فلا يُرفع طلب

الاستئناف في هذه الأحوال لالتماس الرحمة، بل لأجل التماس العدالة؛ فمثل هذه الجرائم لا توجب مثل هذا العقوبات القاسية، وعليه -وبالمعنى الدقيق للكلمة- فإن كلمة "الرحمة" مرتبطة ارتباطاً حصرياً بإلغاء تنفيذ عقوبة مستحقة استحقاقاً لا وجه للطعن عليه، وعندما نقول إن جنكيز خان ذبح أعداءه "بلا رحمة"، فإننا نستخدم المصطلح هنا استخداماً واسعاً فضفاضاً؛ لأننا نعني أنه عاملهم معاملة وحشية أو لا إنسانية، وهو الاستخدام الأكثر مرونة وشيوعاً. والحقيقة أن نقيض الرحمة ليس الصرامة؛ فالصرامة فضيلة هي الأخرى، وكما يقول سينيكا: "لا يمكن لفضيلة أن تكون نقيضاً لأخرى"، بل إن نقيض الرحمة "القسوة"، وإن معاقبة المذنب بعقاب أشد مما يستحق لهو أمر مفرط القسوة.

كان اللورد الجلاد السامي^{*} يتغنى بقوله: "اجعل العقوبة ملائمة للجريمة"، والمقصود بالملاءمة هنا هو "ملاءمة العقوبة".

تُوصف الرحمة أحياناً بأنها تعزيز للعدالة، وهو وصف في محله، خصوصاً عندما تكون القوانين جائرة مجافية للعقل؛ فالقوانين القاسية تشيع الفوضى، ولأجل منع شيوع الفوضى، يستغل الحاكم الرشيد فرصة إظهار قسوة القوانين كيما يبين للناس فضل الرحمة، بيد أن خطورة فضيلة الرحمة -حتى في ظل هذه الظروف- في أنها تُقَوِّض نفسها بنفسها.

* أحد الألقاب التي خُلعت على المجرم الأمريكي ألبرت أناستازيا، وهو رجل عصابات وقاتل محترف من أصل (أمريكي إيطالي)، وهو أحد مؤسسي المافيا الحديثة، وقد أكسبته سمعته الدموية ألقاباً مثل: الزلزال، وجيش من رجل واحد، واللورد السامي الجلاد. (المترجم)

ربما يكون شكسبير قد أجرى على لسان "بورتيا" كلمات لا تتسم بقدر كبير من الصدق، وإنما هي من معسول الكلام الذي يُراد به التخفيف من عقوبات "شايлок" القانونية؛ لكنه أجرى على لسان "تيمون" حقيقة مرة إذ قال: "لا شيء يشجع على اقتراف مزيد من الخطايا أكثر من الرحمة". ويبدو أن على هذه الحقيقة إجماعاً؛ إذ يقول بوبيليوس سيروس "Publilius Syrus": "اعفُ عن جريمة واحدة وستشجع على ارتكاب مزيد منها".

بل إن سينيكا نفسه أعرض عن امتداح الإمبراطور نيرون لما أحجم الأخير عن التوقيع على مراسيم الإعدام. يقول سينيكا بأسلوبه الساخر المتميز: "أوه ... لا يستطيع قلبي توقيع حكم الإعدام! هكذا وبَّخ الحاكم الطاغية نفسه". وقد أجرى الفيلسوف الحكيم على لسان إحدى شخصيات كتابه "نساء طروادة" عبارة تقول: "من لا ينة عن معصية يأمر بها".

السبب الرئيسي وراء اتصافنا بالرحمة هو أننا نرجو الرحمة لأنفسنا، وهذا هو حصاد مشاعر الرأفة والشفقة التي يبعثها في نفوسنا رفاقنا من خلال نشر مشاعر الإخاء الإنساني المشترك. يقول المثل الفرنسي: "أن تفهم كل شيء يعني أن تصفح عن كل شيء". إننا نسأل لنقر مبدأ عاماً: "ماذا عساه أن يكون أشد إنسانية وتحضراً من إعفاء الآخرين من أثقالهم الأخلاقية لأجل بلوغ عالم

* «بورتيا» وغيرها من الأسماء الواردة في هذه الفقرة هي أسماء أبطال مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية». (المترجم)

** كاتب لاتيني اشتهر بتأليف العبر والمواعظ. (المترجم)

أكثر رحمة بالبشر؟“ ومع ذلك، لكل شيء حد لا ينبغي أن نتعداه. أما أولئك الذين لم تأخذهم بالآخرين شفقة ولا رحمة، وأولئك الذين عذبوا، وقتلوا، وضربوا، وأطلقوا قنابل الغاز، واغتصبوا وقمعوا، ناهيك عن أمروهم بذلك، فقد تعدوا كل الحدود!

تطول قائمة هؤلاء الأشخاص وأمثالهم في تاريخ العالم المعاصر، وهي قائمة معروفة للقاصي والداني ولا حاجة بنا إلى تكرارها، ومن هنا فالتماس الرحمة لهم ليس إهدارًا لمفهوم الرحمة وحسب، بل هو الترخيص بالإثم لمن يظنون أنهم قادرون على الإفلات من العقاب. هنا تكون الرحمة في غير موضعها، ومربط الفرس هو إرساء العدالة لأجل خير العالم.

اللباقة

”لا شك أن إتقان فن اللباقة ضرورة قصوى، مثلها كمثل إتقان التعامل مع النعمة والجمال؛ لأنها تولّد الإعجاب المتبادل“.

مونتيني

مع كل ما نراه من أوجه فساد، لا يعيش العالم الغربي اليوم حقبة جديدة من التفسخ الأخلاقي، بل يعاني من ظاهرة أخرى مختلفة، وهي الافتقار إلى اللباقة وآداب السلوك، كما أن ما يُنظر إليه بوصفه انهيارًا أخلاقيًا ليس انهيارًا في حقيقته؛ فالمجتمعات الغربية في مطلع القرن الحادي والعشرين أفضل حالًا على الصعيد الأخلاقي مما كانت عليه قبل قرن من الزمان.

ولنقارن - مثلاً - انتهاكات المنشآت الصناعية إبان الحقبة الفيكتورية في لندن، ولنستحضر جحافل القوّادين العاملين في مجال بغاء الأطفال وقتذاك، وقطّاع الطرق المتوحشين الذين كانت تغص بهم الشوارع والأزقة. إن ما حدث في مجتمعنا لا يعدو أن يكون من قبيل ”تآكل العناصر التي تساعد المنظومة الاجتماعية على أداء وظيفتها على أكمل وجه“، فضلًا عن تبخّر قيم التسامح والاحترام التي تكفل للأفراد عيش حياة آمنة في مجتمع متشابك العلاقات متعدد الأطياف.

والمقصود باللباقة "مراعاة الأعراف، والتهدب في السلوك، واحترام الطقوس غير الرسمية التي تُسهّل علينا التعامل في ما بيننا"، ومن ثم فهي ترشدنا إلى وسائل تساعدنا على التعامل بعضنا مع بعض باحترام. تخلق اللباقة مساحة اجتماعية ونفسية للناس تتيح لهم عيش حياتهم كيفما يشاؤون، وكذا القدرة على اتخاذ خياراتهم الخاصة. أما الشباب، الذين درجوا على البصق على الأرصفة، وتبادل الألفاظ النابية في وسائل المواصلات، فهم لا يكشفون إلا عن أعراض ظاهرة لجلافة الأخلاق، بيد أن الأخطر من هذا وذاك هو انتهاك خصوصية الأفراد والتشهير بهم على يد الصحف الصفراء، ودس الأنوف في أمور شخصية لا علاقة لها باهتمامات السواد الأعظم من الناس، كفضح الحياة الجنسية لرجال السياسة مثلاً.

والحق أن عصرنا هو عصر التزمت والادعاء الأخلاقي بامتياز، وهذا هو لب المشكلة تقريباً؛ فمواقف المتمزتين أخلاقياً تتسم إجمالاً بالتعصب، والتعصب واحد من أسوأ أنواع الجلافة الأخلاقية، وإنه لمن أضعف الإيمان هو أن نطلب من أحد التحلي باللباقة. قال إيمرسون "Emerson": "علينا معاملة الآخرين باللباقة التي نعامل بها لوحة نسعى إلى تسليط الضوء عليها من أفضل زاوية ممكنة؛ لتخرج لنا في أفضل هيئة".

أما فقدان اللباقة الاجتماعية فمعناه اندثار الذوق الاجتماعي ليحل محله شعور الدفاع عن النفس؛ فتكرس الطوائف الاجتماعية المختلفة نفسها لصون إطار ضيق من مفاهيم المحافظة على "الهوية"، سواء كانت هوية جنسية أو عرقية أو دينية، وتسعى إلى

حماية نفسها من خلال إقامة حواجز تفصل بينها وبين الآخرين، مما يترتب عليه انقسام المجتمع إلى طوائف يؤمل أعضاؤها في حماية أنفسهم من الأنانية الطافحة بالوقاحة، ومن نظرات الاستخفاف في أعين الآخرين.

قال جوته "Goethe": "ثمة شعور اسمه أدب القلوب، وهو شعور أقرب إلى الحب، ومن رحم هذا الأدب، تنشأ اللياقة الأكثر تهادبًا، والأشد ملاءمة لسلوك الأفراد في ما بينهم". تجسد المقولة السابقة الصورة المثلى لفضيلة اللباقة، لكنها تغض الطرف عن حقيقة مؤداها أن اللباقة قد تصير قناعًا، ما دامت اللباقة عرضة لسوء الاستغلال، ولو أعدنا تعلّم مبادئ السلوك الأخلاقي من جديد، فستبقى فضيلة اللباقة -مع ذلك- على حالها. بيد أن هذا القول لا يغير من جوهر الفكرة، وهو أن اللباقة تشد أزر المجتمع الذي يراعي أبناؤه السلوك القويم في ما بينهم؛ المجتمع الذي يحترم أعضاؤه القيم الخاصة بكل فرد من أبنائه؛ المجتمع الذي ينظر بعين الاعتبار إلى حقوق المختلفين عن السواد الأعظم من أبنائه.

عادة ما يكون سوء أخلاق البشر راجعًا إلى وضع أنفسهم في منزلة فوق ما يستحقون، فيجعلون قيمة الإنسان من قيمة مهنته، ومن ثم يحتقرون النادل مثلاً (ولعله يكون طالبًا في كلية طب يجني دخلًا إضافيًا)، وكذا سائق الحافلة (وربما كان يكتب في أوقات فراغه روايته المؤهلة للحصول على جائزة أدبية)، إنهم -لو شئنا الدقة- يجعلون قيمة الإنسان مساوية لقيمة ما يجنيه من دخل، وهو الدخل الذي نفترض ضالته في مثل هذه الظروف، ولا يعيرون اهتمامًا لما يتحلى به من خصال إنسانية، وهذه هي الوقاحة بعينها؛ ألا نرى في

الإنسان سوى بطاقة تعريف اجتماعية معلقة على صدره، وألا نرى فيه إلا مقدار ما يملكه من مال، فيغدو الإنسان مجرد وسيلة، لا غاية في حد ذاته.

ومثلما قال كانط: "إن معاملة أي إنسان بهذه الطريقة ليست مجرد أعلى درجة من درجات الجلالة الأخلاقية، بل هي خطيئة كبرى". أو على حد تعبير الفيلسوف الألماني شوبنهاور: "إن اللباقة بالنسبة إلى الطبيعة البشرية هي بمنزلة الدفء الخفيف الذي تبثه الشموع".

ومع تجذّر مبدأ الصراع في صميم الطبيعة البشرية، فإننا لا نرى ضيراً من مواصلة الحث على هذه الفضيلة، والتأكيد على التحلي باللباقة الاجتماعية باعتبارها أداة لإدارة هذا الصراع على الأقل.

وحتى لو سلّمنا - وهو ما ينبغي لنا تجنبه عمومًا - بوجهة النظر النسبية القائلة: "إن بعض القيم غير قابلة للانسجام بعضها مع بعض"، وحتى لو افتقرنا إلى إجابة واضحة تدلنا على كيفية إيجاد حلول لبعض هذه الإشكاليات، فلا يزال في مقدورنا القول: "إن اللباقة الاجتماعية هي مطمح آمالنا لإيجاد هذا التوازن بين القيم والمحافظة عليها"؛ لما يمثله هذا التوازن من ركيزة للمجتمع برمته.

المواءمة

”إن مبدأ المواءمة هو عماد كل منفعة إنسانية، وكل فضيلة،
وكل عمل حكيم“.

بيرك [مفكر سياسي أيرلندي]

ثمة حقيقة واضحة وضوح الشمس، لكنها مع ذلك عميقة تفسر الطابع المشاكس الذي يطبع النقاشات والمجادلات الاجتماعية والسياسية على الأصعدة كافة، وأقصد بكلامي وجود طريقتين متباينتين - على الأقل - لدراسة المشكلة الإنسانية الواحدة، ومن هذا المنطلق، يكون في وسعنا أن نفسر عجز المرء أو رفضه التوصل إلى تسوية عند استحكام الخلاف؛ إما على محمل التعنت، وإما على محمل الثبات على المبدأ، وذلك بحسب منظور الإنسان منا.

فترى المرء يستنفد كل ما في جعبته من ”مبادئ، وتقاليد، وحقوق“، وما يكتنف هذه العناصر الثلاثة من تهديدات، ليسوغ للغرباء ما يروونه عنادًا وتعنتًا وتحيرًا.

تكمُن المهارة الأخلاقية في القدرة على التمييز بين هذه الخصال تمييزًا واضحًا، ولا مجال هنا لأن نذكر أخطار الفشل في التوصل إلى تسوية في أي مسألة، كبرت أو صغرت. يقول المثل الإيطالي: ”إن فقد السرج أهون من فقد الحصان“. وقال الزعيم السوفيتي

نيكيثا خروتشوف (وهو الزعيم الذي لم تمر عليه دروس التجربة السوفيتية اليومية مرور الكرام)؛ يقول: "إذا لم تتمكن من اصطيد عصفور الجنة فلتظفر على الأقل بدجاجة مبللة" [ما لا يُدرَك كله، لا يُترك جله].*

يمثل قبول ما تلقيه النتائج في طريقنا قبولاً حكيماً الحدَّ الأقصى لفضيلة المواءمة، وهي الفضيلة التي من شأنها أن ترضي الطرفين كليهما، وأن تُدخل في روع كل طرف لذة الظن بأنه قد حصل على نصيبه الأوفى، بينما هو في الحقيقة لم يوفِّ الحد الأدنى مما يستحق، وإنما غاية المفاوض الجيد إيهام الطرفين أنهما حققا ما يصبوان إليه بفضل ذكائهما، أما الحكم على تسوية ما بأنها ناجحة أو غير ذلك فهو أمر مرهون دائماً وأبداً بمقتضيات الأمور.

نادراً ما يتعذر الوصول إلى تسوية بين الدول والأمم المتجاورة، ولا جرم أن التفاوض بين الدول خير من احتدام حروب اقتصادية تتمثل في "التعريفات الجمركية"، أو حروب فعلية تتم عبر "إطلاق النار"، ومع ذلك فلم يجانب الديمقراطيات الليبرالية الصواب لما اتخذت قراراً بعدم التفاوض مع هتلر، لكن المفجع في الأمر أنها كثيراً ما تقدم تنازلات في التفاوض مع طغاة لا يمكن تفرقتهم أخلاقياً عن هتلر بأي حال من الأحوال.

* آثرت إيراد الترجمة الحرفية للمقولة مع ذكر المثل العربي الذي يتناسب مع النص الأصلي دلالياً، ولعله الأنسب هنا لخصوصيته في الثقافة العربية، ومعناه: ما لا تستطيع إدراكه كله، فلا تترك معظمه، واطفر منه بما استطعت. (المترجم)

في أحوال كثيرة، لا يتعذر اتخاذ قرارات بشأن تقديم تنازلات، وواقع الأمر أن حكومات الدول الغربية تقدم تنازلات في أحيان كثيرة لأنظمة متهمة بانتهاك حقوق الإنسان، وممارسة الاضطهاد، وارتكاب الجرائم العامة، واضعة نصب أعينها توفير الموارد المالية للشأن الداخلي، وتجنب أنفسها مخاطرة التورط في مشكلات، غاضّة الطرف عن مقدار المعاناة التي تتكبدها الإنسانية في الخارج. في القضايا الشائكة، تكون علامة النضج السياسي الامتناع عن تقديم أي تنازلات بشأن إصدار الأحكام أو إصدار قرار حازم إذا لزم الأمر، وأما في الحياة الخاصة، وفي المحيط الأسري، على سبيل المثال لا الحصر، تصير المواءمة هي المنقذ للعلاقة والمدمر لها في آن واحد!

من الواضح أنه من المحال محافظة المرء على علاقة ما دون محاولة استيعاب شخصية الطرف الآخر، وإدراك "احتياجاته/احتياجاتها"، وطريقة تفكير كل طرف على الأقل. والمواءمة هنا تعني التفاوض نحو تحقيق تسوية بناءة ومُرضية للطرفين كليهما.

ننسى دائماً حقيقة بدهية تقول: "إن طبائع الناس تتغير كلما مرت عليهم الأيام"، مثلما ننسى أن فشل العلاقات إنما يأتي الناس بغتة، بعد أن يكونوا قد أهدروا فرصة إعادة التفاوض على شروط الاتفاق القديمة في ما بينهم، عندما ظهرت الحاجة الماسة إلى إنجاز تسويات جديدة.

في الوقت ذاته، ثمة علاقات إنسانية كثيرة قوامها تقديم التنازلات من طرف إلى طرف، وخير مثال على ذلك هو النساء اللواتي كن

يقدم التنازلات ويضحى بفرص عيش حياة رغدة حرصاً على رعاية أزواجهن وأطفالهن أو آبائهن المسنين. وفي أحوال كثيرة، تبرز الحاجة إلى المواءمة على خلفية تباين الاهتمامات الجنسية؛ إذ يُضطر أحد الطرفين إلى كبت رغباته الجسدية لعجز الطرف الثاني عن إشباعها، أو أن ينزع طرف إلى التعبير عنها بوسائل مرفوضة اجتماعيًا كالعلاقات الجنسية الحرة أو اللجوء إلى فتيات الليل، وهي مواءمات فطن إليها التاريخ والمجتمع بوصفها وسائل قادرة على استيعاب القوة البركانية الهادرة لغريزة الجنس.

أما أخبث ألوان المواءمة فهي المواءمة التي يُقبل عليها الفرد في اللحظة التي تتعر فيها طموحاته، ويعترف صاغراً بوجود سقف لرغباته، والتعبير الأخير يشير ضمناً - في كثير من الأحيان - إلى انهزام الإنسان وفتور همته في مواجهة ضربات الفشل أكثر مما يشير إلى قدرته على تشمين قواه تشميناً يليق بها.

أخبرنا أونامونو "Unamuno" أن في وسعنا أن نصير أبطالاً وعباقرة إذا ما تحلينا بالشجاعة اللازمة، وإذا ما بذلنا قصارى جهدنا لتحقيق تلك الغاية. واستثناءً من قاعدة بيرك المذكورة في صدر هذا الفصل بالتوكيد على قيمة المواءمة، فربما تكون نصيحة أونامونو هي الشيء الوحيد الذي لا ينبغي أن نفاوض عليه في هذه الحياة.

* ميجيل دي أونامونو (1864 - 1936)، فيلسوف وشاعر وروائي إسباني.
(المترجم)

الخوف

”ما دام ذهن الغواص مشغولاً بالتفكير في سمكة القرش
فلن يقبض بيده على اللؤلؤة أبداً“.

سعدي

لا بأس أن نترك لغيرنا مهمة شرح سيكولوجيا ”الخوف الترفيهي“، تلك التي تفسر سبب إقبال قطاع عريض من الجمهور على مشاهدة أفلام الرعب وركوب الألعاب الخطرة في مدن الملاهي مثلاً، برغم ما يزايلنا من اعتقاد من أن الأمر برمته معزو إلى تعطُّش الجهاز العصبي المركزي في الإنسان إلى التحفيز المستمر. أما بواعث التحفيز العصبي فهي على نوعين: نوع خارجي ينشأ عن طريق استثارة الأدرينالين وغيره من المواد الأخرى، وآخر خارجي ينشأ من تناول عقار أو تناول الأقراص أو الحقن. تشبه هذه المحفزات -الداخلية منها والخارجية- الملح والفلفل اللذين ينشرهما بعض الناس على الطعام؛ فبعد فقدان حاسة تذوق النكهات الطبيعية، يصير الناس في أمس الحاجة إلى إضافة التوابل لتحفيز حاسة التذوق لديهم.

وينسحب الأمر بالمثل على غيرها من المحفزات الأخرى؛ ففي أعين بعض الناس تبدو لمسة حانية من يد عاشق، أو لحن يداعب الوجدان، أو الوقوع في أسر فكرة، يبدو ذلك كله وكأنما هو مصادر

تحفيز واهنة للغاية، فيجدون ضالتهم المنشودة في مشاهدة فيلم رعب؛ ولم لا؟ فلولا اختلاف الأذواق لبارت السلع. لكن الخوف الترفيهي بالمعني الذي أوردناه آنفاً ليس خوفاً حقيقياً، بل هو خوف مُتَوَهَّم؛ لأن الخوف الحقيقي هو عدو كل مسعى وغاية.

قال أسخيلوس: "يجعلنا الخوف ضعفاء؛ لأنه يدمر ثقتنا بأنفسنا، ويشدنا إلى الورا، ويشبط من عزيمتنا، كما أنه يثير الغبار على تصوراتنا عن الأشياء، ويضع العقبات في سبيلنا، ويهيئ لعقولنا وحوشاً لا وجود لها من الأساس". بينما قال ثيربانتييس: "للخوف بصر حاد ثاقب؛ فهو يرى ما يدب في باطن الأرض، وما هو أدق من ذلك في السماوات". ثمة أفكار تؤيد ضرورة رؤية الجانب الإيجابي من الخوف؛ فللخوف ميزة تطويرية واضحة من شأنها أن تشجذ انتباهنا إلى الأخطار الوشيكة.

ثمة عبارة حكيمة تقول: "إن رعدة خوف خير للمرء من إسداء نصيحة". ومع ذلك، يظل شعور الخوف في حد ذاته أشد ما يهابه البشر من مشاعر مقارنة بغيره، وهو ما يدعونا إلى التوقف لحظة؛ ففضلاً عن قدرته على شل حركة الحياة، يمثل الخوف مصدر كثير من الآفات الاجتماعية، من حيث أنه يؤدي إلى ظهور الخرافات والمعتقدات الدينية، وشيوع التمييز العنصري والقبلية، ومعاداة كل ما هو جديد ومختلف، مثلما يؤدي إلى تفشي التشدد والنزعات المحافظة، وإلى التشبث بالممارسات والمعتقدات البالية التي لا يُوصى إلا بالإلمام بها وحسب، ومن هنا يتحول شعور الجبن المفيد، الذي يحمي الحيوانات الضعيفة من الحيوانات المفترسة في بيئة معادية، إلى عبء ثقيل يرزح تحته إنسان العصر الحديث.

قال فولتير: "لا تُؤلّد فضيلة من رحم الخوف أبداً". والجهل والخوف مرتبطان برباط وثيق لا تنفصم عراه؛ فكل شعور منهما يغذي صاحبه، وكل شعور منهما يزداد شرّها للأكل كلما أطعمته. علاوة على ذلك، فإن للخوف منطقته المتعنت؛ فما نخشاه يحدث بسرعة أكبر نتوقع، والسبب أننا نحن سبب وقوعه.

ولعل الخوف من الموت هو أحد أكثر أنواع المخاوف الإنسانية ذيوغاً بين البشر، ومنبعه الرئيسي هو الجبن، وكما يقول المثل السائر: "يموت الشجاع مرة، ويموت الجبان ألف مرة". وينسحب الأمر نفسه على الخوف من الألم؛ إذ يتألم المريض عدة ساعات بسبب عناء التفكير في خلع ضرسه قبل أن يذوق الألم الحقيقي الذي لا تزيد مدة معاناته على عشر دقائق!

ولكن كيف يكون في مقدور الإنسان أن يُجابه مثل هذا الخوف؟ تُهَوّل بعض المفاهيم الدينية المتصلة بالحياة الآخرة من أمر الموت، ومع ذلك فأغلب وجهات النظر حوله لا تتسم بمثل هذه القسوة، ولعل أطفها على الإطلاق هو المنظور العقلاني الذي يرى في الموت حالة من حالات العدم، أي ما يوازي حالتك قبل أن تُولّد، ومن ثم فالموت -في حد ذاته- ليس هو مبرر الخوف؛ إذ ليس الموت إلا فعلاً من أفعال الحياة، قد تكون ساعة الموت يسيرة، وقد تكون عسيرة، ولا ينبغي لنا القلق إلا من ساعة الموت العسيرة، على أن وطأة تلك الساعة العسيرة ربما خففتها الحكمة التي نقشها الملك داود [النبي عليه السلام] على خاتمه لحث نفسه على التدبر إذا مرت به لحظات فرح أو تعاسة؛ ليقول في نفسه: "هذا أيضاً

سوف يمر". لم يُخلَق الخوف إلا لنتحمله، ولا يُعَدُّ الرجل شجاعاً إلا إذا داخل قلبه شيء من الخوف.

إن أمثلة الشاعر "سعدي" عن سمكة القرش واللؤلؤة إنما تجسد قوام الحكمة الواجب علينا التحلي بها لمواجهة الخوف؛ فالحياة لا تُعاش إلا مرة واحدة، وحرى بنا أن نظفر باللؤلؤة، وإلا استحوذ علينا الندم، ولئن وُجد شيء يستحق الخوف في هذا الدنيا فهو بالقطع الخوف من أن نعيش حياة لن تورثنا إلا الندم في النهاية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الشجاعة

”الشجاعة لون من ألوان الخلاص“.

أفلاطون

قال يوريديس*: ”يولي الجبان ظهره للأخطار، أما الشجاع فيرمي نفسه في أتون المعركة“. لقد تعلم الإغريق (باعتبارهم أول شعب يتمتع بعقلية مثقفة متفلسفة حقيقية) أن خوض الإنسان غمار معركة الأفكار، مُهَدِّدًا في ذلك آماله وهمته العالية وكبرياءه، لهو أشد خطرًا من قتل من يخالفونك الرأي؛ فخوض معركة الأفكار يستلزم قدرًا أكبر من الشجاعة.

يميل السواد الأعظم من الناس إلى النظر إلى الشجاعة بوصفها فضيلة المحاربين، من حيث هي فضيلة تنتمي إلى ساحات القتال، فيضعونها في مرتبة واحدة مع الرغبة في تسلق مرتفعات جبال إيفرست مثلاً، والغوص في أعماق البحار، بل وحتى المنافسة الشرسة في ساحات الملاعب الرياضية.

بعبارة أخرى: تقترن الشجاعة عندهم بكل ما يستلزم قدرة بدنية على الصمود، وكل ما يتطلب عزمًا على مجابهة الصعاب. وهو اعتقاد في محله؛ إذ تتمظهر فضيلة الشجاعة بسبب احتياجنا إليها

* شاعر وكاتب مسرحي تراجيدي إغريقي. (المترجم)

احتياجًا مطردًا في مناحي الحياة اليومية، وقد يأتي على الإنسان حين من الدهر يكون فيه "مجرد العيش في حد ذاته فعلًا من أفعال الشجاعة"، مثلما قال سينيكا في رسالته إلى لوسيليوس.

والحق أن الحياة العادية تستفز في الإنسان غريزة الشجاعة في أقصى صورها أضعاف ما تستفزه المعارك أو المغامرات؛ فمصادفات الحياة وأقدارها المحتومة كالكروب، والأمراض، وخيبات الأمل، والآلام، والصراعات، وشظف العيش، والخسارة، ومشاعر الذعر، ومآسي القلب، هي كلها خصائص مشتركة تسم الطبيعة الإنسانية، وهي جميعها تجارب يتعرف إليها مئات الألوف من البشر كل يوم وليلة، ومن ثم فهي تتطلب قدرًا من الجلد والشجاعة يُهَوَّنُ أمامها تسلق جبل إفرست.

بينما يُعَدُّ تسلق الجبال أو الغوص في أعماق البحار أنشطة بدنية مستقلة، تدوم لفترة معينة، ما تلبث أن تنقضي، وتعود الأمور إلى سابق عهدها، فإن التصدي لمآسي الحياة أو مواجهة خيبات الأمل على سبيل المثال أمران مختلفان تمام الاختلاف؛ فالأمور السابقة إنما هي مواجهات جديدة مفتوحة، تنطوي في أعماقها على مفاجآت متأصلة، يتحتم تحمُّل كثير منها قبل أن يأتي الفرج.

إنها لشجاعة في حد ذاتها أن يهجر النوم الإنسان ليلاً من فرط الألم، أو أن يستيقظ صباحًا وقد عاودته مشاعر الحزن والأسى، لكنه برغم كل ذلك ينهض، ويغادر فراشه، ويمضي قدمًا في طريقه، منطلقًا إلى عمله، مؤديًا واجبه على أكمل وجه. أضف إلى ذلك أن الشجاعة فضيلة لا يشعر بها إلا الذين يخافون، أما إذا انعدم الخوف

من قلب رجل يقتحم باستهانة معسكر الأعداء، أو من قلب لاعب يلقي بنفسه بين زمرة لاعبي "الرجبي"، فهو غير جدير بأن نخلع عليه صفة الشجاعة. ولما كان أغلب الناس عاجزين عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة، فإن قيمة البطولة الحقيقية لا تزال مجهولة، ومن ثم لا يُثاب عليها أصحابها.

من بين ما قاله يوريبيديس أيضًا: "شجاعة الرجل هي أن يتحمل ما ترسله إليه السماء من أقدار". والحق أن من بين قول يوريبيديس حرفيًا: "... أن يتحمل بلا ذرة تردد..."، لكنه بهذه الإضافة يفسد الشعور المبعوث في العبارة؛ فإذا كانت الشجاعة تستلزم الخوف فلا جناح على المرء إن جفل.

ومع أن الحياة العادية تتطلب إظهار قدر استثنائي من الشجاعة في بعض الأحيان، فإن وجودنا البشري نفسه يستلزم ضربًا مغايرًا من الشجاعة، ألا وهي شجاعة مواجهة الجديد، وقبول التحديات التي تقدمها إلينا إمكانيات التجربة. في كتابه "رسائل إلى شاعر شاب"، سلط ريلكه الضوء على هذه الفكرة إذ قال: "إننا محتاجون إلى الشجاعة لمواجهة أشد الظواهر التي تصادفنا غرابة واستثنائية واستعصاءً على التفسير". وكان ريلكه يقصد من كلامه الشجاعة لاستقبال الحب لحظة قدومه، واستقبال الموت ساعة حضوره، وغض الطرف عما تسلبه منا الحياة مقابل ما تمنحنا إياه، وقبل كل شيء، الشجاعة على ابتكار عمل يبرز خصوصية مواقفنا الفردية إزاء العالم، وفرادتها - مهما بلغ تواضعها، ومهما اتسمت الشجاعة بالتواضع وخصوصية التجربة - قادرة على إحداث فارق حاسم في جوهر حياتنا أو نوعيتها.

الهزيمة

”ثمة انكسارات تكون أسمى مجدًا من الانتصارات“.

مونتيني

قد يبدو للوهلة الأولى أن الهزيمة والنصر وجهان لعملة واحدة؛ فوجود كل طرف يستلزم وجود الثاني بالضرورة ليكون لأي منهما معنى ومدلول. ومع جواز تطبيق هذا المبدأ في أحيان كثيرة، لا تمضي الأمور على هذا النحو دائمًا؛ ففي الحياة هزائم لا تقابلها انتصارات، والعكس صحيح؛ فثمة هزائم هي في حقيقتها انتصارات، والعكس بالعكس. ومن الأهمية بمكان أن ندقق في التفرقة بينهما، وإلا فإن الإنسان يضع حياته على المحك باعتبارها حياة ملأى بالهزائم، خاوية الوفاض من الانتصارات، وهو حكم يجانبه الصواب في الأعم الأغلب.

عندما تتقاتل ذكور الأيائل عند حلول موسم التكاثر، تعاني الذكور الخاسرة انخفاضًا حادًا في مستويات هرمون التستوستيرون (هرمون الذكورة)، بينما ترتفع الهرمونات الذكورية عند الذكور المنتصرة. وسواء كان علم النفس البشري يعمل بآلية مماثلة لآلية عمل الغدد الصماء أو لا، فمن المؤكد أن الفرقة الخاسرة أو القوات الخاسرة أو التي مُنيتْ بهزيمة منكرة تعاني من انكسار الإرادة. ولعل في وصف الكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري أصدق

تمثيل على وصف الحالة المزاجية للمهزومين إذ قال: ”في مذاق الهزيمة شيء من الوهن، والتشوش، والملل، وبالدرجة الأولى شيء من الشعور بعدم الجدوى“.

ربما مرت عليك لحظة انكسار شعرت خلالها بصدق كلمات سانت إكزوبيري، اللهم إلا إذا مُنيتَ بهزيمة تفوح منها رائحة المجد، على النحو الذي قالت فيه إحدى شخصيات سوفوكليس: ”أَفْضَلُ أَنْ أَهْزَمَ بِشَرَفٍ عَلَى أَنْ أَكْسَبَ الْمَعْرَكَةَ بَغْشٍ“.

بعد طول تأمل، ارتأى كثير من المفكرين أن منيع خيبات الأمل هو الانتصارات الوشيكة الحدوث، لكنها لا تحدث أبدًا، وهو ما يدفع الإنسان إلى التفكير في أنه ربما لو لم يسعَ إليها من الأساس لكان الأمر خيرًا له، بدلًا من أن يبذل غاية جهده ثم تُمنى جهوده بالفشل. ومع ذلك فحينما توقن أنك كنت منافسًا شريفًا، ستتنبه إلى وجود أطياف شتى من الانتصارات، ولربما أوشكت الانتصارات أن تتحقق، لكنها نأت عنا في اللحظة الأخيرة، وهذه الانتصارات المُدبِرة هي الأكثر إنارة للبصيرة وشحنًا للوعي؛ وإنما ذلك لأن ما يصبغ شخصيتنا بصبغة التميز هو ما نطمح إليه، وإن ما يدمغ مساعينا بختم النبالة هو ما نسعى ناحيته، وليس المحك في بلوغ الهدف ذاته.

في إحدى مسرحياته، قال سوفوكليس على لسان إحدى شخصوه: ”إنك عندما ترفع الراية البيضاء أمام أصدقائك فإنك في واقع الأمر تفوز بالمعركة، وإن فكرة الهزائم المجيدة (أي تلك الهزائم التي

تتعلم منها، أو تسدي فيها إلى الآخرين معروفًا، أو تسمح للفكرة الأفضل أن تشق طريقها نحو الازدهار) لهي فكرة في غاية الأهمية.“
قال سبينوزا: ”ليس بالقوة نستحوذ على عقول البشر، وإنما بمروءة الخلق وعاطفة المحبة. وإنه لفوز عظيم لو أننا استحوذنا على العقول بهذه الطريقة؛ لأن في هذا رد الأمور إلى جادة الصواب.“

كما أن الاعتراف بصحة حجة الخصم والتسليم بها، أو تفهّم عدالة قضية الطرف الآخر وإفساح الصدر لها، لهما أيضًا هزائم مغموسة بمذاق الانتصار؛ فكل هزيمة هي فرصة سانحة على الدوام، حتى لو محق الأسوأ الأفضل، كما يحدث في أغلب الأحيان.

في مثل هذه الأحوال، يصعب على الإنسان تحمل مرارة الفشل، مثلما يصعب عليه تحمل هزيمة منشئها الظلم المتأصل في هذه الحياة، الظلم الذي يحول بينه وبين تحقيق فرص سانحة بسبب ظروف قهرية مُنبئة الصلة عما بذله من جهود حثيثة، كظروف المرض أو المصائب أو الحروب أو الكوارث الاقتصادية، ومع ذلك فكل مصيبة تنزل بنا تجلب معها عِبرًا مستخلصة أو آفاقًا جديدة تقودنا إلى المستقبل.

ربما يتعذر على الإنسان أن يرى أيًا منها في تلك اللحظات العصبية، وهنا يلعب الصبر دوره. كان تي إتش هكسلي T. H. Huxley يقول لطلاب الطب الذين يدرسون تحت إشرافه: ”لا تخلو بعض الإخفاقات من فائدة عملية كبرى“ (وهو يقول ذلك عن مهنة أخطائها قاتلة حرفيًا)، وهذا رأي سليم.

لا يستلزم الأمر منا سوى إظهار الشجاعة والتحلي بالحس السليم
لنعرف أن أئمن دروس الحياة هي أشقها على أنفسنا، ما دامت
الحياة قد عودتنا أن الهزيمة درس من دروسها، وهو ما يدفعنا إلى
الاعتقاد بأن الهزيمة الوحيدة حقاً هي السماح لها بالانتصار.

الحزن

”يعيدنا الحزن أطفالاً من جديد“.

إيمرسون

عندما يلقي الناس حتفهم في حادثة مباغته بضربة قدر تبدو متعسفة ظالمة مروعة إلى درجة تجل على الوصف، تبدو كلمات العزاء لذويهم شيئاً لا طائل منه. في موت الفجأة، لا تتوافر رفاهية الاستعداد للحادث كما هو الحال عندما نهى أنفسنا لموت إنسان ابتلي بمرض منذ فترة طويلة، وفي موت الفجأة، لا مجال للشعور بحتمية الشيخوخة، ولا مجال للإحساس بالنهاية، ولا وقت لقول كلمة وداع!

يدرك الموت الإنسان بغتة، تاركاً وراءه أعمالاً لم يُنهِها، وأشياء لم يقلها. وحتى عندما يسافر الجنود إلى جبهة القتال، تكتسب فكرة الوداع أهمية قصوى، انطلاقاً من فرضية عدم عودتهم، وهو ما يُنزِل السكينة على قلوبهم.

لكن ما يدمي القلب حقاً في موت الفجأة هو غياب أي من الفرص السابقة. ومع ذلك فثمة مصادر أخرى يمكننا أن نستلهم منها العزاء والسلوان؛ أولها فكرة أن الموتى لا يريدون أن يغمر أحباءهم الحزن، بل يؤملون أن يدرك الأحياء الحقيقة التي أشار إليها الكاتب

الفرنسي جيرودو "Giraudoux"، والتي تُذكرنا أن في الأتراح أفرًا مقيمة، وأن في الحزن عودة نهائية إلى السعادة؛ إذ قال: "تترف الأحزان على أجنحة الصباح، خارجة من قلب الظلمات إلى النور".

ولإقامة الدليل على صحة هذه الفكرة، أنصحك أن تضع في اعتبارك الفكرة الآتية: فكّر في من يهمل أمرهم، وتخيل مدى فاجعتهم عندما يسمعون نبأ وفاتك، واسأل نفسك عن مقدار الأسى الذي تريدهم أن يحتملوه لأجلك، سيكون جوابك حينذاك بلا ذرة تردد: لا ينبغي لهم الإفراط في الكتابة، ولا ينبغي أن تدوم أحزانهم لفترة أطول من اللازم. ربما ترغب وقتذاك أن يتصالح أحباؤك الأحياء مع شعور الفقد، وأن يذكروا أجمل لحظات الماضي بفرح، فترجوهم أن يواصلوا حياتهم وفي قلوبهم نور الأمل، وهو الشعور الفطري الذي جُبلت عليه الطبيعة البشرية. ولو كان هذا هو ما نتمناه لمن نتركهم وراءنا حين نفارق الحياة، فعلينا أن نعتقد بقوة أنه هذا هو ما سيتمناه من قضوا نحبهم بالفعل، ولو فعلنا ذلك لاستطعنا بلورة تصوّر منصف بشأن أفضل وأعذب أمنية يتمناها الموتى لنا نحن الأحياء، ولشرعنا في استعادة التوازن الذي اختل ميزانه بسبب أحزان الحياة المفجعة.

على أن من المصادر التي تمدنا بالعزاء -أيضًا- إدراك حقيقة أن وطأة الأحزان تخف هونًا لو تشاركناها مع غيرنا. قال سينيكا: "تبلغ الأحزان ذروتها ونحن في عزلة، وتصير دموع الأسى أقل مرارة لو اختلطت بدموع الآخرين". وحتى لو كانت مشاركة مشاعر الحزن

مع غيرنا لا تخفف من غلوائها، فإنها تعين المرء على التعافي من الآلام.

قد يبدو الأمل في عين إنسان يحاصره الحزن من كل جانب مرتقى صعبًا وغاية عسيرة المنال، لكن الطبيعة البشرية السوية مسكونة بقدر عميق من الشجاعة، أدناها تلك الشجاعة القادرة على تذليل العقبات أمام استعادة الأمل واسترداد السعادة من جديد.

يُقال إن الحزن هو أعمق مُعَلِّمٍ لفضيلة الحكمة، وهو أرجح المعلمين عقلًا. قال لورد بايرون "Lord Byron": "ينبغي أن يكون الحزن مُعَلِّمَ الحكماء؛ فالحزن جوهر المعرفة، وإن أحد دروس الحزن البليغة هو الكشف عن طبيعة الدور الذي يلعبه (أي الحزن) في نسج خيوط الوجود من حولنا".

لا تكاد سيرة ذاتية معتبرة تخلو من مشاعر الأسى والحزن، وهي حقيقة جوهرية متأصلة في الطبيعة الاجتماعية لجنسنا البشري، وإن صلتنا بالآخرين -سواء كانت صلات عائلية أو صلات حب أو روابط صداقة- إنما هي دعوة مبطنة إلى احتمال الخسارة، ومن ثم دعوة إلى احتمال الحزن.

فمن الناس من يجد عزاءه في فكرة النظام المتعالي الذي يكون جزاؤه عن الأحزان الجمع بين من حزن بعضهم على بعض في رابطة متصالحة نهائية ودائمة، ومنهم من يجد عزاءه في التصورات العلمانية. كان الفلاسفة الرواقيون في العصور القديمة أشد حكمة، فذهبوا مذهب إبيكتيتوس الذي قال: "برغم كون الأحزان نابعة من خارجنا، فإن طريقة استقبالنا لها يجعلها تحت سيطرتنا، فنحتملها

في أول الأمر، ثم ما نلبث أن نفرض عليها شروطنا، فتُكسِبنا (أي الأحزان) بصيرة ثاقبة لرؤية الظرف الإنساني الراهن رؤية أعمق، وتُعلِّمنا التعاطف مع غيرنا تعاطفًا أقوى مما كان لدينا قبل اكتسابنا التام لهذه البصيرة“.

ومع ذلك، لا ننكر أننا عاجزون عن تجاوز أحزاننا لفقدان الأحباب؛ فلا نملك -والحال هكذا- إلا أن نتعلم كيفية التعايش معها، بل أن نعيش رغماً عن أنفسها، وهو ما يجعل الحياة أشد ثراءً وامتلأً (وهنا لا أرى أي مفارقة). نعم، تلك هي هدية الحزن، الهدية التي نرغب لو أنها لم تُهدَ إلينا قط!

الموت

”أن يموت المرء فذلك أمر مختلف عما يظنه الناس؛
هو أمر يجعله أسعد حظاً“.

والث وثمان

لو أسسنا فهمنا للموت على الأدلة والبراهين بدلاً من الفرع إلى
الخوف أو الرغبة، فعلياً فهم الموت بوصفه عملية طبيعية (مادية)
ذات شقين: الشق الأول هو توقف وظائف الحياة للجسم برمتها،
بما في ذلك الوعي، يليه الشق الثاني وهو تحلل الجسد إلى عناصره
المادية الأولية. وفي لحظة الموت، يحدث توقف الوظائف وبداية
التحلل الجسدي في آن واحد. لم يجزم أحد برأي حتى اليوم حول
حقيقة ما يجري في تلك اللحظة تحديداً، وهي مسألة على جانب
كبير من الأهمية بسبب إمكانية المحافظة على عدد من وظائف
الجسد الفسيولوجية بطريقة اصطناعية. ومع ذلك فثمة توافق عام
على أن موت الدماغ -إذ يقضي على النشاط العقلي قضاءً مبرماً-
بمنزلة إسدال الستار على مسرح الحياة.

أما في مظاهر الطبيعة الأخرى فتوقف الوظائف الطبيعية، وما
يتبعها من تحلل الجسد إلى عناصر مادية أولية، هو لبنة أساسية
داخل سيرورة الحياة. ربما تكون ملاحظة عادية، لكنها لا تخلو
من أهمية لو أشرنا إلى أن الموت والتحلل دعامتان تسهران على

خدمة الحياة، وآية ذلك أن تتحول أوراق الشجر المتساقطة إلى الدُّبال الذي تتغذى عليه الشتلات في العام التالي؛ لذا فزوال فصل الخريف وانقلابه هو ضرورة لمجيء فصل الربيع، ومن ثم فالموت شرط الحياة، ويشكل شرط معادلة الوجود.

ومع ذلك فموت الإنسان يختلف اختلافاً جذرياً عن موت غيره من الكائنات. أغلب البشر يتمتعون بوعي داخلي لتأمل ذواتهم، وترى معظم الكائنات الواعية في الموت فقداناً مبيئاً لأسمى ما تملك: غريزة الوعي وقوة الإرادة. وليس المقصود هنا أن معظم البشر - لو تأملوا الموت- سيرغبون في عيش حياة أبدية، على الأقل في هذا العالم. في مسرحية برنارد شو "Show" "رجوعاً إلى ماتوشالغ"،، نقرأ أن خلود الإنسان جحيم لا يُطاق.

واقع الأمر أن الموت يأتينا بغتة قبل أن نستنفد اهتمامنا بالعالم، وقبل أن نُشبع اهتمامنا بمن نكترث لأمرهم. ولو أننا تأملنا الأمر من منظور ذاتي لما وجدنا اختلافاً البتة بين كونك ميتاً وكونك لم تُولد بعد، أو كونك تغط في نوم عميق بلا أحلام، ومن ثم لا شيء يوجب الفزع، أما ما يبدو مخيفاً فهو احتمالية الموت في حد ذاتها.

المفارقة أن الموت فعل مقرون بالأحياء؛ فالأحياء فقط هم من يموتون، ومثله كمثل بقية الأفعال الحياتية الأخرى كالأكل أو

* مادة عضوية تنتج عن تحليل المواد العضوية، ومعظم مكوناتها من بقايا حيوانية ونباتية متحللة في التربة. (المترجم)

** مسرحية ملحمية كتبها الأديب البريطاني برنارد شو، تتناول تاريخ البشرية بداية من خلق أبي البشر آدم وزوجه وخروجهما من الجنة، وقد قدمتها إذاعة البرنامج الثقافي المصرية مُترجمة على أربعة أجزاء. (المترجم)

المشي أو الشعور بالسعادة أو الإصابة المرض؛ ربما يكون الموت ممتعًا، وربما يكون غير ذلك، ولعل ممكن الاختلاف هنا يكمن في أن الموت ليس خبرة تقع في نطاق وعينا؛ فخبرتنا بالموت مقصورة على شعور فقدان الآخرين، وهي خبرة قوامها الحزن، ومن ثم فموتنا ليس جزءًا من خبرتنا الشخصية؛ فكل واحد يخبر الحياة فقط، والموت جزء منها لا أكثر. وفق هذا التحليل، ومن المنظور الذاتي للأمور، فنحن كائنات منذورة للبقاء لا الفناء.

في تأملاته المشهورة، قال الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس، (وكان فيلسوفًا رواقياً): "إننا نفقد اللحظة الحاضرة ساعة موتنا فقط؛ فالماضي لم يعد موجودًا والمستقبل لم يأت بعد، لذا (ولكي نخفف على أنفسنا) علينا فقط أن نُجِبل البصر حولنا لنسأل: هل تستحق اللحظة الحاضرة أن نحافظ عليها حقًا؟" لكن أوريليوس جانبه الصواب؛ فكل فرد منا مزيج من الذكريات والآمال، ولحظة الحاضر هي نقطة التقاء الماضي والمستقبل، بكل ما تقترن به هذه اللحظة من مشاعر الكفاح أو استنزاف القوى، أو من ذكريات الانتصارات والانكسارات. وتحدد كل حالة من هذه الحالات وغيرها كثيرًا من خلال علاقة ماضينا بتوقعاتنا.

نحن البشر مخلوقات تعشق السرد، ويشير فضولنا الجزء الذي لم يُروَ من القصة بعد، لذا نرى في موت أحيائنا أو في احتمالية غيابنا عن القصة -بسبب موتنا- شرًا مبرمًا، أما بالنسبة إلى المرحبين بالموت فالمسألة مختلفة؛ إذ يكتسب الحاضر المُكوّن من خليط الماضي والمستقبل شكلًا خاصًا يشوّهه الألم، ويلعب علم النفس

هنا دورًا محددًا، بعدها يتحتم أن يكون الفصل التالي من القصة هو الفصل الأخير.

تؤمن معظم الأديان بالحياة الآخرة، ومنها من يرى أن يوم الدينونة يبدأ بالحساب الذي ينتهي إما بعقاب وإما بثواب. تكون هذه التصورات ذات فائدة جمة لإرشاد الأحياء؛ إذ يجد بعض الناس فيها مؤازرة نفسية، بينما يراها آخرون أمرًا يجعل الموت أكثر هولًا وفظاعة، فيغدو الموت في أعين هؤلاء بلدًا غريبًا محكومًا بقوى غامضة، يغامر المرء بالدخول إليه دون الاستعداد جيدًا، وعلى جانب آخر، يبدو الخلود في الدنيا -في بعض الأحيان- أمرًا أشد فظاعة عند المؤمنين الأتقياء.

ذهب أفلاطون في مدينته الفاضلة إلى ضرورة تشجيع الإيمان بالحياة الآخرة الهائلة، بقصد أن يُقبل المواطنون على الانضمام إلى صفوف الجنود الصالحين دون أن يهابوا الموت، وهو الرأي الذي تذهب إليه كثير من العقائد المتعصبة. على أن الأديان المؤثرة لا تخلو -هي الأخرى أيضًا- من صبغة عسكرية؛ إذ تعد أتباعها بأن تكون الجنة مثواهم لو حملوا أرواحهم على أكفهم وانطلقوا إلى ساحات القتال! في مثل هذه الحالات، تُصَبُّ التصورات المتعلقة بالموت في مصلحة كهنة المعابد والحكام الطغاة.

ولما كان الموت -من وجهة نظر طبيعية- مرادفًا لكونك لم تولد بعد، فلا شيء في الموت يجعله في حد ذاته خيرًا أو شرًا، وإنما مربوط الفرس هنا يتعلق بما يسلبه الموت منك؛ فلو سلب منك الألم المُضِّ غير المحتمل ولا المحدود فهو خير، أما لو سلب منك

الفرص والآمال، وفرق بينك وبين أحبابك، فهو شر مبین. ومن الناس من يجادل في أن موت الإنسان ليس شرًّا البتة؛ فالميت لا يدرك ما الذي فقده، بل إن احتمال الخسارة هو الشر بعينه، وليس حدوث الخسارة. ومن هنا فالموت -مرة أخرى- يمثل مشكلة في أعين الأحياء وحدهم، وهي مشكلة يمكن تفاديها، ومن ثم غض الطرف عنها.

ونسجًا على المنوال ذاته، يمكن للمرء أن يتجنب شعور خوفه من الموت من خلال قبول حتمية حدوثه في البداية، ثم تجاهل الأمر برمته بعد ذلك، فيتجنب بذلك مصير الجبان الذي يموت في خياله ألف مرة خشية الموت. ولعل هذه هي الأسباب التي حملت الفيلسوف سبينوزا أن يقول: "الرجل الحكيم هو الذي لا يتدبر الموت، بل الذي يتدبر الحياة". لكن السؤال الجوهرى المطروح هنا هو: كيف نتعامل مع موت الآخرين؟ فالحزن يعتصر قلوبنا حسرة على فقدان من جعلوا حياتنا ذات معنى.

علينا القول "إن جوهر المسألة هو عملية تعافٍ متواصلة لا مفر منها، وهي عملية تعافٍ كامل لا بد من المرور بها وتحملها"، وتتخذ في كثير من المجتمعات شكل فترات حداد رسمية تتراوح مدتها بين سنة وثلاث سنوات، ومع ذلك لا يعود العالم بعد الفجعة كما كان، والحقيقة أننا لا نتجاوز الخسائر، بل نتعلم فقط كيف نتعايش معها. وفي ذلكم مواساة عظيمة!

وعماد هذه المواساة حقيقتان: أولاًهما أن الموتى عاشوا بيننا في يوم من الأيام، والأخرى أن من أحببناهم وأدمى قلوبنا رحيلهم هم جزء لا يتجزأ من تاريخ العالم، ومن ثم هيهات أن تستطيع محو الراحلين من سجلات الزمن أبداً، وهو ما يعني أنهم يتمتعون بدرجة ما أو بأخرى من الخلود.

ولكن كم واحد منا يستطيع أن يستشعر في هذه الحقائق مواساة وسلواناً؟ الحقيقة أننا لا نحسن التعامل مع الموت، خصوصاً في عصرنا الذي تهيمن عليه النزعة المادية الاستهلاكية، العصر الذي يزعم أننا خالدون مُخلَّدون في الدنيا، وأن ينبوع السعادة الحقيقية هو القدرة المادية على الشراء، وفئة قليلة من البشر هي من تواجه الموت عيناً لعين، أو تتأمل طبيعته وجهاً لوجه، أما أكثر الناس فينطلقون من افتراض مسبق مؤداه أن الموت شر مبین، فيتحاشون التفكير في الأمر برمته، بل يرفضون السماح لأي إنسان أنهكه العذاب أن تدركه رحمة الموت، لو أراد أن يختار ذلك، وهكذا نختبئ من الموت، ونداري وجوهنا عنه حتى تأتي اللحظة الأخيرة، أعني لحظة اضطرارنا إلى مواجهة موت الآخرين. وهذا بالطبع ما لم نكن متدينين، فضلاً عن نوع آخر من التدين المادي الذي راق "ليفين" في رواية تولستوي؛ فأنماط التعامل مع الموت وشعائرها غالباً ما تكون غليظة خشنة لا توفر أي سلوان حقيقي.

* الإشارة إلى رواية تولستوي آنا كارنينا، والمقصود شخصية قسطنطين دميتريش ليفين. (المترجم)

ربما اختلف منظورنا لو أننا أدمنّا النظر إلى الموت ومعانيه عن كذب، ورسّمنا لأنفسنا صورة واضحة نزيهة تُظهر الموت على هيئة تُبديه أعظم حقائق الحياة، ستؤتي هذه الصورة ثمرها لو بينت لنا أن للموت وجوهاً كثيرة، قليل منها يسير المنال، وكثير منها يمكن مواجهته لو تحلينا بالشجاعة الكافية.

إننا نرى الموت اليوم أشد صعوبة وأغرب أطواراً مما رآه أسلافنا؛ ففي الأزمنة السالفة، كان الموت مطلاً برأسه أينما ولى الناس وجوههم، وكان أشد حضوراً في الحياة العامة. لقد كان هو الأكثر ألفة إلى البشر من أغلب متع الحياة الأخرى؛ إذ كنا نرى الموت جالساً إلى كل طاولة، راصداً خطوات البشر، محصياً عليهم أنفاسهم، جاعلاً من العالم مكاناً مختلفاً.

ولا جرم أن الموت قد منح الدين دفعة قوية إلى الأمام بوصفه الخيار الوحيد الذي يكفل للناس العيش مشمولين بشعور الأمان وسط هذا الوجود الطافح بالشر والخداع، على أنه لا شيء يبدو مطلاً طلة الموت مثل شجرة ياسمين ذابلة في برد الشتاء القارس، غير أنه سرعان ما تهب رياح مارس على حديقتك، فتفتح البراعم الخضراء الطويلة من أغصان نبات الياسمين الهشة باحثة عن طاقة نور ابتغاء الخروج إلى الحياة.

ولا شك أن الملاحظات الشائعة حول أطوار الإحلال والتجديد في الطبيعة كانت بمنزلة ينباع البكر الصافية التي تستمد منها البشرية أملاً وهي تواجه مشاعر الشفقة والخوف من الموت، وكان من نتيجة ذلك أن كثرت الحكايات عن يوم الدينونة في الأديان

والأساطير على حد سواء، وليس من قبيل المصادفة أن يكون "عيد الفصح" هو نفسه "عيد الربيع"، والحقيقة أن مثل هذه الأفكار كفيلة بأن تفسر لنا اعتقاد الناس في الحياة الآخرة، كما تفسر حقيقة الخوف والتعطش إلى العدالة.

إن الخوف مسألة بدھية بلا أدنى شك، وهي غير محتاجة إلى تفسير، والتوق إلى تحقيق العدالة المطلقة لا يمثل للأثرياء إلا طموحاً باهتاً، في الوقت ذاته، ننسى حقيقة أن أكثر الناس اليوم يرون الحياة مهمة كثيفة، وهو حال البشر على مر التاريخ، وما وصلنا من أصوات الماضي المتحضرة انبعث من القلة القليلة التي استطاعت الكلام أو ممارسة الفعل. والحقيقة أن اعتقاد آمال البشر على الحياة الآخرة إنما هو انعكاس حزين لظلم هذه الحياة وإدانة لها، وهو ما من شأنه أن يفهمنا مقولة سبينوزا الآنفة عن الرجل الحكيم بشكل أعمق؛ لأنها تكشف لنا أنه لو كانت أحوال الحياة تجعل كثيراً من الناس يحسدون الموتى على موتهم، فمعنى ذلك أن الإنسانية خذلت نفسها خذلاً تاماً مبيتاً.

الأمل

”ولولا فسحة الأمل لانفطرت قلوبنا“.

توماس فولر*

تنطبق آية سفر الأمثال ”الرَّجَاءُ الْمَمَاطِلُ يَفْرِضُ الْقَلْبَ“ على قاعدة عريضة من البشر في شتى أرجاء العالم، ممن تعصف بهم الصراعات العرقية والدينية لأسباب نشأت في القرون الخالية، وهو مثال يدل على أن الفظائع، التي اقترفتها أيدي البشر في العصور الخالية، لا تزال تلقي بظلالها على المستقبل.

وبالنسبة إلى هؤلاء وغيرهم ممن يلتمسون اللجوء إلى الدول الحرة الغنية ابتغاء الحياة الكريمة التي حُرِّموا منها في أوطانهم المُكَبَّلَة بأغلال القهر والفقر، تكون ثروتهم الرئيسية هي الأمل في عيش حياة آمنة، والحصول على فرصة جيدة، وبدء حياة جديدة، ولا أشق عليهم من تحمُّل فكرة أن يخيب رجاؤهم حينما تذهب جهودهم أدراج الرياح. غني عن القول إن الأمل مسألة ضرورية ملحة للحياة، ولكن ما المقصود بانعدام الأمل، والاعتقاد بأن الأمور لا تزداد إلا سوءًا؟ وماذا يعني انتظار الفشل والهزيمة؟

* مؤرخ إنجليزي تُوفِّي سنة 1661. (المترجم)

إنها مسألة عسيرة على التخيل؛ ففي السَّراء، يذهب المتفائلون إلى أن الأمل محفز قوي لاستنهاض الهمم بهدف أداء ما هو أفضل، وفي الضَّراء، يكون الأمل مصدر عزاء وسلوان؛ إذ يعزز فكرة الغوث أو النجدة أو كون الجزاء وفاقًا، أو تحقُّق العدالة الناجزة التي تأتي في نهاية المطاف. وحتى عندما تتردى الأحوال، ونسلم أن الأمل ما هو إلا كبرق خُلِب؛ أقول، مع كل ذلك، ندرك أن الأمل يمهد لنا "طريقًا يجوز بنا إلى نهاية حياتنا" على حد تعبير لاروشفوكو*. لكل رأي معارضوه بطبيعة الحال، ويذهب أنصار المذهب الكليبي** (التشاؤميون) إلى أن شؤم الليالي الحالكة غالبًا ما يورث البشر آلامًا أخف من آلام وعود الفجر الكاذب والأمانى الخداعة.

النقطة الشائكة أن الأمل الكاذب يلطخ سمعة الأمل نفسها؛ فمقابل كل عشرة آلاف إنسان لا يحدوه الأمل يوجد مليون يتعلقون بالآمال، لكن ما أندر ما يتحقق منها؛ فالأمل يُلبس الأكاذيب ثوب الحقيقة، ويوقع البشر في حبال مساع عبثية وجهود تضيع سُدَى، مما يجر عليهم خيبات أمل أدهى وأمرًا لاحقًا.

قال بترونيوس "Petronius"***: "تمامًا مثلما تسقط المخلوقات الغبية في مصيدة الطعام، لا يسقط في فخاخ الحياة إلا من يحدوهم الأمل". ويواصل الكليبيون الضرب على وتر التشاؤم

* مؤلف شذرات، وكاتب مذكرات فرنسي، تُوفِّي سنة 1680. (المترجم)

** الكليبية (أو الفلسفة التشاؤمية): اتجاه متشائم حيال قدرة البشر على اتخاذ الخيارات الأخلاقية الصحيحة، ويذهب إلى انعدام الثقة بالقيم الأخلاقية والاجتماعية ورفض الحاجة إلى المشاركة الاجتماعية. (المترجم)

*** كاتب وسياسي من العصر الروماني. (المترجم)

قائلين: "إن الأمل مجرد مرآة مُشوَّهة للواقع"؛ إذ يقلب كل صنف القبح والشر في الحياة إلى مجرد شاشة مخادعة تعرض الجمال والخير، ومن ثم فالأمل حليف الوهم.

يقول فولتير: "يومًا ما سيكون كل شيء على ما يُرام، هذا هو أملنا، واليوم كل شيء على ما يُرام، هذا هو وهمنا". ولما كانت عين الأمل دومًا على المستقبل، فإن تلك السمة تجعله سلعة تُشترى بثمان بخس، فضلًا عن كونها سلعة لا تبور أبد الدهر؛ فعندما تُحبَط الآمال القديمة ما تلبث أن تنشأ محلها آمال جديدة بالقدر ذاته من السرعة والسهولة التي تُولَد بها أفكارنا.

ولكن هل الحياة حقًا أمل كاذب، أم أن الحياة هي مجرد الأمل فقط ولا شيء غير الأمل؟ هل الحياة أرقى وأنبل من واقع مُؤسَّس تأسيسًا مباشرًا على مجابهة الحقائق ومعرفة الأمور على علاقتها؟ لعلنا نذكر عبارة نيتشه الشهيرة: "الأمل أسوأ الشرور؛ لأنه يطيل عذاب الإنسان".

ربما يُقال إن الكلبين انطلقوا من فرضية مغلوبة تذهب إلى نزوع الإنسان الدائم إلى أحلام اليقظة والتخيلات، والتشبث بأهداب الآمال الباطلة في مواجهة الأدلة الواقعية الدامغة التي تؤكد عكس ما يُحلم به، وإلى جنوح العقل إلى تعزيز التوقعات والطموحات التي لا تمت إلى الواقع بصلة.

إن ما نشأ من بذرة الأمل هو كل ما دفع العالم للمضي في طريقه قُدَمًا، وكل ما أعاد العالم إلى الوراء إنما نشأ من موت الأمل، أما تلك النظرة الغارقة في الكآبة فهي التي تفسر الأمل بوصفه ضعفًا،

ولا تراه فضيلة تحثنا على تشمير سواعدنا لنعانق الحقيقة الأبدية الدامغة المتعلقة بظرف الوجود الإنساني، أقصد تلك الحقيقة التي يبتها أنصار الأمل، تلك التي تقول: "إن المعاناة متجذرة في نسيج الوجود، وإن مصيرنا الموت لا محالة".

وفي المساحة الفاصلة بين المعاناة والموت، علينا أن نعمل شيئاً. ولكن ما عسانا أن نفعل بأنفسنا من دون فسحة الأمل؟ أجل، في وسعنا تبني موقف عدمي حيال الحياة، لكنه موقف يجعل الحياة أسوأ من الموت. واقع الأمر أن بعض الناس يرون في الموت البديل الوحيد المكافئ للأمل.

كان ألبير كامو قد حدد السؤال الجوهرى للفلسفة بأنه: "هل أنتحر أم لا؟" فلو كان الجواب على السؤال "لا" فمعنى هذا أن ثمة أشياء جديرة بأن تؤمل في حدوثها. سيعترض المتشائمون على التعامل مع الأمل باعتباره فضيلة؛ لأنه نادراً ما يؤتي ثماره، بيد أن المدافعين عن فضيلة الأمل يقولون: "إن هذا المنظور هو رؤية الأمور مقلوبة رأساً على عقب؛ فالأمل فضيلة قائمة برأسها، مستقلة عن حتمية تحقيقها؛ الأمل قيمة إنسانية جوهرية، غاية في حد ذاتها، فضيلة متحالفة مع الشجاعة والخيال الإنساني، الأمل فضيلة تضع يدها في يد الموقف الإيجابي المحتشد بالفرص والطموح".

عندما تعرف آمال إنسان فإنك تعرف حقيقته معرفة أفضل مما لو أحصيت إنجازاته في الحياة وحسب؛ إن خير ما في المرء كامن في ما يؤمل في الوصول إليه.

المثابرة

”لن تصمد أعظم أشجار البلوط أمام ضربات فأس متوالية“.

جون ليلي

ترتهن سعادتنا وآمالنا بفضيلة واحدة جوهرية، وهي ”المثابرة“، ومن ثم القدرة على المضي قُدماً برغم ما يحاصرنا من ظروف معاكسة، وبوجوه متهللة مستبشرة ما وسعنا، وأضعف الإيمان ونحن متحلين بروح سينيكا الضجرة من العالم إذ قال: ”مهما جنينا شوكة فسنغرس البذور من جديد“.

يقال دوماً: ”إن المثابرة خصلة حميدة، اللهم إلا إذا كانت تنشد أهدافاً غير ملائمة“؛ لكنها مقولة مرهونة بمعرفة متى تكون الأهداف صحيحة ومتى تكون غير ذلك. رب قائل يقول إن الأصم ذا الأصابع المكتنزة، الذي يأبى إلا أن يواصل العمل لإتقان العزف على الكمان، إنما يسير حتماً في الاتجاه الخطأ، ومهما مُدِّحت مساعيه فلن تنفع المثابرة في شيء! وربما يرد عليه آخر بأن أي هدف نبيل يستلزم المعاناة لتحقيقه؛ فتعلم العزف على آلة الكمان مثلاً يجب أن يحوذ على احترامنا، ومهما تعذر على رجل كهذا تعلم فنون العزف فإنما يكفيه شرف المحاولة الدؤوب.

وهو جواب يفيض بروح إيجابية، ومع ذلك يمكن القول: "إن أغلبنا قادر على تحقيق رغباته"، أو على الأقل -كمثل عازف الكمان الطموح- أغلبنا قادر على التعلم من المحاولة لو أنه وجد الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأمر، وأعني بذلك أشياء من قبيل تعلم "لغة الماندرين"، أو العزف على "آلة الماندولين"، أو "خفض الوزن"، أو "الاقتراض والسحب على المكشوف"!

تناسب بعض الطرائق بعض الأفراد، بينما تناسب غيرها نوعية ثانية من الأفراد، وعلى المرء أن يكتشف الطريقة المثلى المتناغمة مع ذاته.

بالطبع ثمة أشياء ربما تبدو أقل إثارة للفضول والاهتمام، كالانضمام إلى طاقم المركبة الفضائية المكوكية، أو أن تُنتخب رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، خصوصًا لو كنت طيارًا يقود طائرة نفاثة، وتتمتع بلياقة بدنية عالية، وحائزًا على درجة علمية عليا في الفيزياء، حينذاك سترى العمل في المكاتب أمنية باهتة غير مغرية، أقول ذلك مع أنها حُرِف غريبة الأطوار لا تستهدف تطلعات السواد الأعظم من البشر وأنشطتهم بالقدر الكافي، حتى لو كانت حِرَفًا صعبة بالنسبة إلى أغلب البشر.

في سنة 1961، ألقى جون. إف. كينيدي خطابًا ترك بصمة مؤثرة في تاريخ البشرية بأسرها؛ إذ احتوى على إشارة رائعة تخبر الناس أن أمريكا سترسل رائد فضاء إلى القمر بحلول نهاية ذلك العقد، وسبب الصدى القوي الذي تركه خطابه أن المهمة لم تكن سهلة، وإنما كانت مهمة شاقة؛ فالاضطلاع بالمهام الشاقة هو ما

يجعل منك إنساناً أفضل. وعلى ضوء هذا المعنى فكل ما يتطلب
المثابرة هو في حقيقته أمر شاق عسير، ومن ثم يرتقي بمستواك.

يكمن سر المثابرة في فهم ”منحنى التعلم“، وهو منحنى بياني خطي
يعلو ويهبط ثم يعلو مجدداً، ويعاود الهبوط والارتفاع، وهكذا دواليك
على نحو مستمر إلى أعلى الورقة، وهو بذلك يرسم الشكل القياسي
لمؤشر التقدم الذي يحرزهُ الأفراد وهم يحاولون إتقان شيء جديد.
في أول الأمر، ترى كل شيء يسير سيراً سلساً، ثم ما يلبث أن
يشعر المرء بغتة أنه يرجع القهقري، ويعود ليخسر ما سبق إحرازه من
تقدُّم، وعند هذه المرحلة، يستسلم أغلب الناس، مع أنهم لو واصلوا
المضي قُدماً فسيجدون أن بعد كل هبوط صعوداً جديداً، وأن
الاتجاه العام يسير إلى الأعلى وصبوب الأمام، مما يجعل المقولة
اللاتينية ”Per ardua ad astra“، التي تعني ”الطرق الوعرة
تخرج بك إلى النجوم“، مقولة صحيحة.

معروف للجميع أن المواظبة على التحلي بالمثابرة يؤتي أكله
أكثر من المواظبة على استخدام القوة؛ فالماء المتساقط قادر على
شق الحجارة، التي يعجز المرء عن شقها بالمطرقة، وتحويلها
إلى شظايا، كما أن المثابر يكشف عن امتلاك عدد من الخصال
الإضافية، كالعزيمة، والطموح، وقوة الإرادة، وهنا قد يقول الكلبي
(المتشائم): ”إن في وسعنا وضع ”العناد“، و”الحماقة“، و”خفة
العقل“ على التوالي في موضع الخصال السالفة الذكر“. والحقيقة
أن نقيض المثابرة هو الاستسلام، والانصراف إلى تجربة شيء آخر،
والتخلي عن الطموحات.

دعونا نعترف أنه ربما يكون طموح الانضمام إلى طاقم المكوك الفضائي قرارًا حكيماً، ولكن -بوجه عام- أقول: "إن أفضل اختيار وأكثره إرضاءً لأنفسنا هو أن نستشف السبب وراء اتخاذ قرارنا هذا". لعلنا نذكر تعبير راسكين "Ruskin": "إن ما يجعل جهودنا جديرة بالاهتمام هو ما نصير إليه في النهاية بفضلها، وليس ما أحرز من خلالها".

* جون راسكين: ناقد إنجليزي من العصر الفيكتوري تُوفِّي سنة 1900. (المترجم)

التبصّر*

”يُحَسِّنُ صَنَعًا مَنْ يُثَبِّتُ سَفِينَتَهُ بِمِرْسَاتَيْنِ“.

بويليوس سيروس

لا شك أن التبصر فضيلة. وعند قبيلة الأشانتي قول مأثور يقول: “لا تختبر عمق النهر بقدميك الاثنتين”، وهو مفهوم ثري ويحتل بؤرة اهتمام تأملاتنا الأخلاقية حول سبل الحياة القويمة.

ولكلمة التبصر الجذر اللغوي نفسه لكلمة ”العناية الإلهية“، الذي اشتُقَّتْ منه كلمتا ”Providentia“ و”prudential“ اللاتينيتان، أما في اللغة الإنجليزية فقد زُحِجَ المعنى عن موضعه، بحسب المعنى غير اللاهوتي؛ فمعنى أن تكون متبصرًا هو أن يُؤْتَى كل امرئ بصيرة داخلية تعينه على إدراك ضروريات الحياة وكمالياتها وفهمهما.

ومن ثم فالتبصر متصل بالوضع العملي للفرد ذي البصيرة. التبصر مسألة ذات طابع شخصي. ومعنى أن تكون متبصرًا أن تتوخى الحيلة والحذر، وأن تكون فطنَ الفؤاد، وأن تمسك عليك لسانك،

* المفردة ترجمات عدة متقاربة، لكني آثرت كلمة «التبصّر»، وهي الترجمة الواردة في قاموس مصطلحات الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، مكتبة لبنان ناشرون 2019، وذلك لقربها من مراد المؤلف كما يدل الفصل. (المترجم)

أن تحسن تدبير مواردك، أن تتلافى الأخطار وتلتزم التحفظ، أن تفكر في المستقبل وتتهيا لما هو آتٍ. أما نقيض التبصر فهو التهور، والتقصير في الواجبات، والعجلة في كل أمر، ومعظمنا لا يخلو من هذه الخصال بدرجات متفاوتة أحياناً، مما يجعل الحياة مهمة شاقة إلى أبعد الحدود.

إن العيش بتعقل وتدبر هو العيش على النحو الذي ذكره أرسطو في معرض وصفه للحياة القويمة التي تنظر إلى الحياة بعين العقل، متأسيًا في ذلك بالرجل المهتدي بالحكمة العملية "phronesis"، الرجل المؤمن في كل مواقف حياته بالوسط الذهبي؛ فالشجاعة - مثلاً - هي وسط بين الجبن والتهور، كما أن الكرم هو الوسط بين التقدير والتبذير، ونموذج الإنسان المتبصر هو الإنسان الأرسطي، مثله كمثل "فأر" بلاوتوس الصغير الحكيم؛ "إذ يعهد بحياته إلى جُحر واحد أبدًا".*

بيد أن منتقدي أرسطو يقولون إن "الوسط" يظل على كل حال "متوسط القيمة" في كل مناحي الحياة: العمر المتوسط، الإنسان المتوسط الذوق والثقافة، الإنسان المتحفظ، الإنسان ذو الحياة الرتيبة أخلاقياً وعاطفياً، إلخ.

كتب روبرت لويس ستيفنسون "Robert Louis Stevenson": "حالما يبدأ التبصر في الاستحواذ على ذهن

* فكرة عتيقة يميل أصحابها إلى التوسط بين كل أمرين أو موقفين متضادين، ويُقَدِّم "الوسط" بوصف «الذهبي» إشارة إلى قيمته الثمينة. (المترجم)

** نيتوس بلاوتوس: كاتب مسرحي روماني قديم، له حكمة مأثورة تقول: «تأمل الفأر الصغير، كم هو حيوان حكيم! لا يعهد بحياته إلى جُحر واحد أبدًا». (المترجم)

الإنسان كفطر سام، فإن أول صورة يتجسد فيها هي كف يد الإنسان عن بذل العطاء، وهو ما يُعَدُّ ناقوس إنذار يحذرنا من أن التبصر يعرقل طريق المرء إلى التقدم في أغلب الأحيان.

نعلم أن الإقدام على الأفعال الجريئة المُغامرة الجسورة، وسرعة الاستجابة، والاختيارات العفوية المندفعة، بل وحتى ارتياح الأخطار، كل هذه الأمور كانت شرارة الانطلاق التي خرجت منها مظاهر التغيير والنمو، سواء على صعيد الحياة الشخصية أو على مستوى مصير الإنسانية بأسرها، ومن هنا فالتبصر - وفق هذا المنظور - فضيلة باردة ثقيلة الحركة قياسًا بالحيوية التي تزخر بها الفضائل السابقة، ويبدو أن فضيلة التبصر منقطعة الصلة بالمنظومة الفكرية في رأي المؤمنين بأن الإنسان يعيش مرة واحدة، فيغتنمون كل فرصة سانحة بكل جوارحهم، ويشاطرون بليك "Blake" الرأي في أن التبصر إنما هو خادمة عجوز قبيحة وثرية تدنو من الموت، ولا يريد أحد التورط معها.

وكالعادة، لا نلمح هنا أثرًا لأي صراع واضح الملامح؛ فليس كل اندفاع حماقة بالضرورة، كما أن الحياة الخاضعة للتدبر والتأمل لا تُسَقِّط من حساباتها العواطف والغرائز، ومع ذلك فمن يعيش الحياة متسلحًا بالجرأة تقو بصيرته؛ فالشجاعة تمهد السبيل أمام فرص الحب والمعرفة، والمغامر، الذي يجدف في نهر الأمازون باحثًا عن المغامرات، سيجد ضالته، ولكن عليه أن يخبرنا إذا ما كان يذكر نصيحة بوبليليوس سيروس عندما يرسو زورقه ليلاً.

الصراحة

”لو كان الكذب يقتل الحب، فماذا تفعل الصراحة إذن؟“

أبيل ميرمانت*

سرعان ما يتعلم الساسة أن الصراحة سلعة باهظة الثمن لو طُبِّقَتْ في شؤون الحياة العامة، وكذلك الأمر لو طُبِّقَتْ في شؤون الحياة الشخصية، اللهم إلا إذا استُخدمت بتعقُّل وحكمة، وخُفِّف مفعولها بالقول اللين؛ فالصراحة تسيء إلى الآخرين أكثر مما تسيء إلى صاحبها.

الحديث بصراحة معناه الكشف عن مكنون صدرك، والبوح بالحقيقة كاملة كما تراها في ذهنك، وأن تفعل هذا معناه أنك لا تبالي بعواقب الأمور. عندما يتحاشى الناس الصراحة فإنهم ينطقون بلسان حذر، أو يعمدون إلى الالتواء في الكلام، أو يتجملون باللباقة، وفي أحيان كثيرة، يجمعون بين الأمور الثلاثة.

يجد كثير من الناس في الكذب واللباقة فائدة عملية في أمور الحياة أكبر مما يجدونه في الصراحة، وهو رأي صحيح بكل أسف في ما يخص الكذب، لكنه ليس صحيحًا تمام الصحة في ما يتعلق باللباقة في الكلام؛ فاللباقة هي تعبير عن مراعاة احتياجات الآخرين

* كاتب وشاعر ولغوي فرنسي تُوفِّي سنة 1950. (المترجم)

والاهتمام بمشاعرهم، وهي أداة مهمة في مساعدة البشر على تخطي تعقيدات العلاقات الإنسانية المتقلبة.

إن القديس هو الكائن الوحيد الذي يلزم نفسه بالصراحة في كل المواقف؛ إذ تخلو نفسه من الأحقاد والضغائن أو ضيق الأفق الذي يطبع الشخصية الإنسانية عمومًا، فالقديس يقول ما يدور بخلده، وحتى إذا وقع كلامه موقعًا سلبيًا خشنًا في نفس رفاقه فهم لا يحملونه على محمل الحقد والضعينة، ولا يرون في الأمر ضيرًا. لكن ما أقل هؤلاء القديسين في عالمنا اليوم! وبما أن سائر البشر لا يضمنون نقاء الدوافع الداخلية لو تكلموا بصراحة، فلا عجب لو اكتسبت خصلة التهذب قيمة كبرى؛ ففي كل مناسبة اجتماعية، يُقِيم معظمنا -بوعي منهم أو من غير وعي- مقدار الصراحة التي يمكن أن تحتملها الظروف.

والمناسبات الاجتماعية على أوجه عدة؛ فربما يحتاج إنسان مسه الأذى أو نال منه الهوان إلى بعض التوجيهات اللطيفة لاجتياز أزمتة، وربما يشعر ضيوف مدعوون إلى العشاء مثلاً بالإهانة بسبب الإشارة إلى تفاصيل ذُكرت وقُدِّمت تقديمًا غير لائق، أو ربما ينتابهم الضجر بسبب الإسراف في الكلام بصراحة، ومن هنا فاللباقة أمر محمود في كل الأحوال.

لا شك أن اللباقة من كرم السجايا، صحيح أن في وسع كل إنسان أن يكون صريحًا، بما في ذلك البسطاء والمهمشون، ومع ذلك فليس في وسع كل إنسان أن يلجِم لسانه ليعرف كيف وماذا يقول لتحسين قنوات الاتصال مع البشر، وهو ما قد يجلب عليه خيرًا أكثر من غيره من الوسائل.

تُسْتَغَل الصراحة في بعض الأوقات استغلالاً سلبياً يُراد به إيلام الناس أو الانتقام منهم؛ فنحن قد نخبر غيرنا بـ“الحقيقة المُرّة” بدعوى حرصنا على مصلحتهم، مع أن الباعث المُضمر في صدورنا هو إلحاق الأذى بهم أو ما نخفيه من مشاعر غيرة أو استياء أو ما شابه. وقد لاحظ تينيسي ويليامز “Tennessee Williams” أن جميع القساة يصفون أنفسهم بأنهم نماذج يُحتذى بها في الصراحة. لكن مربط الفرس في مسألة “المصارحة بالحقيقة المُرّة” هو أنها –وأضُم إليها خصلة الصراحة عموماً– لا تعكس الحقيقة دومًا على الوجه الصحيح؛ ففي أغلب الأحيان، يكون لب الحقيقة هو ما يعتقد المرء أو ما يدّعيه، والأسوأ من ذلك هو رأيه الصريح الذي يعرب عنه بأسلوب وقح، وعلى ذلك فمناط الأمر متعلق بالاعتقاد الشخصي أكثر من تعلّقه بالحقيقة، والاعتقاد دائماً ما يُدخِل الهوى الشخصي بوصفه أداة ذاتية.

ثمة اعتبار مهم جدير بالالتفات حين تشعر بسهولة انطلاق لسانك بصراحة ولا تراودك لحظة تتوقف فيها لتقول الحقيقة كاملة غير منقوصة، وهذا الاعتبار هو أنك لن تخدم الحقيقة ولن تخدم إخوانك في الإنسانية إلا إذا قلت الحقيقة بحذافيرها، وهو ما يقتضي مزيداً من التدبر، والتهيؤ لما هو أكبر من إخراج الكلام من فمك وحسب. ومع ذلك فثمة مساحة واحدة فقط تصير فيها الصراحة مطلباً مُحبباً: عند انعقاد أواصر الصداقة بين اثنين؛ فاللحظة التي يتخلّى فيها الأصدقاء عن تحفظهم ويفضي كل واحد إلى صديقه بمكنون صدره هي اللحظة التي ترتقي فيها الصداقة درجة أعلى. قال مونتيني “Montaigne”: “لو تحليت أنت بالصراحة فستستدعي تلقائياً

صراحة الطرف المقابل، وسيثمر ذلك عن الاكتشاف المتبادل. إنه شيء أقرب إلى العلاقة المتبادلة بين الحب والنبذ".
هذه هي صراحة القلب، التي تتيح للآخر أن يدنو منك، وتتيح لذاتك أن تدنو منه، ولولا تبادل المشاعر لما كانت للحياة قيمة تُذكر.

الكذب

”إن تحوّل الكذب إلى ضرورة من ضرورات الحياة
إنما هو جزء من طبيعة الوجود المروعة المريبة“.

نيتشه

في دهاليز السياسة والحكم، يكون التحفظ في قول الحقيقة أمرًا بدهيًا تستحيل من دونه ممارسة السياسة وشؤون الدولة. ربما لا نرى ضيرًا أحيانًا في استعمال أساليب المراوغة والتحايل والنفاق والأكاذيب في ممارسات الحياة العامة، ولا نتورع أن نصم بالسذاجة كل من يصصر على تجنب ذلك. في الوقت ذاته، لا يختلف اثنان في العالم على أن الكذب في حد ذاته خطأ كبير، وأن اكتشاف الكذب يطعن في نزاهة صاحبه. واقع الأمر أن كذبة واحدة قادرة على تلوّث سمعة رجل إلى الأبد.

ذهب أفلاطون إلى أن الأكاذيب ليست شرًا في حد ذاتها وحسب، بل إنها تلوّث روح الكاذب، وهو بذلك يشرح بوضوح وجهة نظره بأن الحياة الأخلاقية لا تستقيم من دون قول الحقيقة، وهي الرؤية التي تصدّق على مناحي حياتنا الاجتماعية. يقول مونتيني: ”الحق أقول لكم، إن الكذب رذيلة ملعونة؛ إذ لا يربط بعضنا ببعض إلا صدق الكلمة التي تخرج من أفواهنا“.

بيد أن هذه الآراء الصارمة لا تصادف هوى في قلوب الناس أجمعين؛ فالكذب قد يكون بطولة في رأي من يؤمنون أنه من دون الأكاذيب ستندم خصوصية حياة البشر، وأن الحياة حينذاك سيشلها الضجر واليأس، وهو ما قد يؤدي إلى مفاسد كثيرة.

إننا نؤيد تهليل هوميروس لبراءة أوديسيوس في إتقان فنون المكر والخداع؛ إذ كان الأخير كاذبًا بارعًا قولًا وعملاً، وارتقى إلى مصاف الأبطال، فهزم السيرينات، وغلب العملاق بوليفيموس، والساحرة كيركي، وسائر سكان هاديس، ومع ذلك فإننا لا نختلف على أن المجتمع لا يستقيم حاله إلا على أساس النزاهة والصدق، وعلينا الظن أن معظم الناس ينطقون بالحق معظم الوقت، وتأسيسًا على ذلك يمكننا القول: إن انقسام مواقفنا تجاه الكذب - عندما نفسح صدورنا لفوائده، بل لضرورة وجوده، بينما نعارضه من وراء الكواليس كما لو كنا نريد الإبقاء عليه ضمن حدود بعينها - إنما يعني ضمناً وجود مبررات تسوغ الكذب في بعض المواقف، وهو ما يعني أننا مختلفون مع أفلاطون.

* السيرينات مخلوقات بحرية أسطورية في الميثولوجيا الإغريقية، غناؤها عذب يغوي البحارة، نجا منها أوديسوس لما وضع الشمع في أذنيه، والعملاق بوليفيموس شخصية أسطورية لها عين واحدة صرعاها أوديسوس، والساحرة الشريرة كيركي هي ابنة إله الشمس، وكانت قادرة على مسخ البشر، لكن البطل أوديسوس لم يتأثر بسحرها، وهاديس هو إله العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

من الناس من يبرر الكذب إذا كان الصدق سيسفر عن نشوب صراعات أو تأجيلها بلا داع، بل يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك حينما يقولون إن الأكاذيب يمكن أن تكون ترياقًا يحمي البشر من المعرفة المؤلمة، كما هو الحال عندما يُطمئن الطبيب مريضًا جزعًا مخبرًا إياه أن صحته على ما يُرام.

في مقدورنا التفكير في حالات لا حصر لها تعزز فيها الأكاذيب الانسجام بين أفراد المجتمع، وتعين على استرداد الحقوق وإصلاح ما أفسده الظلم، وتساعد على إجهاض الأكاذيب الأشد خبثًا، وعلى حماية الحقائق الأساسية. في الأحوال السابقة جميعها، يكون الفيصل في تبرير الكذب هو الاستفادة العملية من ثماره؛ فلو كان نفع الكذب أكبر من ضرره فلا جناح عليه.

إن ما يزعج أفلاطون وأضرابه ممن يرفضون الكذب رفضًا قاطعًا مهما كانت آثاره هو الحقيقة التالية: أن تكذب معناه أنك تعرف الحقيقة، لكنك تعتمد إلى إبلاغ الجمهور بنقيضها (مع ملاحظة أنك لو أخبرت جمهورك بشيء كاذب، ولكنك لا تعرف أنه كذب، فأنت لا تكذب). وهكذا فأنت تقترف إثمًا مضاعفًا: إثم معرفة الحقيقة مع إخفائها (وهي ثروة ثمينة)، وإثم تعمّد ستر الحقيقة عن الآخرين كي لا يعرفونها.

أرشدت صرامة وجهة النظر هاته الفلاسفة المتأخرين—خصوصًا كانط—إلى وسيلة ذكية معروفة لدى الفلاسفة؛ إذ قال كانط: ”مع أن الكذب مرفوض رفضًا قطعيًا، فلا ضير في قوله أحيانًا (وهذه مسألة مختلفة وأقل أهمية)، على الأخص عندما يكون الكذب الصّراح

أشبه بوضع سم لشخص ما، وعندما يكون إخباره بغير الحقيقة أشبه بمهاجمته في الشارع، لا في عقر داره (وهي تشبيهات كانط نفسه)، وهو أمر أكثر نزاهة مما لو صح القول“.

ومن هنا فمن المقبول أن نكذب لو كان الكذب سيحامي الآخرين من أن تؤذى مشاعرهم بطريقة ما أو بأخرى، والأمر أشبه بما يلي: تسألك جارتك قائلة: ”أأنا قبيحة؟ فتجيبها: ”وما الذي يمنع كوازيمودو* أن تبدو كأنها ملكة جمال؟“ فيكون جوابك الضمني المضمّر: ”لن أستخدم صفة قبيحة، بل أقول لديك وجه ذو ملامح مختلفة“.

حتى علماء الأخلاق الدينيون يوافقون على ذلك؛ إذ يقولون إن الكتاب المقدس يجيز الأكاذيب الكانطية [نسبة إلى كانط] بشيء من التحوط، كما ورد في سفر الأمثال: ”كَثْرَةُ الْكَلَامِ لَا تَخْلُو مِنْ مَغْصِيَةٍ، أَمَّا الضَّابِطُ شَفَتَيْهِ فَعَاقِلٌ“**. لكن ألسنة الحكماء ليست حرة طليقة، ومن بين ما تقوله تعاليم كنيسة إسكتلندا ”Kirk***“: ”إن قول الحقيقة في غير أوانها خطيئة“. ومن هنا فإننا نقبل، بل ونشيد أحياناً، بـ”الأكاذيب البيضاء“، واضعين في اعتباراتنا أن الحقيقة لا ينبغي دوماً أن تُقال كاملة.

* البطل الرئيسي لرواية أحذب نوتردام للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو، وكان ذا ملامح مُشوّهة. (المترجم)

** سفر الأمثال 18:10. (المترجم)

*** كلمة إسكتلندية سابقة في اللغة الإنجليزية الشمالية وتعني الكنيسة، وغالباً ما تُستخدم تحديداً لوصف كنيسة إسكتلندا. (المترجم)

وختامًا أقول: إنه لا يسع المرء إلا أن يشعر بصواب رأي نيتشه الذي تقدمت الإشارة إليه؛ ففكرة أن الأكاذيب لازمة من لوازم الحياة إنما يكشف لنا عن أن الحياة يعتورها النقص بطبعها؛ إذ تعني "فكرة ضرورة الكذب" أن العلاقات بين البشر يستحيل أن تخلو من مظاهر الضجر والاضطراب التي تخلقها مشاعر الحساسية المفرطة والغيرة والبلبلّة.

شهادة الزور

”لا تخدع طبيبك، ولا تسييس الاعتراف، ولا محاميك“.

جورج هيربرت

ينص قانون الحنث بالقسم في ولاية إنديانا على أنه لا يكفيك أن تكون صادقًا عند الإدلاء بشهادتك أمام المحكمة وحسب، بل على شهادتك ألا تكون مختلة المنطق؛ لأنك ستُعاقب وفقًا لأحكام القانون بعقوبة شهادة الزور ما دام قولك مندرجًا تحت اليمين، وليس إيقاع العقوبة لمجرد معرفتك بأن شهادتك شهادة زور، أو لأنك لا تؤمن بصحتها (وهو فارق بسيط)، ولكن ستُعاقب أيضًا لو أدليت بشهادتين تُناقض إحداها الأخرى تناقضًا يفهم منه أن واحدة منهما كاذبة على الأقل.

ولما كان أغلبنا يطوي في صدره معتقدات تُناقض بعضها بعضًا، فمن الأفضل ألا ننطق إلا بما هو ضروري لو وجدنا أنفسنا شهودًا في ساحة إحدى محاكم ولاية إنديانا.

تقول الصياغة الحرفية لقانون الحنث باليمين في ولاية إنديانا إن الحكم ببطالان الشهادة وكونها شهادة زور يقتضي حتميًا أن تكون أقوال الشهود في مجموعها ”غير متسقة إلى درجة أن تكون إحداها

كاذبة بالضرورة“، وهي صياغة تفرض على سكان الولاية منطقاً هو في حد ذاته خلو من المنطق، ولا أقصد هنا أنه من غير المنطقي أن نرجو من الناس أن يتخلوا عن المنطق، بل أقصد أن معنى القانون نفسه - لو قرأناه قراءة حرفية- يخلو من أي منطق، بل حتى لو قرأناه قراءة فضفاضة غير حرفية فلن تكون مهمة سهلة على الإطلاق.

المشكلة هنا مردّها الصياغة اللغوية غير المنضبطة، وهو الخطأ الذي يحرص المُشرِّعون عادة على تجنبه، وكان الأولى أن يشترط القانون (للحكم بشهادة الزور) أن تكون أقوال الشهود غير متسقة إلى درجة استحالة صحتها معاً، وفي لحظة واحدة، ولكن لا يجوز أن يشترط القانون أن تكون إحدى الشهادات كاذبة بالضرورة بالمعنى المنطقي المنضبط، تكون الشهادة كاذبة قولاً واحداً عندما تستحيل صحتها منطقيّاً، أو بعبارة مختصرة: عندما تدحض نفسها بنفسها؛ لكن ذلك لا يمنع أنه يمكن لكلا القولين في سياق بضع شهادات غير متسقة أن يكونا متسقين ذاتيّاً، بمعنى انعكاس حقيقة كل منهما وبطلانهما لو كان العالم مختلفاً.

وهذا ما يميز الباطل الشائع عن الباطل ”الضروري“، ويستحيل على الأخير أن يكون صحيحاً تحت أي ظرف من الظروف؛ فكون عبارة ما غير متسقة مع عبارة أخرى لا يعني حتماً أن إحداها كاذبة.

* المقصود من باب التوضيح: يلزم للحكم بشهادة الزور أنه «يتحتم» على إحدى «الشهادتين/القولين» أن تكون إحداها غير متسقة مع الأخرى، وهذه صياغة غير منطقية «لغوياً»؛ لأن الحتمية تبدو فرضاً واجباً، يحمل الدهن على التفكير في وجوب ذلك على الشاهد. (المترجم)

إننا نتساهل بشدة مع شاهدي الزور لو اتهمناهم بتناقض الشهادة وحسب، ومع ذلك فإن مقصد قانون ولاية إنديانا واضح لا لبس فيه؛ إذ يجسد غاية تشريعات الحنث بالقسم في كل مكان في العالم. والحق أن الحنث بالقسم من بين الجرائم الخطيرة؛ لأنه يجهض الإجراءات القانونية إجهاضاً مباشراً إذ تسعى إلى تحقيق العدالة الناجزة؛ فيستحيل تحقيق العدالة ما لم يرفع أطراف القضية إلى هيئة المحكمة كل البيانات التي يعتقدون يقيناً بصحتها، وتنقل ما في حوزتهم من معلومات متصلة بالقضية المنظورة، وبما أن فرصة تحقيق العدالة مرهونة بذلك المطلب، تُشَدِّد السلطات القضائية العقوبة على شاهدي الزور عند اكتشاف الواقعة.

من الطبيعي أن تُرتكب جرائم الحنث باليمين في كل وقت وحين؛ فشاهد الزور يرغب في النفاذ بجلده على أمل تحقيق منفعة أكبر، لكن العذر الأخير ليس مبرراً مقبولاً، والسبب في ذلك أن الكذب أمام هيئة المحكمة يُسمَّى حنثاً بالقسم؛ فهو ليس مجرد كذب عادي، بل هو كذب مُتعمَّد رغم إدراج القول تحت اليمين القانونية؛ إذ يُقسِم طرف الدعوى أمام هيئة المحكمة (إما بالكتاب المقدس أو بغيره من المُعظَّمات) على قول الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة. وليس أداء القسم القانوني بالأمر الهين، بل هو التزام وتعهد بالنهوض بدورٍ مسؤول في المشاركة الجادة لتحقيق العدالة، وكون المرء عضواً من أعضاء المجتمع يضع على كاهله التزاماً ضمناً بأن يؤدي دوراً فاعلاً، بيد أن الإقرار المُتعمَّد والعلني بهذا الالتزام أمام المحكمة مهمة ذات طابع خاص، والحنث باليمين هو انحراف عن حدودها.

ينطلق القانون بروح متفائلة من فكرة تفترض وجود شيء اسمه الحقيقة، وأن أي إنسان قادر على قول الحقيقة دون أن يتلوث بأثر من الباطل، وليس هذا وحسب، وإنما من دون أن تختلط داخل عقله ألوان الاحتمال أو الظن أيضًا! وليس بيت القصيد في هذا السياق هو وجود الحقيقة أو إمكانية بلوغها أم لا؛ لأن اللغة القسم المطلقة غرضًا عمليًا، ألا وهو إلزام الشهود بألا يفكروا لحظة في تضليل المحكمة؛ لأنهم بفعلهم هذا إنما يذبحون العدالة، ولهذا السبب فلا أهمية تُذكر إذا كان موضوع شهادة الزور مسألة تافهة أم عظيمة؛ فمجرد الإفضاء بشهادة الزور في حد ذاته أمر ذو أهمية قصوى؛ لأن العدالة واحدة من أسمى القيم وأضعفها في آن واحد، ولا ينبغي أن تُترك أي فرصة للتسامح مع أعداء العدالة.

الخيانة

”كل ما يمكن للإنسان أن يخونه هو ضميره“.

جوزيف كونراد

لا وجود لخيانة من دون ثقة مسبقة؛ فعندما يُتَّهم إنسان بخيانة وطنه أو أصدقائه أو زوجه، فإن هذا الاتهام يحمل افتراضات كثيرة حول طبيعة التزامات الفرد في كل حالة، وهي الالتزامات التي نستشف منها كثيرًا عن حقيقة كونك مواطنًا، أو صديقًا، أو مُحِبًّا. أما فقدان الثقة، الذي يحدث عند الخيانة، فيبقى طي الكتمان.

ينطوي الاعتقاد بأن كل إنسان منوط بالتزام خاص تجاه وطنه، وأن كلمة ”الوطنية“ تحمل أمانة جديرة بالاعتبار على طائفة كبيرة من الافتراضات المُضَمَّرة، من بينها ثقة الوطن في مواطنيه، وفي أنهم سيدافعون عنه ضد العدوان، سواء من العدوان الخارجي أو من خونة الداخل، وأن يرعى المواطن مصالح البلاد، وأن يحافظ على تقاليدها، وأن يكون جديرًا بثنائها.

قال أديسون ”Addison“ بنبرة آسفة: ”لا يمكننا - بكل أسف- أن نموت فداء الوطن إلا مرة واحدة“. ويزدحم التاريخ الروماني المبكر بأسماء وطنية مرموقة من أمثال هوراشيو وموسيوس وسكيفولا، الذين شاطروا أديسون وجهة نظره، وأبصارهم شاخصة

—على سبيل التحذير والاعتاظ— إلى مثال الخائن ”أنتينور“ في الأساطير، ذلك الذي أسفرت خيافته عن تسليم طروادة إلى الإغريق. الغريب أن فكرة الوطنية تزداد شراسة في البلدان التي تقدم لمواطنيها أقل قدر ممكن من مظاهر الرفاهية، كالولايات المتحدة والصين مثلاً. ويمكننا أن نعزو التفسير إلى المشاعر الحماسية التي تتفجر عندما يخوض المنتخب القومي مباراة كرة قدم؛ إذ نستشعر وقتها شيئاً من روح القبيلة، شيئاً مغرقاً في المحلية، شيئاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بشعور المواطن بهويته، شيئاً يدفعه إلى الزهو بالمساهمة بنصيب وافر في انتصارات الأمة، وانكساراتها أيضاً. ولهذا يفسر مُحِبُّو الوطن أي انتقاص من مشاعر الوطنية على أنه شكل من الخيانة، لكن الأسوأ من هذا وذاك هو من يُسَلِّم أسرار بلاده أو أمنها إلى أيدي الأعداء. في العصور الماضية، كانت تلك الفعلة تعرض عرش الملك للخطر، ولهذا كانت عقوبة الخيانة أشد أنواع العقوبات قسوة. ومع أن التفكير بهذه الطريقة مجافٍ للمنطق، لكن كلما كانت العقوبة أشد وحشية زاد هول الجريمة في أعيننا.

أما خيانة الإنسان للإنسان فهي أسوأ بكثير من خيانة الوطن؛ فخيانة الوطن - تلك الأخيرة - إنما هي فكرة غريبة الأطوار من منظور العقل التأملي؛ ذلك أن ”الدولة“ أو ”الأمة“ هي أفكار مجردة، وهي في الغالب نتاج حرب أو تجريد شخص من ممتلكاته، ولهذا السبب يُنكَر من يُوصِّمون بالخيانة التهمة بقولهم: ”إن الخيانة

* أنتينور طروادة: شخصية أسطورية وردت في ملحمة هوميروس، خانت الإغريق وسلمت طروادة إلى الأعداء. (المترجم)

تستلزم انتماء الإنسان إلى كيان أولاً ثم خيانتة بعد ذلك“، وهم ربما لا يشعرون بالانتماء أبداً.

قال إي إم فورستر “E. M. Forster” إنه لو أُجبر على المفاضلة بين خيانة بلاده وخيانة أصدقائه سيؤمل أن يتحلى بالشجاعة الكافية لخيانة بلاده، وهو ما يعني أن الثقة الكامنة في رابطة الصداقة أعمق وأهم بكثير مما سواها، وهي الفكرة التي ربما يقبلها أغلب الناس. للصداقة -وهي في نظر أرسطو أسمى العلاقات الإنسانية قاطبة- أوجه كثيرة، لكن محورها توقُّع الإنسان أنها لن تتجاوز طور الانتكاسات وجرح المشاعر التي ألَمَّت بها وحسب، بل إنها ستعزز من الصداقة أيضاً، بينما قال مارك توين: “الوظيفة المثلى للصديق الحقيقي هي الوقوف إلى جانبك عندما تكون مخطئاً”.

تتخذ خيانة الأصدقاء أشكالا تتراوح بين الخيانة المعتادة، بمعنى إفشاء أسرار الصديق بالنميمة، وصولاً إلى الشكل الأكثر تطرفاً وهو تسريب اسم الصديق إلى الشرطة السرية، وكان هذا ما يدور بذهن الكاتب فورستر، لكنه رأى في الشكل الأول خيانة بما يكفي.

وكلامنا السابق عن الخيانة يصدِّق بالمثل على الخيانة بين المُحبِّين؛ إذ تنطوي السرديات الثقافية الغربية على موضوعات ثابتة تنطلق من فكرة حصرية العلاقات الحميمة، بحيث لو اكتشف أحد الزوجين خيانة الطرف الثاني فإنه يشعر بفقدان الثقة ونقض عهد الوفاء وإخلاف كلمة الإخلاص، سواء قيل ذلك صراحة أو بقي طي

* رواثي وقاص وكاتب مقالات بريطاني. (المترجم)

الكتمان. إن الشعور بحصرية العلاقة أمر طبيعي في فترة الهيام بين العاشقين، والشعور بالخيانة أمر طبيعي أيضًا؛ لأنه يعني أن الطرف الخائن كان يتظاهر فقط بهذا الشغف، على أنه ليس من المؤكد تمامًا أنه يتحتم على حالة العشق أن تحبس الجنس والعاطفة لتكون في حوزة شخص ما أبد الدهر! يتحتم أن يُمنَح الإخلاص طواعية، ولا ينبغي أن يطالب به الطرف الآخر باعتباره حقًا أصيلاً، ومن ثم فمفهوم الخيانة لا ينطبق عند حجب الهدية أو سحبها.

الولاء

”والروح الجسور في صدر المخلص الأمين
درة ثمينة في صندوق ضُوعِفَتْ أقفاله عشرة أضعاف!“

شكسبير

الولاء فضيلة مشروعة ما دامت تلزم إطار الولاء للمبادئ. أما الولاء غير المشروط لقضية أو عقيدة أو فرد فهو أمر مستهجن؛ لأنه يتحول -بطبيعة الحال- إلى مطية سهلة تقودك إلى باب الخطأ، بل إنه يؤدي في واقع الأمر إلى تفاقم الخطأ؛ لأنك حينما تنفذ التعليمات تنفيذاً أعمى فإنك تعزز من وجود الأخطاء، ولا تصلح منها. وحتى لو اعتبرنا الولاء أداة تنشُد تحقيق الخير، فسوف تظل قيمتها مشوبة بالغموض والالتباس؛ فالخادم الوفي يبقى وسيلة في يد الآخرين لتحقيق مآربهم، ومن ثم لا يستحق إلا أقل الثناء، لا شيء إلا لأنه ألقى إلى سيده بزمَام أمره.

تقترن ثلاث خصال بمبدأ الولاء، وهي: الوفاء، والإخلاص، والجدارة بالثقة. صحيح أن الخصال السابقة قد تكون فضائل محمودة، وهو ما يفسر اهتمامنا بها لدورها المحوري في تشكيل

* البيت مأخوذ من مسرحية ريتشارد الثاني، وأثبتُ هنا ترجمة العلامة د. محمد عناني، الهيئة العامة للكتاب 1998. (المترجم)

فكرة الولاء؛ فعندما نمدح فضيلة الولاء فنحن نمدح واحدة أو أكثر من الخصال الثلاث السابقة، وعندما ندينها (مثلما هو الحال عندما ينفذ ضابط ستاليني عمليات التصفية الجسدية، وعندما يعدم ضابطُ قوات أمن خاصة نازية "SS" المعتقلين بالغاز) فإننا نصمها بالجريمة وعماء البصيرة.

لا تستحق منا الفضائل أي كلمة مدح أو ثناء إلا عندما تمثل التزامًا بفكرة يمكن الانحياز إليها انحيازًا مستقلًا باعتبارها فكرة سديدة. إن تحويل الولاء إلى بضاعة يمكن فحصها ليس شأنًا من شؤون السياسة، بل على العكس، لشدّ ما تصدّق هنا مقولة ألبرت هابرد "Elbert Hubbard" * بأن "أوقية ولاء خير من رطل ذكاء".

الحقيقة أن الحزب السياسي ينظر إلى مرشحه الانتخابي باعتباره صندوقًا تُفرَغ فيه أصوات الناخبين، وبوقًا إعلاميًا لحرب الحزب الدعائية. ومن هنا فمعنى أن تكون مخلصًا للحزب هو أن تكون سياسيًا هادئًا ومطيعًا وملتزمًا، أما الالتزام بالولاء للمبادئ أو الولاء للناخبين أو لأي قضية لا تمثل سياسة الحزب فتلك - من وجهة نظرهم - خيانة صريحة للحزب، وهو ما تقطع العقول المستقلة فكريًا بكونه إساءة بالغة من أهل اليمين أو أهل اليسار على حد سواء، خصوصًا وهو يتذكرون أسلافهم، سواء الرعيل الأول من

* كاتب وناشر وفيلسوف أمريكي تُوفّي سنة 1915. (المترجم)

أنصار اليمين في فترة والبول "Walpole"، الذين تشبثوا بآرائهم برغم أنف وزراء التاج البريطاني، أو أهل اليسار الضاربة جذورهم عميقاً في فكرة المعارضة السياسية، وصولاً إلى وات تايلور "Wat Tyler" ومن بعده.

من دروس التاريخ أن العقلية المستقلة كانت أشد حضوراً في المعسكر "اليساري" الأخير عنها في المعسكر "اليميني" الأول.

ذكرنا في ما تقدم أن فكرة الولاء مشوبة بالغموض على صعيد الحياة العامة، أما في الحياة الشخصية فهي فضيلة أقل غموضاً؛ ففي الصداقة، يعني الوفاء شد أزر صديق برغم استحكام الخلاف وعدم الاتفاق معه؛ لأن الصداقة هنا مقرونة بالإخلاص بالدرجة الأولى، ثم تأتي بعدها مسألة وضع الصداقة موضع الاختبار، ومن هنا تكتسب خصلتا الوفاء والثقة قيمة جوهرية في تأسيس علاقة الصداقة، خصوصاً عند وقوع المشكلات؛ لأنها تلهم من جافاه النوم في الليالي الحالكة السواد الصبر والسلوان، وتعوضه عن وسائل المساعدة الاصطناعية كالأدوية أو استشارة أهل الرأي أو تلاوة الصلوات.

قال سوفوكليس: "عقول الرجال مهيأة للتغير في حالتي الكراهية والصداقة"، وهو ما يفسر ما نراه من تفجّر الخلافات ثم تسويتها

* روبرت والبول، ويُعرف أيضاً باسم «إيرل أورفورد»، هو سياسي ورجل دولة بريطاني، وكان أول من يشغل منصب رئيس مجلس الوزراء في بريطانيا منذ يوم 4 أبريل عام 1821 حتى يوم 11 فبراير عام 1842. (المترجم)

** وات تايلور: متمرّد إنكليزي قاد ثورة 1381 التي عُرفت بثورة الفلاحين، وانتشر تمرده في الريف والمدن. (المترجم)

ودياً في الحياة العامة. ومع ذلك فكل ضربة خيانة مُوجَّهة إلى شخص يقف أعزل أمام الرأي يضاعف ضرر الخيانة ثلاثة أضعاف، الأمر الذي يجعل الخيانة في إدارة شؤون الدولة نوعاً من الاغتيال، وهو أمر قد يكون ضرورياً تارة، ويكون أهوج تارة أخرى.

اللوم

”معظم مصائب الإنسان سببها الإنسان نفسه“.

بليني الأكبر

عند حدوث خيانة أو وقوع مأساة، تهيمن على الإنسان رغبة في إنحاء اللائمة على طرف آخر، سواء كان الطرف الآخر مستحقاً للوم أو لا، ومن ثم فهو حل ناجع؛ إذ يتحول اللوم إلى العلاج الوحيد لمداواة المشاعر المؤلمة. يتسم الغرض من اللوم بالوضوح تارة وبالغموض تارة أخرى، وفي كل الأحوال، لا بد من تقديم كبش فداء يحمل عن المرء وزر مشاعر الخسارة والحزن، وأيما ألقى باللوم على المآسي التي أسفرت عنها الحروب والمجازر، فمن المؤكد أن ثمة توجهاً إلى اللوم الجمعي. وينصب اللوم الجمعي هنا على كاهل الجنس البشري بسبب ميل البشر الغريزي إلى شن الحروب والتحضير لها على نحو يتيح تخصيص الموارد الاجتماعية الهائلة لإنتاج المعدات الحربية وإدخالها إلى الخدمة، واستخدام القنابل، وزرع الألغام الأرضية، واستعمال القنابل اليدوية، والدبابات، والطائرات الحربية، والهندسة العسكرية المتطورة، وملايين الرجال، بل وملايين الأطنان من المواد المتفجرة في جميع أرجاء العالم، أقول: يميلون إلى تخصيص تلك الموارد مجتمعة لمهمة قتل غيرهم، وتخريب النسيج المادي للحضارة الإنسانية، فلو لم تكن

الحروب ولا الصراعات ولا الحقد بين الشعوب، لما كانت البنادق والقنابل. وهنا ينشأ اللوم الجمعي، أعني أننا جميعًا نتقبل بأريحية ضرورة التحلي بدرجة مقبولة من الواقعية، وأن الجيوش والأسلحة حقيقة لا مفر منها.

اللوم هنا واقع علينا؛ لأننا نقبل -ولو ضمنيًا- حقيقة أن العنف وأدواته هي ملامح أساسية تسم هذا العالم. والحقيقة أن مصدر مآسي الإنسانية كافة، الكبيرة منها والصغيرة، هو قبولنا لفكرة قتل الآخر، وهو ما يترتب عليه تسليح العالم بمعدات الحرب التي يموت بسببها ألوف الأفراد سنويًا في شتى بقاع الأرض.

وإذا كان اللوم مُبرَّرًا على الصعيد العالمي فإنه ليس مُبرَّرًا على صعيد الحياة الخاصة، وخصوصًا عند حدوث انهيار في مجال العلاقات الشخصية، حيث تتوطن الآفة الرئيسية. واقع الأمر أن واحدة من طرائق التعافي من تلك المآسي البسيطة هي أن نتعلم كيفية التوقف عن إلقاء اللوم بعضنا على بعض. ثمة جدل عقيم يعثور مسألة اللوم في مجال الحياة الشخصية؛ فالزوج يلقي باللوم على الزوجة لأنها أقامت علاقة غير شرعية وهجرته، بينما تلوم الزوجة زوجها على ما يطلق عليه المحامون "الهجر الإيجابي" الذي يحدث ربما -بل وعادة- بسبب ادعائها أن زوجها فشل في تلبية احتياجاتها الحميمية، ومن ثم يريد إقصاءها من منزل الزوجية. عندما نكف عن إلقاء اللوم بعضنا على بعض، نصير أمام خيارين: إما أن نتحمل المسؤولية عن أفعالنا، وإما أن نعترف أن اللوم ليس ذا صلة بجوهر الموضوع؛ فمثل هذه الأمور جزء لا يتجزأ من دوامة الحياة. وإلقاء اللوم ما هو إلا إهدار للطاقة البشرية، التي من باب

أولى أن نوجهها إلى إصلاح ما وقع من ضرر على الطرفين أو أن نشرع في فتح صفحة جديدة.

العقاب

”الجريمة والعقاب ينبعان من معين واحد.“

إيمرسون

في سفر الأمثال، آية مشهورة تقول: ”مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمِمْتُ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبْ لَهُ التَّأْدِيبَ“، وهي الآية التي تعيد إلى أذهاننا المثل الصيني المغرق في التهكم: ”اضرب ابنك كل يوم، وإن كنت لا تعرف سبب ضربه، فهو حتمًا يعرف السبب“.

لِمَ وُجِدَ العقاب؟ ثمة تنافر عميق في وجهات نظرنا حول كيفية التعامل مع الأخطاء والمخالفات، سواء كانت في شكلها البسيط، كتجاوزات طفل يحاول اختبار حدود المسموح به في عالمه الصغير، أو في شكل جرائم مروعة كالاعتصاب أو القتل مثلاً. هل نعاقب لإصلاح المخطئ أم للقصاص منه؟ وهل نعاقب لردع الآخرين عن ارتكاب الأخطاء؟ هل تُعَدُّ أنواع العقوبات كالإعدام أو السجن وسائل لكف أذى المجرمين، أم هي وسائل لأن نقصص منهم جزاء ما اقترفته أيديهم في شكل ألم ومعاناة؟

ليس في مقدورنا القول إن السجن وعاء يضم كل الخيارات السابقة؛ فلو كان القصد هو القصاص أو معاقبة المذنب لأخضعوا

إلى عقوبة "العجلة المُفرَغة"، أو الجلد بالسياط المعروفة باسم "القط ذي الأذنان التسعة"، أما لو كان القصد هو الإصلاح والتهديب وإعادة دمجهم داخل المجتمع ليكونوا مواطنين نافعين مستقلين لَعُمِلوا معاملة لائقة، وَلَعِلِمُوا حرفة أو مهنة.

ومع تسليمنا بضرورة حماية المجتمع من المذنبين فإننا نستدعي مشكلة أخرى لو مضينا قدماً في هذه الطريق؛ فإذا نحن طبقنا الأحكام الصارمة لقانون "الضربات الثلاث"***، الذي يقضي بالحبس مدى الحياة على المجرمين الراضين لإعادة التأهيل، فإننا ندعم بذلك فكرة تحويل إنسان إلى عدو أبدي للمجتمع، وهو ما يعزز وجهة نظر أنصار عقوبة الإعدام الذين يؤمنون بضرورة التخلص من هؤلاء، ما يعني بدوره الانحدار إلى منزلة أخط من منزلة المجرمين أنفسهم!

لاحظ إبيكتيتوس أن أي مكان لا تود البقاء فيه هو سجنك، وفي هذا الكلام إشارة إلى إمكانية معاقبة المذنبين عقاباً مشمراً، على الأقل في الجرائم الأدنى خطورة، عبر إجبارهم على أداء خدمة مجتمعية، أو إلزامهم بحظر تجوّل، أو فرض ساعات عمل إضافية عليهم لسداد تعويضات مادية لضحاياهم، وبهذا يُجمَع بين الثواب والعقاب.

* وسيلة عقوبة استُخدمت في أوائل العصر الفيكتوري لتكون أداة للأشغال الشاقة، وهي عبارة عن عجلة مشي أو حلقة مُفرَغة مع خطوات مُثَبَّتة في عجلتين من الحديد الزهر. (المترجم)

** القط ذو الأذنية التسعة: سوط مؤلف من تسعة حبال صغيرة أو سيور جلدية معقودة، مربوطة إلى مقبض. (المترجم)

*** قانون أمريكي يعاقب بالسجن مدى الحياة كل من ثبتت إدانته بارتكاب جناية وكانت له سابقتان أو أكثر من قبل. (المترجم)

يرى بعض الناس أن أي شكل من أشكال العقوبات هو شر في حد ذاته، وهو مذهب جيريمي بينثام "Jeremy Bentham"؛ فمعاقبة إنسان تعني سلب حريته وتجريده من أملاكه، بل إنها تعني أحياناً -عند بعض السلطات القضائية- حرمانه من الحياة نفسها، وهذه الأفعال خطأ في حد ذاتها، ومن ثم فهي محتاجة إلى دواعٍ خاصة لو اعترم المجتمع تنفيذها.

يجدر بالمجتمع، إذا أراد تبرير العقوبة، تعريف المقصود بالجريمة أولاً، لكن لو فعلنا ذلك لاصطدنا هنا بعقبة؛ ففي الماضي مثلاً جرّمت قوانين البذخ ارتداء الحرير الأرجواني لأي شخص دون رتبة "إيرل"**. ولم يكن من المُستبعد أن تُحرق على وتد خشبي لو رفضت عقيدة الكنيسة، وحتى عهد قريب، كان اللواط بالتراضي بين الذكور البالغين جريمة، وهكذا نلاحظ تغيير ما كان يُعدّ جريمة، وتغيير ما يبرر العقوبة معه.

عند هذه النقطة، علينا التحلي بالثقة بأنفسنا دومًا للتأكد من أن شعورنا بالجريمة والعقاب في محله، ولكن سرعان ما يبرز سؤال مقابل عن المعيار. لا شك بالطبع في ضرورة تهذيب الطفل، بل وحتى معاقبته، ولكن هل من الصواب أحياناً معاقبة الطفل بالضرب مثلاً؟ وهنا يقول الشاعر الهندي رابندراناث طاغور الكلمة الأخيرة المناسبة: "لا يجوز أن يُؤدّب إلا من يحب".

* عالم قانون وفيلسوف ومصلح قانوني واجتماعي إنجليزي، كان المُنظر الأبرز في فلسفة القانون الأنجلو-أمريكي. (المترجم)

** عضو في طبقة النبلاء داخل بريطانيا. (المترجم)

الوهم

”الوهم مولود من رحم الجهل“.

البهاجا فادجيتا

قبل وقت قصير، هاجمت مجموعة مسلحة من هنود المايا في دولة جواتيمالا فوجًا من السياح اليابانيين وقتلت اثنين منهم، وكان الفوج قد توقف لتصوير بعض الأطفال وهم يرتدون الثياب المحلية الموشاة بالألوان الزاهية. وقع في ذهن هنود المايا أن الصور الملتقطة كان من المقرر أن تظهر في كتالوج يستخدمه خاطفو الأطفال، وأشارت بعض التقارير إلى توهم جماعة المايا أن السياح يخطفون الأطفال، وتوسلت التقارير بظاهرة ”جنون الحشد“ لتفسير سبب السلوك الغوغائي.

الوهم اعتقاد كاذب، وغالبًا ما يشعر ضحيته أنه في موضع تهديد أو استفزاز، ويرتبط في أغلب الأحوال بحالات ذهان عصبي. يقع البشر في فريسة الأوهام عندما تضربهم الهستيريا الجماعية، وهو ما يفسر لنا العنف الذي تمارسه الحشود وشهود المعجزات الدينية، ولطالما قدّر الغوغائيون من أمثال هتلر ميزة حشد الناس بأعداد غفيرة، فما أفضلها من وسيلة للتأثير فيهم وتحفيز عقولهم بوسائل غير عقلانية!

وليس الوهم كالإيهام "illusion"؛ فالإيهام في جوهره تجربة مضللة متصلة بخداع الحواس، مصدرها مادي لا نفسي، ومن هنا يُطلق على الفنانين ممن يؤدون الحيل السحرية اسم المشتغلين بالسحر، ومع ذلك، يجوز أن تنطبق الكلمة على المعتقدات أو الآمال، كما هو الحال عندما نتحدث عن أوهام شخص حول زوجته أو وظيفته، وفي هذا الاستخدام ضرب من سوء الفهم المنهجي، وإن كان أهون وأخف ضرراً، مما يجعل التوهم "illusion" ناجماً عن خطأ في التفكير، لا مرض نفسي.

وبعيداً عن الحالات التي ينتج فيها التوهم عن ذهان عصبي (ومن ثم يكون نتيجة اضطراب كيمياء الدماغ) فلا أصدق من عبارة البهاجافادجيتا الهندية أن الوهم مولود من رحم الجهل، ومن نسله خرجت الخرافات، والتحييزات، وضروب الحماقة. أو لو استعرنا تعبير هنري وارد بيتشر "Henry Ward Beecher" : "الجهل هو الرحم التي تخرج منها الوحوش".

ثمة نغمة سائدة ترفع الجهل فوق المعرفة، باعتبار الجهل حالة وجودية أسعد وأشد براءة، كما وجدت تلك النغمة عبادة الهمجي النبيل في القرن الثامن عشر، من حيث نضرة الحياة غير المثقلة

* يفرق د. محمد مصطفى بدوي في كتابه عن كولريدج بين الوهم «delusion» والإيهام «illusion» من حيث أن الأخيرة حالة مصطنعة تماثل مشكلة الواقع. (المترجم)

** رجل دين أمريكي ومصلح اجتماعي من القرن التاسع عشر نادى بإلغاء العبودية. (المترجم)

بحمل المعرفة وصفائها، تلك الحياة التي لا يحددها سوى أفق السماء المرثي وعمر الإنسان المكتوب.

كتب توماس جراي "Thomas Gray" * في جملته الشهيرة في كلية إيتون: "حيثما يكون الجهل نعمة، فمن حماقة أن تكون حكيمًا". لكنه تفكير خاطئ؛ فالجهل يترعرع حين يسود البؤس وتتفشى الفواجع، ويثمر وسط الضلال والباطل، ومن ثم لا وجه لمقارنته بالمعرفة. قال فيليب ويلي "Philip Wylie" **: "ليس الجهل نعمة، بل هو غفلة".

فالجهل هو منبع الخرافات الشعبية الكبرى على مدار التاريخ، كمخطط المسيسيبي، وفقاعة بحر الجنوب **، والمعتقدات السخيفة في الكيمياء والسحر والتنجيم والأشباح، ثم - ما جدّ علينا - كعمليات اختطاف البشر على يد الكائنات الفضائية والأطباق الطائرة.

ولم نسينا أن أغلب الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر اعتقدوا أن الحاقدين انشغلوا بتسميم مخازن المواد الغذائية، وإمدادات مياه الشرب، وحتى الأسماك في البحر باستخدام مادة عديمة اللون والرائحة وغير قابلة للاكتشاف تُسمّى "أكوا توبانا"، فأمنوا بقدرتها على أن تمارس مفعولها القاتل ببطء، وحسب الرجل

* كاتب وشاعر وناقد بريطاني من القرن الثامن عشر. (المترجم)

** كاتب مسرحي وروائي أمريكي مات سنة 1971. (المترجم)

*** مخطط المسيسيبي: فضيحة مالية كبرى هزت فرنسا في القرن الثامن عشر. فقاعة بحر الجنوب: أزمة مالية عصفت بالحكومة البريطانية في أوائل القرن السابع عشر. (المترجم)

البغيض -آنذاك- أن يُوصَف بأنه يدس السم للناس كيما يُعَدَم دون محاكمة على يد الغوغاء.

فإذا عدنا إلى أول المقال، فهل كان هجوم هنود المايا على السياح ثمرة الوهم؟ يُعَدُّ الإعدام خارج نطاق القانون في المناطق النائية من دولة "جواتيمالا" ملاذًا شائعًا، والحقيقة هي أن أعدادًا كبيرة من الأطفال من الأعمار كافة، بداية من الرُّضْع إلى المراهقين، يُختطفوا بانتظام في كل من جواتيمالا وجنوب المكسيك، ولا يُعثر عليهم بعدها أبدًا؛ ففي عمليات التبنى غير المشروعة، كان سعر الطفل المعافى يبلغ ألوف الدولارات، بينما يُباع الأطفال الأكبر سنًا ليكونوا خدمًا، والإناث اليافعات يُعرَضن للعمل في البغاء، ولم يكن الوهم سبب هجوم هنود المايا على السياح بقدر ما كان الخوف والقلق؛ فعندما يُهمَّش البشر في ظروف بائسة من دون أنظمة حماية اجتماعية متينة يركنون إليها، يغزوهم شعور بالضعف والهوان، فيستنون قوانينهم الخاصة المنسجمة مع ظروفهم الراهنة، ويطبقونها على الفور بحماس وافر منبعه الخوف والرغبة في الدفاع عن النفس. وهو بالضبط ما فعله هنود المايا.

وإنها لخفة عقل أن نعزو مثل هذه المآسي إلى الوهم؛ فالوهم الحقيقي هو الاعتقاد بأن الناس في وسعهم العيش عيشة هائلة من دون التفاهم المتبادل المفضي -بدورهم- إلى الأمان، والأمان إنما يتحقق بالمعرفة لا الجهل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الحب

”أن تحب شيئاً معناه أن ترغب في أن يعيش“.

كونفوشيوس

لا عجب أن يسبق عيدُ الحب، أو يوم القديس ”فالتاين“، بداية الربيع ببضعة أسابيع، كما لو كان يساعد في إيقاظ المشاعر الإنسانية من سباتها الشتوي؛ إذ يُعْطَر الكونُ أريجُ الرومانسية الذي يعانق نسائم فصل الربيع، وتتفتح الزهور لأجل غاية واحدة؛ قطفها كي تُهدى إلى العشاق، وتشرع متاجر الشوكولاتة في إحصاء الأرباح المتوقعة.

ومع تلك المظاهر كافة، ليست أهم أشكال الحب هي تلك نراها بكثرة في الروايات وعلى شاشات السينما، بل إن أهمها هي مشاعر الحب التي نكنها لعائلتنا وأصدقائنا ورفاق دربنا؛ فهي المشاعر التي تدوم خلال الشطر الأكبر من حياتنا، وتمنحنا شعورًا بقيمة الذات والاستقرار، وتشكل الحيز الذي تدور في فلكه سائر علاقاتنا. وعلى نقيض ذلك، الحب الرومانسي لا يغدو أن يكون حالة عارضة قصيرة الأجل، وغالبًا ما يكون مجرد حركة مفعمة بالهياج والاضطراب في تاريخ حياتنا العاطفية. أما إذا حكمنا على الحب الرومانسي وفق مقدار ما يحصده من اهتمام (على الأقل في الأشعار والأغاني، والجلسات التي ننصبها لمناقشة أسس الحب وقواعده) فسنجد الحب واحدًا من أشد تجارب الحياة عمقًا.

ولو أننا استثنينا ما نمر به من تجارب مخادعة في طور البلوغ لرأينا مفارقة صارخة تتمثل في أن التوجه العام يؤكد أن ذروة الحب الحقيقية لا يبلغها الإنسان إلا مرة واحدة في العمر، ويكون الرباط الأبدي هو الثمرة المناسبة لتتويج تلك العلاقة. وكل من يدّعي وقوعه في الحب مرارًا وتكرارًا لا يمكن أن نصفه إلا أنه شخص غير مسؤول، وهو مُحكم له ما يُسَوِّغُه؛ فتكرار الوقوع في الحب عمل يستنزف الوقت، إنه عمل مرهق يحث على التيه في ضلالات النشوة، عمل مؤلم، يغير من أطوار المرء إلى درجة أنه يستلزم وقتًا طويلًا للتعافي منه، بل قد يستلزم في بعض الأحوال حياة كاملة.

بينما يزعم الإنسان الرزين أن الوقوع في الحب بطريقة رومانسية ليس طريقة ناجحة للتعرف إلى إنسان ما، انطلاقًا من تبرير ستندال "Standal" أننا نُطَوِّق المعشوق بطبقات كثيفة من الكريستال، فلا نعود نرى المحبوب نفسه طوال فترة الانتشاء، بل نرى صورته المُتَخَيِّلَة، ووفقًا لهذا المنظور، فالحب الرومانسي حالة مُتَوَهِّمة، وكونها حالة قصيرة الأجل أمر حسن.

بينما يذهب آخرون إلى أن الحب الرومانسي هو السبيل الوحيد الذي يتيح لنا اختراق الحُجب التي تعزل الناس بعضهم عن بعض، وتسمح أن تكتشف كل روح الروح الأخرى، وأن تجعل التواصل الحقيقي ممكنًا، أعني ذلك التواصل الذي ينطق بلسان الحميمية، ولا يكون ذلك قولًا بل فعلًا، عبر الكشف عن المتع وال رغبات.

ومع ذلك فليس هذا هو الاختلاف الوحيد في الرأي بشأن الحب الرومانسي؛ إذ يحتدم جدل آخر حول سؤال إذا ما كان الميل

إلى الرومانسية سمة إنسانية مطبوعة في قلوب البشر، أم أنها نسق اجتماعي تاريخي يظهر في بعض الحقب والمجتمعات ويغيب في أخرى. يكشف هذا السؤال الحاسم عن حقيقة أن الحب الرومانسي أبعد ما يكون عن الظاهرة المفهومة، وذلك لأسباب عدة، لعل أدها أننا خلطنا في العصر الحديث بين هذا اللون من الحب وبين ألوان أخرى ذات سمات مغايرة وتوقعات مختلفة، لكننا هجرنا التفكير فيها، كما لو كانت طبيعتها تعفيها من ذلك.

استخدم الإغريق ألفاظًا متفرقة لوصف ألوان الحب المتفرقة، فتكلموا عن محبة الغير “Agape”* (باللاتينية “caritas”، وهي التي توازي عندنا بنبرة باردة مفردة الإحسان إلى الغير)، وتحدثوا عن الحب للعب “ludus” لوصف شعور المودة العابرة التي تنشأ ناحية الأطفال، أو الحب الطيار بين عشاق عابرين، وتحدثوا عن الحب العملي “pragma” وهو حب العشرة الناجم عن التفاهم بين زوجين تربطهما علاقة زواج منذ سنوات طويلة، وتحدثوا عن الحب العائلي “storga” الذي ينشأ بين الأشقاء أو رفقاء السلاح الذين مروا معًا بتجارب كثيرة، وتحدثوا عن حب الهوس “mania”، وربط الإغريق النوع الأخير بمراحل البلوغ الجنسي أو العواطف الجنسية، فأمنوا أن الحب بكل أطيافه إن هو إلا إلهام سماوي، أوحى به الربة أفروديت.

* مفردة مُستخدمة بكثرة في اللاهوت المسيحي، وتعني الحب المُنزه من الأغراض أو إثارة الغير. (المترجم)

بيد أن فكرة الإلهام السماوي لم تكن موضع ترحيب دائمًا، فذهب الإغريق إلى أن هوس الرغبة الجنسية هو عقاب فرضته الآلهة، وأن طابع الشهوة المسرفة المذهبة للعقول متعارض مع أشد ما يُقدرونه من قيم، ألا وهي العقل والشجاعة؛ لهذا وضع أفلاطون ومن ورائه تلميذه أرسطو (كل واحد منهما وفق أسلوبه الخاص) الصداقة على رأس قيم الحياة العاطفية، بينما وضعوا عاطفة الحب، التي لا تعرف سوى الرغبة الجسدية، في القاع.

رأى كثير من الإغريق في سكينة النفس "ataraxia" (أو راحة البال) خيرًا عظيمًا. لكن هذا الخير الوافر طالما كان مُهددًا بخطر الانغماس في الشبق الجنسي وهواجسه ونوازع الغيرة الكامنة فيه، وهو السبب الذي دفع الشاعر الإغريقي سوفوكليس مثلًا إلى الإشادة بفترة الشيخوخة؛ لتحرير البشرية مما أسماه "طغيان الرغبات الجنسية".

أظهر الإغريق عبر هذه الفروق الدقيقة وعيًا حادًا بحقيقة أن جميع الروابط الإنسانية الوثيقة محكومة بطيف واسع متنوع من الغايات والمقاصد.

يحتاج الإنسان إلى ألوان متعددة من الإشباع العاطفي، لكن احتياجه منصبٌ بالدرجة الأولى على العواطف النابعة من منح الآخرين شعور الألفة والإيناس وتلقيه منهم، فضلًا عن تبادل عاطفة المودة، والتأكد من أنه موضع محبة الآخرين وقبولهم. ربما يستمتع الإنسان أحيانًا بالعزلة، لكنه لا يستمتع بالوحدة أبدًا؛ فالبشر في أمس الحاجة دائمًا إلى الشعور بالارتباط والتقدير. وأنواع الحب

السة جميعها عند الإغريق ما هي إلا روابط ”إنسانية“، وكلها، ما عدا الحب القائم على الهوس الجنسي، مما يمنح الطرفين إحساسًا بقيمة الذات.

في المثل اليوناني، نرى أن الصداقة المتكافئة بين طرفين هي أفضل الروابط العاطفية وأقواها قاطبة. ربما تنتاب رجل عاطفة رومانسية تجاه امرأة، لكن هذه العاطفة ليست إلا لهوًا وصرفًا للانتباه، وكثيرًا ما تكون هذه العواطف نقاط ضعف للرجل.

كان للحط من شأن العلاقة بالمرأة في العالم الغربي تأثير بائس طويل المفعول؛ إذ كانت أغلب الزيجات في العصور المسيحية المبكرة تُعقد على خلفية ترتيبات تجارية لا تعرف إلا المنفعة، ولطالما اعتورتها مظاهر التفاوت في العمر والتعليم والمكانة الاجتماعية، ما يجعل الزواج المتكافئ نادرًا، هذا لو غرضنا الطرف عما كان يحتفي به شعراء التروبادور من ”الحب العذري“.

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى عهد قريب؛ إذ لاحظ توماس هاردي ”Thomas Hardy“ أن السبب وراء عجز الرجال والنساء عن توطيد علاقة صداقة حقيقية في ما بينهم، حتى في العصر الذي عاش فيه، هو أن ارتباط بعضهم ببعض انحصر في علاقات المتعة

* شعراء التروبادور: طائفة من الشعراء الغنائيين الجوالين الذين ظهروا في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ومن أبرز ما يميز موضوعات هذا الشعر إجلال المرأة، والتغني بحبها بعيدًا عن الاشتهااء الجنسي، وهذا ما يُعرف بالحب العذري الشريف، وقد زعم البعض أن تسمية «Troubadour» مشتقة من كلمتي «طرب» و«دور»، وهما من المصطلحات الملازمة للغناء في الموشحات الأندلسية. (المترجم)

وحدها، لا في علاقات العمل والتعاون أبدًا، ومن ثم بشر هاردي بأنموذج جديد يجسد الحب باعتباره مزيجًا من عاطفة الرومانسية وأنس الرفقة. وهي ظاهرة جديدة كل الجدة على الحضارة الغربية؛ إذ كانت الرومانسية والصداقة على الدوام مثلًا عليا، ولكن بشكل منفصل؛ إذ اتخذت الرومانسية أشكالًا متباينة في أوقات مختلفة على مدار التاريخ.

والحقيقة أن الحب المازج بين الرومانسية وأنس الرفقة على النحو الذي نراه اليوم لم يتجسد في صورته النهائية إلا في الآونة الأخيرة، وخصوصًا في العصر الذهبي لهوليوود في الثلاثينيات والخمسينيات من القرن المنصرم، على هيئة آلاف الأفلام السينمائية من الأنواع كافة.

كانت حركة تشكيل مثل الثقاف أوالمثاقفة “acculturation”^{*} ومعاييرها قد بدأت تطل برأسها على أدب القرن التاسع عشر، الذي أسس الصورة المألوفة للزواج الآن، وهو يبدأ بوقوع زوجين في علاقة حب رومانسية، ثم إلزام نفسيهما بالالتزام بالمعاشرة الزوجية (في صورة الزواج)، أو “بدائل الزواج” المتاحة مؤخرًا، وما يقترن بها من الصور الشائعة عن الأطفال في حديقة المنزل، والأزهار التي تحف الباب. ودائمًا ما كانت روايات الحقبة الفيكترية، تلك الكتب السميكة المؤلفة من ثلاثة أجزاء، تُختتم بفصل أخير يخطب فيه البطل البطلة.

* المثاقفة هي تبادل تأثير الثقافة أو الفعل الثقافي بين طرفين على الأقل؛ فالتمكن من العلوم والفنون والآداب بالنسبة إلى الأفراد والجماعات لا يمكن حدوثه إلا من خلال التفاعل مع الآخر. (المترجم)

في وقت مبكر من القرن المنصرم [يقصد التاسع عشر]، استطاعت الكاتبة جين أوستن "Jane Austen" بلوغ هذه النهاية بتقنيات متأملة رصينة، خالية من العاطفية المسرفة ومشاهد ضربات القلب المتسارعة وإصابة البطلة بضيق التنفس، اللهم إلا في بعض المشاهد الباهتة لهذه المرحلة المبكرة من تطور كل رواية، لإظهار أن "دارسي" غير مكترث بأمر "إليزابيث"، أو أن "توماس" مثلاً لا يعنيه أمر "فاني".*

تحتل المغازلة بين "إيما" والسيد "نايتلي" بؤرة رواية "إيما" لجين أوستن؛ فهي مسألة ذهنية وأخلاقية متصلة بطبيعة شخصية البطلين وقراريهما في الحياة، لكن الأمر لم يكن كذلك في زمن الروائي توماس هاردي؛ إذ يأخذ الحب في أعماله الروائية شكل الهوس "mania" أو شكل العاطفة الجنسية الناضجة المنضبطة.

وفق نبوءة توماس هاردي، لم يكن الحب الرومانسي الناشئ حديثاً غاية في حد ذاته، بل بالأحرى خطوة تفضي إلى أنواع مغايرة من الحب؛ إذ تغدو الرومانسية الشُّرفة التي تطل منها على آفاق الصداقة وأنس الصحبة والشراكة المتساوية أو شبه المتساوية في معترك الحياة.

"عندما أشخص ببصري إلى الأعلى، ستكونين أنت هناك، وعندما أشخص ببصري إلى الأعلى، سأكون هناك".

* الأسماء الواردة أبطال رواية للكاتبة جين أوستن. (المترجم)

كانت هذه كلمات جابريل أوك عندما عثر في نهاية المطاف على معشوقته "باتشيبا" وطلب يدها للزواج، وهي النهاية التي من شأنها أن تُخمد الشغف المتأجج لشاعر التروبادور في العصور الوسطى، الذي كان يرى في الرومانسية الحرة كل شيء، مناصباً مبدأ الحياة العائلية المستقرة العداء.

يذهب بعض الناس إلى أن الحب الرومانسي ظاهرة عالمية، وذلك في معارضة صريحة للرأي القائل بأنه من ابتكار شعراء التروبادور. والحق أن القول بهذا الرأي يعني الانحياز الواضح إلى أحد الجانبين في الجدل الدائر بين "أنصار المذهب الماهوي" و"أنصار النظرية البنائية"**.

وبينما تذهب النزعة الأولى إلى أن الحب الرومانسي ما هو إلا واحد من الأحداث الجسام الأربعة الجوهرية الحتمية الكبرى المُحددة لظرف الوجود الإنساني، والأحداث الأخرى هي الميلاد والإنجاب والموت، تنطلق النزعة الثانية من تصوّر مؤداه أن عاطفة الحب بشتى موضوعاتها وأشكالها هي إحدى المشاعر الإنسانية

* الإشارة هنا إلى الرواية الرابعة للكاتب توماس هاردي «بعيداً عن صخب الناس»، والمقصود هو البطل جابريل أوك راعي الغنم الشاب، الذي وقع في غرام الشابة باتشيبا إيفيردين. (المترجم)

** للتوضيح: تقوم النزعة الماهوية «Essentialism» على أحد أكثر اعتقادات الحس المشترك «Common sense» بساطة، ألا وهو الاعتقاد القائل بأن لكل شيء طبيعته الخاصة التي تحدد له وجوده وهويته فتفصله وتميزه عن غيره من الأشياء، أما النظرية البنائية فتذهب إلى أن الأفراد المتعلمين يعملون على إعداد نماذج عقلية يستطيعون من خلالها فهم العالم المحيط بهم. (المترجم)

الجوهرية، ومع ذلك فطريقة التعبير عنه مسألة محكومة بسياق الظرف التاريخي.

والرأيان على حق؛ فالناس يقعون دائمًا في الغرام، وهو ما يعني أن تستبد بهم عواطف الافتتان والرغبة والهوس بدرجة ما أو بأخرى على نحو يدفعهم إلى هجر النوم ونسيان واجباتهم الحياتية، إلخ. بيد أن التعبير عن تلك الحالة العاطفية وألوان الحب الأخرى المقترنة بها، وردود الأفعال المتوقعة من كل طرف، كل ذلك مما يتخذ صورًا مختلفة للغاية وفقًا للظرف التاريخي.

ففي العصور الكلاسيكية الغابرة، قد يقع الرجل الإغريقي في حب الغلمان، لكن الجنس لم يكن مرتبط الفرس؛ إذ وضع الإغريقي نصب عينه مهمة تنشئة الغلام تنشئة عسكرية وسياسية قوية، ومساعدته في الشطر الأول من حياته ليشق طريقه المهني، وعلى جانب آخر، استهدفت قصص الحب التي رواها بلوتارخ "Plutarch" إظهار مبلغ القوة التدميرية للهوس بالجنس، فتوضح لنا - على سبيل المثال - تمزيق أوصال الفتاة "أرستوكليا"، وفي حكاية أخرى، كان الضحية هو الفتى "إيكتيان" على يد المتنافسين إذ يحاولون التكالب على كل منهما وخطفه. ولا يختلف الأمر عند عشاق شكسبير المصابين بالهوس الجنسي؛ إذ كانوا عاجزين تقريبًا عن كبح جماح غرائزهم قبل أن تدركهم لمسة الكاهن الشافية.

أما فيلدينج "Fielding" وريتشاردسون "Richardson" فقد اشتركا في أن أبطالهما دأبا على مطارحة الغرام سرًا بصورة ماجة، كانت تؤدي في نهاية المطاف إلى الاغتصاب.

ومع زيادة معدلات تعليم النساء، صارت فكرة الحياة العاطفية، التي تأتي بعد انتهاء فورة الهوس الجنسي، في بؤرة الاهتمام، ما جعل الأذهان تفكر في أنماط أخرى من الحب، بعضها مستمد من أعرق أعمالنا الأدبية، كما هو الحال مع مشهد وداع هيكتور الأخير لأندروماخي"، وهو المشهد الذي رسمه هوميروس في صورة تمس شغاف القلوب، حين اضطرَّ البطل إلى خلع خوذته لأن ريش الخوذة الناتئ أخاف ابنه الصغير الواقف بين ذراعي أندروماخي، وها نحن أولاء أمام مثل آخر، وهو زواج بينيلوبي وأوديسيوس، وهو تجسيد لنمط الإخلاص الذي لا يذبل.

ثم مزجت حساسية العصر الحديث هذه الزيجات المقرونة بالحب العطوف الإيثاري بمسحة الوله الرومانسي، فأسفر ذلك عن ولادة شكل من أشكال ما يمكن تسميته بالاقتصاد العاطفي، فصارت مشاعر العاطفة، والصدقة، والعشرة الحسنة، والشراكة، والرعاية، والاحتياج إلى الآخر، التي كانت تُمنَح في السابق عبر

* المقصود هو الروائي البريطاني هنري فيلدينج ابن القرن الثامن عشر الذي كتب رواية تاريخ مغامرات جوزيف أندروز وصديقه السيد إبراهيم آدامز، وهي عبارة عن محاكاة ساخرة للرواية الوجدانية الأخلاقية الشهيرة «بامبلا» التي كتبها المؤلف البريطاني صمويل ريتشاردسون. (المترجم)

** إحدى شخصيات إلياذة هوميروس في حرب طروادة. (المترجم)

أنماط مغايرة من العلاقات، أقول صارت اليوم مصوغة في شكل حزمة واحدة سهلة مدموغة بختم الزواج.

ومع ذلك، تأكد عدم استقرار المزيج الحديث بين الحب الرومانسي والحب العطوف، الذي غدا نموذجنا المثالي، والسبب أننا لا يمكننا فهم الطابع الإيروتيك الموهوس للحب الرومانسي بمعزل عن الجنس، ولا يمكننا فهم الجنس بعيداً عن النوع [الجندر]؛ فالجنس متصل بالحوافز الجسدية والفعل المادي، بينما النوع [الجندر] متصل بالفئات الاجتماعية والأنماط النفسية، ولا شك أن فشل المفهومين في الاقتران اقتراناً متناغماً هو مصدر ما لا ينضب من المشكلات.

صحيح أن الحب العطوف، الذي يضع الشريك موضع الإيثار، لا يخلو من رغبة جنسية، لكن مقدماته وأهدافه متباينة. الحب العطوف مشروع مشترك، أقرب في حقيقته إلى إدارة متجر صغير عنوانه: بيت الزوجية، وإدارة ميزانية البيت، وشراء احتياجات البيت، والسهر على العناية بشؤون الآخرين (وهم الأطفال الصغار في العادة)، ونقل لوازم البيت وتخزينها، والادخار، وترشيد النفقات، والتعامل مع المشكلات الطارئة كالأزمات أو انفجار أنابيب المنزل مثلاً.

كان يُعتقد في الماضي أن الفروق الناشئة بين الجنسين بفعل الضغوط الاجتماعية توزع الأدوار جيداً بين الطرفين في ما يخص المهام الحياتية السابقة؛ فالزوج يخرج إلى العمل، بينما تعني الزوجة بالأطفال وتدير شؤون المنزل، بيد أن هذا التقسيم (وحتى الفروق بين الجنسين نفسها) مما أثّرت حوله تساؤلات ممزوجة

بالمرارة في السنوات الأخيرة المنصرمة، خصوصًا أن العلم -على خلاف ما ترجوه الآمال والمبادئ النسوية- يرجع أنه في خضم المنافسة بين سنن الطبيعة والتنشئة، يكون لسنن الطبيعة دور ملح غير قابل للاختزال في ما يخص تحديد السلوك الجنسي والخصائص الجندرية.

وها هنا تقول النسويات الحانقات إن هذا لا يعني الحتمية المطلقة؛ إذ يقلن: بوصفنا كائنات تتمتع بالعقلانية، يمكننا ضبط بوصلة البيولوجيا باتجاه العدالة، مثلما نفعل بالضبط ونحن نحاول ضبط مشاعرنا العدوانية والأنانية، ومع ذلك فمن الناس من يتهم العلم اتهامًا صريحًا بالتحيز وعدم النزاهة، قائلين: إن العلم يحاول من خلال البيانات الإحصائية التستر على مؤامرة تاريخية ضد النساء! وكلا الرأيان ينطوي على قدر من الصواب.

وفي نقطة حاسمة أخرى، يبدو لبعض الرجال أن حتمية مصيرهم الجندري (أي حتمية كونهم رجالًا) تفسر معظم المشكلات الناشئة عن عدم تعدد الزوجات، فيزعمون أن العلاقات بين الجنسين كثيرًا ما كانت تتشكل لصالح النساء، من حيث قدرتهن على التحكم في مقدار الجنس وتقنيته، ولا غرابة لو صح هذا الرأي، وهنا يتحتم على المرأة أن تضع في اعتبارها أن الاستفادة من دورها في الجنس باعتبارها أنثى (في ما يتعلق بالحمل والولادة)، أكبر من الاستفادة من دور الرجل؛ فوسائل منع الحمل الآمنة والفعالة هي وسائل مُستحدثة، والعادات والتقاليد القديمة تندثر بصعوبة، وربما لهذا السبب كان البغاء مُتنفَسًا للخروج من أزمة عدم التعدد، برغم ما يحيط بظاهرة البغاء من مظاهر الرياء.

والحقيقة أن مقياس إخفاق الحب الرومانسي المعاصر هو ارتفاع معدل فشل العلاقات الناشئة عنه، ولا أدلّ على ذلك من ارتفاع معدلات الطلاق بين المتزوجين في العالم الغربي إلى نسبة 40%، بينما ترتفع نسبة الانفصال بين الشركاء الذين يعيشون من دون زواج رسمي أضعافاً مضاعفة، وبعض الزيجات التي يُكتَب لها الاستمرار إنما تستمر بتضحيات باهظة من جانب أحد الطرفين، وتتفاوت أسباب اللوم المُتبادل بين الطرفين، بيد أن معظم الأسباب غالباً ما تُردُّ إلى الرجال وحدهم.

تستنبط بعض الكاتبات^٤ أن كل ما تستنكره النساء في سلوك الرجال يعود إلى ما يراه فرويد من أن الرجال يعانون من "جرح نفسي عميق" ناجم عن انفصالهم عن أمهاتهم، ونجد عند بعض الكاتبات (وخصوصاً شيلا سوليفان "Sheila Sullivan" في كتابها "الوقوع في الحب") إشارة إلى شعور الرجال بالإهانة بسبب عدم قدرتهم على الإنجاب والرضاعة. تذهب الكاتبات الموسومات إلى أن ذلك الجرح المزعوم هو المُعوَّل عليه في كل سلبياته، وعلى الأخص عدم النضج العاطفي، والافتقار إلى التواصل بشأن المشاعر، والميل إلى الخيانة الزوجية، ومشاعر كراهية النساء، سواء الكامنة منها أو النشطة، وفي حالات متطرفة ممارسة العنف ضدهن.

فتدلل الكاتبات بهذه الأمثال على العراقيين التي تقف حائلاً دون تأسيس صداقة رومانسية متكافئة بين الرجل والمرأة. والحقيقة

^٤ اخترت في ترجمتي تأنيث المفردة «كاتبات» مع أن المؤلف ذكّر «writers» عموماً، لكن الواضح من سياق الفقرة أنه يقصد الكاتبات النسويات، وهو ما تُدَلِّل عليه الفقرة التي تليها. (المترجم)

أنا حتى لو افترضنا غياب هذا الأساس الفرويدي (وهو محل شك، وموضع لإعادة نظر)، فلن يتنبه أي رجل أن سلوكه مع الآخرين تقع مسؤوليته على ما يُسمَّى "غياب المعايير النفسية لتوجيه وجوده الذكوري"، ولو توخينا المنطق والعقل لرأينا أن جوهر المشكلة السابقة يكمن في بقعة أخرى، أعني في محاولات المجتمع للتحكم في المشاعر الجنسية والحب الرومانسي، وتقييدها، وإنكارها، وحظرها، وتوجيهها، والتلاعب بها.

إن القبضة الفولاذية للمؤسسات القمعية (وأقصد بها المؤسسات الدينية بالدرجة الأولى) هي القادرة على تفسير سبب تحوُّل الحب إلى مشكلة مؤرقة، ولا يحدث ذلك إلا عندما يُقنَّن الحب ويُقَمَّع كما هو الحال في القيم العائلية، ومنع تعدد العلاقات، والمواقف المقيدة للتعبير والتنوع الجنسي.

عندما يُحكَّم الخناق على الإيروس*، وعندما تُقَمَّع المشاعر الجنسية قمعًا، تتحول على الفور إلى طاقة مدمرة، وهو ما يدفع الوعَّاظ الأخلاقيين - مسترشدين بحكمتهم - إلى مزيد من تشديد الخناق والتجويع، ومن هنا تنشأ حكايات درامية طويلة كما نرى في آلاف الروايات والأفلام.

والحق أننا لو شئنا أن يُكَتَّب النجاح لتجربة الحب الرومانسي فلا مناص من تحريره من ريقة القيود المفروضة عليه منذ قرون،

* إيروس: إله الحب عند اليونان، وفضلاً عن معنى الحب الذي يتضمنه فهو يُستخدم أيضًا للتعبير عن «الرغبة الحسية المتأججة»، وبحسب موسوعة لالاند الفلسفية (منشورات عوديات 2001) فإن إيروس هو الحب والعشق، وهو كل رغبة شديدة وكل نشدان لشيء بولّه. (المترجم)

علاوة على تحريره من النموذج الاقتصادي القائم على المنفعة الذي تأسس عليه الزواج المسيحي، ذلك النموذج الذي لم يُعر أدنى اهتمام إلى أهم ما في الزواج، ألا وهو الرومانسية والمودة.

سنمزج بين الجد والهزل لو قلنا إن موضوع الحب طالما وقع في أيدي الهواة ليشرحوه، ومع ذلك فلا وجود لما يُسمَّى بعلم الحب؛ فالحب مسألة مغرقة في التنوع، كثيرة التقلب للغاية، إلى حد استعصاء وضعها داخل نظرية. نرى أغلب الناس يحاولون مقارنة الحب كما يحاول المتسلقون بلوغ قمة جبل "إيفرست"، فتراهم يتدافعون على طول الطريق، ثم ينتهي بهم الأمر إلى التخييم عند سفوح التلال، أو التوقف في منتصف الطريق حيث يستسلمون. بينما يواصل بعضهم الآخر الصعود عاليًا بما يكفي لرؤية منظر قمة الجبل، وهو منظر نعلم يقينًا أنه منظر آسر للقلوب؛ لأننا رأيناه جميعًا في أحلامنا. مكتبة سُر من قرأ

وهذه هي الفكرة من وراء الاحتفال بعيد القديس فالنتين: تحقيق "حلم الحب". لا جرم أن حياتنا ستكون طافحة بالمرارة لو لم يتحقق حلم الحب، أو لو كانت تجارب الحب الرئيسية في حياتنا (وأقصد الحب على اختلاف ألوانه: الحب العائلي "storga"، الحب العملي "pragma"، الحب للعب "ludus"، الحب الإيثاري "agabi"، إلخ)، أقول لو كانت تجارب الحب المتنوعة غير ثابتة أو مستقرة بما يكفي لإنقاذنا؛ إذ تعصف بنا عواصف العصر والهوس، فتجلب معها البركة والنعيم، فإنها تترك في أعقابها الخراب المقيم.

المعادة

”بلوغ السعادة مرهون بالحكمة“.

سوفوكليس

ثمة مقولة حكيمة تذهب إلى أن أحد أسباب تعاسة الإنسان الرئيسية في هذا العالم هو بحثه المتواصل عن السعادة، ومع ذلك لو سُئِلَ أغلب الناس لقالوا إن السعادة هي غاية الحياة وهدفها، بل ربما يزعم كثير منهم أن تحصيل السعادة يسوغ أي اختيارات يتخذها الإنسان لبلوغ سعادته، مهما كان السبيل إليها.

فهل الأمر هكذا حقًا؟

لا ينفصل سؤال: ”هل السعادة هي الهدف المناسب للحياة؟“ عن سؤال: ”هل صحيح أن السعادة تبرر الوسيلة لتحقيقها؟“ فإذا كان الجواب عن السؤال الأول ”نعم“، فسيكون الجواب عن السؤال الثاني ”نعم“ أيضًا. ومع ذلك فمن المؤكد أن الإجابة عن السؤال الثاني هي ”لا“؛ فلا مسوغ—مثلًا—لارتكاب القتل لو كان القتل المتتابع يحقق سعادة القاتل المحترف عبر إزهاق أرواح البشر، وفي ذلك دليل واضح على وجود قيم حياتية أسمى بكثير من مسألة تحصيل السعادة، وهي نتيجة ربما تبدو للوهلة الأولى مغلوطة أو متشددة، لكن في المثل الذي شرحناه للتو ما يحملنا على قبولها.

واقع الأمر أن ثمة حججًا مقنعة تثبت أن السعادة (خصوصًا في مفهومها الحديث الرقيق المتمثل في الرضا والقبول) ليست غاية مغلوبة للحياة وحسب، بل هي غاية مضللة أيضًا. ومع ذلك فمن الضروري ابتداءً أن نغسل أيدينا من حجة غير مقنعة تقودنا إلى النتيجة نفسها، وهي حجة أن السعادة ليست غاية الحياة؛ فغاية الحياة الحقيقة كامنة في ما وراء الموت، وفي الإيمان بالعقائد الدينية التي تثيب المتألمين والمفجوعين.

ثمة اعتقاد بأن الرؤية السابقة لم تُفد إلا نخب الطغمة الحاكمة؛ إذ سعت إلى غرس تلك الأفكار في عقول طبقة العبيد والخدم لاستعبادهم، ومن ثم لم يجانب نيتشه الصواب كثيرًا لما رفض هذه الرؤية بوصفها "أخلاق العبيد"، أو بوصفها عزاءً وسلوانًا لضحايا التاريخ الذين لم يكن خليقًا بهم أن ينشدوا "العزاء والسلوان"، وإنما حري بهم أن ينشدوا الإنصاف.

في هذا الصدد، يمكننا ببساطة طرح الحجة المنطقية الآتية: لو كانت غاية الحياة هي تحصيل السعادة حقًا لما صعب على البشر تحقيقها من خلال سكب مادة كيماوية محفزة على إفراز هرمون السعادة في إمدادات مياه الشرب في جميع أرجاء الأرض، وحتى لو جرت الرياح بما لا تشتهي السفن فلن ننتبه وقتئذ، بل لن نجزع البتة لو ضربتنا الكوارث وألّمت بنا الفواجع؛ إذ ستجعلنا المادة الكيماوية نبتسم مع ما يجري من فواجع!

إن رفضنا للتصور السابق إنما يوضح بجلاء أن حالة السعادة -بمعنى القناعة أو الرضا بكل ما يجري- هي في حد ذاتها حالة سلبية، من حيث هي حالة خنوع من شأنها تقويض معنى الأشياء التي نُقدِّرها تقديرًا أكبر من غيرها، كمساعينا في الحياة وتطلعاتنا، وما نحرزه من تطورات وإنجازات واختراعات واكتشافات.

ربما جرَّت علينا بعض المسميات السابقة عواقب وخيمة، وهو ما حدث في الماضي في أحيان كثيرة، ولكن ليس بالقدر نفسه الذي أفادنا وخطأ بنا نحن البشر خطوات واسعة إلى الأمام؛ إذ جلبت تلك الخطوات معها المعرفة والتقدم على ما دُفع فيها من كلفة باهظة.

صحيح أن بعض هذه المساعي الإنسانية غالبًا - ولا أقول دائمًا - ما يكون اقترانها بالسعادة أشبه شيء باقتران الدخان مع النار، ولكن لو حدث ذلك فإن شعور السعادة يعزز من شأن تلکم المساعي البشرية نحو التقدم والتطور. ومع ذلك تحتل المعرفة والتقدم مركز الصدارة في أي حدث ينشئ السعادة لتكون بمنزلة أثر جانبي؛ فالتقدم والتطور كلاهما غاية منشودة، وأي سعادة تأتي في إثرهما إنما هي إشارة إلى تحقُّق تينك الهدفين لا أكثر.

ومع ذلك لا تنسَ أن بعض البشر -الأشرار منهم أو المختلين عقليًا- يمكنهم أن ينعموا بالسعادة عبر السعي إلى تحقيق أهداف شريرة أو مجنونة، ومن هنا ففكرة تحقيق السعادة من خلال السعي وراء الأهداف والغايات لا تعني بالضرورة نبل تلك الأهداف. قال أرسطو: "إن الحياة، التي تستحق العيش حقًا، هي الحياة التي تقود

الإنسان إلى الشعور بالسعادة "eudaimonia"، والشعور بأن ملاكًا صالحًا يحرسها". وهذا التعبير لا يُقصد به الإشارة إلى معنى ديني حرفي، وإنما هو بمنزلة صورة مجازية يستخدمها.

ترجم معظم الترجمات هذا المصطلح "اليوديمينا" "eudaimonia" بالكلمة الإنجليزية "السعادة" "Happiness"، مع أن المعنى المعاصر للكلمة يمحو الدلالة القوية النشطة لاصطلاح "اليوديمينا" محوًا تامًا، وهي المفردة التي تشير إلى معاني فعل الخير، والرفاهية والعيش المزدهر أيضًا.

بحسب تعبير أرسطو، تنشأ السمات الإيجابية، التي تسم الحياة الهائلة، من خلال استعمال الإنسان لأسمى فضائل الإنسانية، ألا وهي فضيلة العقل، بقصد عيش الحياة بحكمة وعدالة، فضلًا عن السعي وراء الفضائل الواقعة في الوسط الذهبي (سبق شرحه)، أي باعتبار خير الأمور أوسطها، واعتبار الشجاعة وسطًا بين الجبن والتهور، واعتبار الكرم وسطًا بين التقتير والتبذير.

* أحب تنبيه القارئ إلى أن كلمة سعادة في هذه الفقرة «eudaimonia» لا تعني عند الإغريق مجرد حالة نفسية بهيجة، إنها بالأحرى حالة حياتية: أن تكون سعيدًا يعني أن تعيش حياة ذات قيمة. وقد تصوّرها أرسطو ممارسة نشطة لقوى النفس وفقًا لما يمليه العقل، واليوديمونيا تُترجم عادة إلى السعادة «happiness»، غير أنها تتضمن بين جنباتها كلمة نجاح، ولا تدل -فقط- على مجرد العيش الصحيح، وإنما العيش الصحيح المشمول بالفعل الصحيح (لمزيد من المعلومات، راجع كتاب عزاء الفلسفة - بوثيوس، ت: عادل مصطفى، هنداوي 2019). (المترجم)

وقد خلع أرسطو على المؤمنين بالسعادة (اليوديميّنا) لقب "ذو الروح النبيلة" "megalopsychos"، وتعني الذين يتمتعون بروح شهمة عظيمة (وهو المصطلح المشتق من اللاتينية "magna anima"، وتعني إنساناً ذا مروءة وشهامة). أما في العصور المبكرة فقد تُرجمت الكلمة إلى "الرجل النبيل" "gentleman"، وهو ما لا يلائم العصر الراهن بعد أن اصطبغت الكلمة بصبغة طبقية.

ومع ذلك فكلمة "ذو الروح النبيلة" تنطوي على فكرة أن الهدف من الحياة الأخلاقية هو هدف حمّال أوجه، من بين هذه الأوجه احترام الآخرين، ومراعاة مشاعرهم، وضرورة تطوير الذات، واستعمال الفرد لمواهبه، ليس ابتغاءاً للمصلحة العامة وحسب، بل ابتغاءاً للارتقاء بالتجربة الفردية الإنسانية إلى آفاق أرحب.

ولا جرم أن تكون هذه الحياة حياة سعيدة حقاً بالمعنى الكلاسيكي؛ إذ تعكس هذه الكلمة (كلمة "الرجل ذو الروح النبيلة") مراد وليام شكسبير، كما تعكس مراد واضعي الدستور الأمريكي في القرن الثامن عشر، ذلك الدستور الذي ينص على "الحق في الحياة والحرية وتحصيل السعادة" باعتبارها حقوقاً أصيلة لا يجوز حرمان أي فرد منها.

وفق المعنى الكلاسيكي، تعني كلمة سعيد التمتع بالرخاء والازدهار، لا على الصعيد المادي وحده، مع أن ذلك جائز بالطبع، بل تعني أيضاً السعادة عبر تهيئة أسباب الراحة في الحياة، وهي بذلك تقترب من المعنى الأصيل الذي قصده أرسطو.

كثيرًا ما تُطرح مسألة السعادة طرحًا دراميًا على هيئة السؤال التالي: "أَتُفَضِّلُ أن تكون سقراط وأنت بائس، أم تكون خنزيرًا سعيدًا؟" يُفَضِّلُ المرء بلا ريب أن يكون سقراط وهو "سعيد"، لكن المراد هنا هو المحافظة على استقلالية العقل، وأن يكون المرء واعيًا بالعالم من حوله، وأن يختار بمحض رغبته، وهي أمور أفضل كثيرًا مما لو أسعده الحظ بسعادة سلبية على حساب التضحية بكل هذه الأشياء.

ولهذا السبب نعترض -أو لنقل معظمنا يعترض على أي حال- على السبل السهلة التي تؤدي بنا إلى السعادة، كأن نجرع السعادة في صورة شراب كيماوي؛ إذ لا يختلف هذا المظهر من السعادة كثيرًا عن فقدان الوعي.

الباب الثاني

عن الخصوم والمغالطات

القومية

”القومية أقرب إلى سفاح المحارم“.

”القومية هي عبادة الأوثان لدينا“.

”القومية ضرب من الجنون“.

إيريش فروم

القومية وبال عظيم؛ فهي تقدح زناد الحروب، وجذورها مُستَمدة من كراهية الأجانب والعنصرية، وهي على ذلك ظاهرة حديثة وليدة القرون القليلة المنصرمة، ولم تخدم سوى الغوغاء والطغاة؛ فالقومية تتكرر في رداء الوطنية وحب الأوطان، وتتاجر برعونة علم نفس الجماهير لإضفاء صبغة من القبول، بل والتشريف على سلسلة متنوعة من الفضائح.

فلو قال لك شخص مثلاً: ”سأبعث بابنك ليقتل الصبي الساكن في الجوار“، لثارت ثائرتك واحتججت بشدة، ولكن دعه فقط يغريك بمعسول الكلام من قبيل: ”جلالة الملكة والبلاد والوطن“، أو سؤال من قبيل: ”أوطني على حق أم على باطل؟“ ستأذن له وقتذاك بإرسال جميع أبنائنا، ليس لقتل أبناء الآخرين وحسب، بل لإعمال القتل في الآخرين بعشوائية، وهو بالضبط ما تفعله القنابل وطلقات الرصاص.

والحقيقة أن الغوغائيين يعرفون جيدًا ما يفعلون إذ يخطبون في الناس. قال هتلر: "تكمُن قوة القائد الوطني الحقيقي في ألا يشتت انتباه شعبه، وأن يبقى تركيزهم منصبًا على عدو مشترك". وكان يعرف جيدًا إلى من يتوجه بحديثه، وهو ما تنبه إليه جوته قبلها بزمان بعيد إذ قال: "تبلغ المشاعر القومية ذروتها وشدة عنفوانها حينما يبلغ مستوى الثقافة الحضيض".

كل ما يفعله القوميون هو أنهم يخلطون مطالب منطقية ليست محل اعتراض بمطالب غير مقبولة البتة؛ فنحن مثلاً نرغب في إدارة شؤوننا الخاصة بمحض إرادتنا، وهي مسألة لا اعتراض عليها، ومعظمنا يضع الثقافة، التي أسهمت في تشكيل ذواتنا ومنحنا إحساسًا بالهوية الشخصية والجماعية، موضع التقدير، وهي أيضًا مسألة لا وجه للاعتراض عليها، أما القومي المتعصب فيحاول إقناعنا بوجود مجموعات من البشر وثقافات أخرى تهدد هذه القيم والثوابت بطريقة ما أو بأخرى، وألا سبيل لحمايتها إلا بأن نرى أنفسنا أعضاء في جماعة متميزة، حدودها مرسومة بخطوط العرق أو الجغرافيا أو الاشتراك في اللغة أو الدين، وخليق بنا أن نُشيد حول أنفسنا سورًا عازلاً ليفرق بيننا وبين الأجانب. ولا تكتفي هذه النظرة أن ترى الآخرين دخلاء وحسب، وإنما تعدّهم تهديدًا صريحًا، على الأقل تهديدًا لأسلوب حياتنا، ووظائفنا، بل وحتى لبناتنا!

فعندما طمحت المستعمرات الأوروبية في ما وراء البحار إلى نيل الاستقلال، لم تجد أمامها إلا الخطاب القومي خطابًا وحيدًا متاحًا، وكان لهذا الخطاب فائدة جمّة في مساعي توحيد إيطاليا وألمانيا في القرن التاسع عشر (كما مهّد الطريق لنمو بعض أنشطتهم القومية

في القرن العشرين)، وها نحن اليوم نرى عددًا من الدول المُستعمَرة سابقًا تحذو الحذو نفسه.

تلتف القومية حول فكرة الأمة، وهي في حقيقتها كلمة فارغة من المعنى؛ فكل الأمم هجينة، إذ هي خليط من هجرات وشعوب مختلطة نشأت على مدار الزمن، ما يحول فكرة العرقية في نهاية المطاف إلى فكرة مثيرة للسخرية، اللهم إلا في البقاع التي استبد فيها الطغيان القائم على النعرة القومية استبدادًا دفع المجتمع إلى الانطواء في عزلة عميقة منزويًا عن غيره من المجتمعات، أو تعرض للغزو لفترات طويلة من تاريخه إلى درجة أنه استطاع المحافظة على نقاء الصفات الوراثية الخاصة به (ربما يقول الكلبى المتشائم: "الصفات الفطرية"، من باب التهكم).

ما أكثر ما قيل من هراء حول الأمم ككيانات مستقلة؛ فها هو ذا إيمرسون "Emerson" يكلمنا عن عبقرية الأمة بوصفها شيئًا قائمًا برأسه، بغض النظر عن عدد مواطنيها، بينما يصف جيروودو "Giraudoux" روح الأمة أنه شيء يُدرك بالنظرة إلى عينيها، وما أكثر هذه التأكيدات المفتقرة إلى أي معنى!

والحقيقة أن الأمم هي بنى اصطناعية، رُسِمَت حدودها بدماء حروب الماضي الغابر، وعلى المرء ألا يخلط بين الثقافة والجنسية "nationality"؛ فلا يوجد بلد على وجه البسيطة لا يضم أكثر من ثقافة مختلفة، ولكنها -مع ذلك- متعايشة في أغلب الأحوال. ومن هنا نؤكد أن التراث الثقافي شيء، والهوية الوطنية شيء آخر.

لكن المثير للدهشة هو عمى من يقعون في فخ الغوغائية القومية؛ فمن يعارضون توطيد علاقات وثيقة بين الدول داخل القارة الأوروبية، أو من يسعون إلى الانسلاخ عن التقاليد الأكبر التي ينتمون إليها، يحسن بهم صنعًا لو أنهم استخلصوا الدروس المستفادة من مآسي حروب البلقان، أو بالمعنى الأرحب للكلمة: من دراسة تاريخ أوروبا الدموي طوال القرن العشرين.

العنصرية

”العنصرية في طور الاحتضار، والسؤال:

ما تكلفة مصروفات الجنازة التي سيدفعها العنصريون؟“

مارتن لوثر كينج

أيما ولينا وجوهنا لتأمل المجتمعات الحالية وجدنا أن العرق والعنصرية يسببان قروحًا لاهبة وجراحًا غائرة في جسم المجتمع السياسي، وهنا مكنن المفارقة؛ فمع أن العنصرية حقيقة وواقع مرير، لكن مفهوم العرق في حد ذاته ضرب من ضروب الخيال، من حيث كونه لا يستند إلى أي أساس وراثي أو بيولوجي.

صحيح أن البشر مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا، لكن كل إنسان -في واقع الأمر- إنما هو كيان فذ متفرد بذاته، وعلى ذلك فمفهوم العرق ليس مفهومًا مصطنعًا وحسب، بل إنه مفهوم جديد كل الجدة. وعلى فترة وجوده القصيرة، جرّت علينا فكرة العرق وبالأعظيما، مثلها كمثل أغلب الأكاذيب والتفاهات المتفشية بيننا.

كان لينوس "Linnaeus" أول من طرح فكرة تصنيف البشر إلى أعراق باعتبار ذلك وسيلة إجرائية ملائمة، مع أن فكرة التصنيف لا تستند إلى أساس طبيعي منطقي، ومن ثم فقد طَبَّقَ على البشر المعايير ذاتها التي طُبِّقَت عند تصنيف المملكة النباتية، من بين هذه المعايير المظهر الخارجي مثلاً، فخرج علينا بتصنيف مُبَسَّط لأجناس البشر كافة إلى عِرق (فوقازي، وزنجي، ومنغولي).

لكن التقدم في علم الوراثة نسف هذه التصنيفات نسفاً عندما اتخذ من الحمض النووي "DNA" معياراً للتصنيف، ولهذا فإننا نجد -وفقاً لنظام لينوس- زهرة اللوتس (وهي النبتة المقدسة في العقيدة البوذية)؛ نجدها متواشجة تصنيفياً مع زنبقة الماء، بينما تؤكد مقارنة الحمض النووي أنها متواشجة تصنيفياً مع شجرة الدَّلب (الصَّنَّار) المألوفة والمحبوبة في لندن! فإذا ما انتقلنا إلى تطبيقات تحليل الحمض النووي على البشر فإننا نكتشف عوار فكرة العِرق تماماً؛ إذ يقول البروفيسور جوناثان ماركس "Jonathan Marks" الأستاذ بجامعة "ييل": "لا يستند العِرق إلى حقيقة بيولوجية أصيلة؛ فالجنس البشري لم يُنشأ بهذه الطريقة أبداً".

والحقيقة أن العِرق مفهوم اجتماعي وثقافي وسياسي عماده السمات الظاهرية والظروف التاريخية التي نشأت إلى حد بعيد من التقاء الشعوب بعضها ببعض، عندما وسعت أوروبا حدودها

* كارل لينوس: عالم نبات سويدي، وهو رائد علم التصنيف البيولوجي الحديث، وقد اعتمد تصنيفه على المواصفات الجسدية في تصنيف الكائنات. (المترجم)

وخرجت إلى العالم، وما تلا ذلك من نشوء الرِّق واستعمار الدول الأخرى.

لم يكن لينبوس وحده من عرف أن العِرق مجرد فكرة خيالية؛ ففي منتصف القرن التاسع عشر، نزع إ. أ. فريمان "E. A. Freeman" ورقة التوت عن فكرة مجتمع العِرق وتجانُس الدم برمتها، كما فعل آشلي مونتاجو "Ashley Montagu"*** في منتصف القرن العشرين، بل إن هتلر نفسه كان واعيًا إلى تلك الفكرة مع أنه جعل فكرة العِرق مفهومًا مركزيًا في عقيدته إذ قال: "أعلم تمام العلم أنه لا وجود لشيء اسمه العِرق بالمعنى العلمي للكلمة، لكن بوصفي رجل سياسة، أحتاج إلى مفهوم يمكنني من خلاله تفويض النظام الذي كان قائمًا على أسس تاريخية حتى اليوم، وفرض نظام جديد مناهض للتاريخ، وإعطاؤه أساسًا فكريًا راسخًا ... وعلى هذا فمفهوم الأعراق يلائم غرضي تمام الملائمة ... من خلال مفهوم العِرق، ستُصدّر الاشتراكية القومية ثورتها إلى الخارج وتعيد صوغ العالم".

للشعر كلهم الأسلاف أنفسهم، وتاريخ الجنس البشري قصير، لا يزيد عمره على ربع مليون سنة؛ إذ بدأت موجة الهجرات الأولى من القارة الإفريقية قبل نصف هذه المدة تقريبًا، وما نراه اليوم من تفاوت مادي في أشكال المجموعات البشرية إن هو إلا نتاج

* إدوارد فريمان: مؤرخ وفنان معماري وسياسي ليبرالي إنجليزي اشتهر في أواخر القرن التاسع عشر. (المترجم)

** آشلي مونتاجو: عالم أنثروبولوجيا (بريطاني أمريكي) أسهمت جهوده في إضاءة فكرة العِرق والجنس. (المترجم)

التغيرات الجغرافية والمناخية وانعزال بعض القبائل المتجولة، ومن هنا فالفروق بين الشعوب إنما هي فروق مُستحدثة نتجت عن تلك التغيرات، وهي فروق اعتباطية ظاهرية، بما في ذلك الفروق المتصلة بلون البشرة، وإن نظرة واحدة لقادرة على أن تبين لنا ببساطة عدم وجود شعب متجانس تمامًا في كونه أبيض، أو أسود، أو أصفر. ولا وجود -إذن- إلا لبشر ذوي ألوان وأنواع مختلفة من البشرة، وهم لا يختلفون البتة عن غيرهم من بني البشر في أي جانب بشري آخر، اللهم إلا ما تفرزه أحقاد البشر الآخرين تجاههم.

كيما نتجاوز النزعة العنصرية علينا أن نتجاوز فكرة نقاء العرق نفسها، بيد أن هذا الهدف لا يخدم ما يسميه سارتر "Sartre" العنصرية المناهضة للعنصرية، كما هو الحال مع حركة القوة السوداء* وأذيالها.

من المعلوم أن المجتمعات التي تذوق ويلات التحيز وسوء المعاملة تُضطر إلى التحصن بهوية مُفترضة تعتصم بها، لكن تلك الهويات ما تلبث أن تتحول إلى بؤر تزمت ديني، وإلى مسوغات جديدة تبرر مقابلة الشر بالشر، ومن ثم ترسيخ الفكرة التي تكمن فيها جذور المشكلة من الأساس ترسيخًا غير مباشر.

"ستنتهي العنصرية عندما يرى البشر غيرهم بشرًا وحسب؛ فلا توجد شواهد بيضاء ولا ملونة تعطي مقابر قتلى الحروب". هكذا قال ج. ف. كينيدي، وفي مقولته عبرة أخلاقية جديدة بالانتباه.

* Black Power movement: حركة تناصر الفخر العنصري والتمكين الاقتصادي والسياسي للأفارقة الأمريكيين في الولايات المتحدة. (المترجم)

الأنواع

”ليست الحيوانات من ذوي القربى لنا، ولا هي مخلوقات خاضعة، إنما هي أمم أخرى وقعت مثلنا في شبكة الحياة والزمان“.

هنري بيستون

ثمة حقيقة مذهلة صارت اليوم مألوفة، بل أقول فقدت قيمتها لكثرة ما لاكتها الأفواه بسبب انتصارات علم الوراثة الحديث، ألا وهي مدى الترابط الوثيق بين جميع الكائنات الحية؛ إذ يتشارك البشر أكثر من نصف جيناتهم مع الديدان وذباب الفاكهة، ويتشاركون كل جيناتهم تقريبًا مع فصيلة الشمبانزي. ومع ذلك لا تمنع تلك القواسم المشتركة البشر من تثبيت الديدان فوق خطافات أدوات صيد السمك، أو إجراء التجارب الدوائية على قردة الشمبانزي!

رُبَّ قائل يقول: وفيَمَ العجب؟ لننظر إلى الطريقة التي يعامل بها البشر بعضهم بعضًا عند إعدامهم في غرف الغاز مثلاً، أو مظاهر العنصرية، أو شن الحروب وغيرها، فلو كان حال البشر في ما بينهم هكذا فما أهون أن يتعاملوا مع القردة أو البقر بالطريقة ذاتها!

لكن ثمة دروسًا في وسعنا استخلاصها من الطريقة التي يبرر بها البشر معاملتهم للحيوانات، ولطالما شُيِّطَت القردة، خصوصًا الشمبانزي، في الروايات وعلى شاشات السينما. لم يُستخدَم وجه

الشبه لإقامة دليل على وجود قرابة بين البشر والقردة، كلا، وإنما وُظِفَ ليكون بمنزلة رمز يشير إلى النزعة الوحشية المتجذرة في طبائعنا. وعلى هذا فعندما يجرع د. جيكل المشروب السحري فإنه يكشف عن موروث وحشي أسطوري قابح داخله؛ إذ سرعان ما ينمو الشعر الكثيف على يديه، ويتحول جبينه إلى جبين حشرة خنفساء، وتبرز أسنانه بروزاً بشعاً، وهكذا يبدو متحولاً إلى رجل غوريلا مروع الهيئة، فإن لم يكن العنف هو ما يميز القردة، فمن المؤكد أن الغباء هو الذي يدفعها إلى القفز بين شجرة وأخرى، وهرش إبطها، والثرثرة. ما من شك أنك تهين إنساناً لو شبّهته بالقرد، ومع ذلك فالقردة مخلوقات تتمتع بالذكاء، والفضول، والحنان، والحس الاجتماعي، فضلاً عن قدرتها على تحمّل صنوف المعاناة والأسى على نحو يضاهي قدرتنا نحن البشر، ناهيك عما تتحلى به من جمال الطباع وسخاء النفس، وهو ما يُذكرنا بملاحظة شوبنهاور: "ثمة جانب واحد تُظهر فيه الحيوانات حكمة حقيقية لو قارناها بأنفسنا، وأعني هنا استمتاعهم الهادئ الرزين باللحظة الحاضرة".

وعلى ذلك فثمة أوجه شبه بين أعدارنا عندما نسيء معاملة القردة وأعدارنا عندما نسيء معاملة إخوتنا في الإنسانية، ونحن من نحدد الاختلاف؛ فإما أن نرى فيه تهديداً وإما أن نقابله بالازدراء، وعلى ضوء هذا الموقف أو ذاك نجعل الطرف الآخر مخالفاً لنا بهدف أن نغلق في وجهه باب المنظومة الأخلاقية التي تحمينا، فنتركه خارجها بحيث يتعذر الحكم على أفعالنا وفق المعايير التي نطبقها على أنفسنا.

في كتابهما "مشروع القردة العليا" الصادر قبل عدة سنوات، وجّه كل من باولا كافاليري "Paola Cavalieri" وبيتر سينجر "Peter Singer" نداءً إلى البشرية يدعو إلى ضم القردة العليا (الشمبانزي، والغوريلا، وإنسان الغاب) إلى المنظومة الأخلاقية التي تجمّعنا، ومن ثم منحهم الحق في الحياة، والحرية، والحماية من التعذيب، وعلى الأخص ذلك التعذيب الذي يُمارَس تحت ذريعة البحث العلمي.

أما في ما يتصل بالبراهين الجينية والسلوكية فلا يوجد سبب وجيه يحول دون تطبيق قواعد الاحترام الأخلاقي ومراعاة الحقوق المعمول بها بين البشر على العلاقة بين البشر والقردة، ومع ذلك علينا ملاحظة أنه عبر توسيع نطاق الأطر الأخلاقية على هذا النحو فلن تكون ثمة حدود واضحة المعالم نتوقف عندها؛ لأنه -ساعتئذ- سينضوي كل كائن حي تحت مظلة الأخلاق، وهو ما ينبغي فعله.

ينقسم العالم إلى فئتين: فئة النباتيين وفئة أكلة اللحوم. وقد كتب ثورو "Thoreau": "لا تخامرني ذرة شك أن توقّف البشر عن أكل الحيوانات هو جزء مهم من مصير الجنس البشري في مسار تطوّره التدريجي، تمامًا مثلما توقفت القبائل المتوحشة عن أكل بعضها البعض".

يجادل كثير من الناس في أنه لا غضاضة أخلاقية في أكل لحوم البقر، خصوصًا لو كانت قد تغذت جيدًا قبل ذبحها، بينما سيفكر هواة تربية القطط والكلاب أنه من القسوة والهمجية أن تُؤكّل حيواناتهم الأليفة. ها نحن أولاء مجددًا أمام العلة نفسها: الحدود

الأخلاقية؛ فالقطط والكلاب والخيول وحتى حيوانات الهامستر صارت اليوم أشباه مواطنين في عالمنا الإنساني، ومعاملتنا لها ينبغي أن تكون على المستوى نفسه من مراعاة المصالح الذي نُظهره لغيرنا من البشر، عندها لن نحشر الكلاب داخل شاحنة مغلقة مثلما نفعل مع رؤوس الماشية عندما تُرسل في رحلات تصدير طويلة، وهو أمر سار. أما المؤسف فهو أننا نحشر الماشية داخل الشاحنات، مع أنها تعاني من العطش والذعر مثلما تعاني الكلاب ومثلما يعاني البشر. الحقيقة أن سجل الإنسانية في مسألة الرفق بالحيوان سجل فقير بائس. وقد كتب دين إنجه "Dean Inge": "لقد استعبدنا بقية الحيوانات، وعاملنا أبناء عمومتنا، الذين يرددون الفراء والريش، معاملة غاية في السوء، إلى درجة أنهم لو تمكنوا من تأسيس دين ما لصوّروا الشيطان على هيئة إنسان".

ربما يظن بعض الناس أن المبالغة في الاهتمام بمظاهر الرفق بالحيوان إنما هو صرف للأنظار عن القضايا الأخلاقية الأكثر إلحاحًا، ومع ذلك فتزاهة الفرد لا تُمتَحَن حقًا إلا عندما ينفرد بالسلطة على مخلوق ضعيف لا صوت له، ولنعلم أن المسافة بين انتزاع أجنحة الذباب وارتكاب جرائم مروعة ضد الإنسانية ليست بعيدة.

الكراهية

”الكراهية عاطفة عاقبتها اندثار القيم“.

أورتيجا إي جاسيت

عادة ما تتمحور مشاعر الذنب، أو العار، أو الفخر حول الذات، أو حول الأشياء التي يرتبط بها المرء ارتباطًا وثيقًا، كالارتباط بالعائلة أو الدولة مثلاً (بالنسبة إلى الوطنيين). ولا جرم أنها مشاعر لها مرجعية ذاتية، بمعنى أن للذات وحدها القول الفصل في الحكم عليها، أما مشاعر الحب، والكراهية، والازدراء، والشفقة فهي موجهة نحو الخارج، أي نحو غرباء أو أشياء دخيلة على النفس، ربما لا تبدو للوهلة الأولى كأنها ذات مرجعية ذاتية، ولكنها كذلك حقًا، ولكن على نحو غير مباشر.

وعلة ذلك أن أغلب العواطف تحمل في طياتها افتراضات؛ فأنت إذا شعرت بالخجل فمرد شعورك هو افتراضك بأنك ارتكبت ما يثير ازدراء الآخرين، وإذا ما شعرت بالشفقة فمرد شعورك هو افتراضات بأن من تشفق عليه جدير بأن تُقبل عليه برحمتك؛ وسواء كان هذا أو ذاك، تبقى أنت في الحالتين طرفًا أساسيًا في المعادلة، وتبقى إبرة البوصلة متحركة وفقًا لتلك الافتراضات.

وينطبق الكلام السابق خصوصًا على شعور الكراهية، وهو في أساسه شعور بالعداوة والبغضاء المشتعلة إلى أقصى درجة، وهو شعور مُستمد من مجموعة معتقدات (تصورات) توغر صدر الكاره بنار مشاعر أخرى، أهمها الخوف، والجهل، والغيرة، والغضب، والاشمئزاز.

ومع ذلك، تُخذ في حسابك أن هذه المشاعر كلها، وعلى الأخص الثلاثة الأولى منها (الخوف، والجهل، والغيرة) متعلقة بذات الكاره، ومن ثم فشعور الكراهية يكشف عما تكنه صدور الكارهين أكثر من كشفه عن الشيء الذي يكرهونه؛ إذ تُظهر مواطن الضعف فيهم، ومن هنا فالكراهية عاطفة فجأة تطرد مشاعر الخوف والقلق إلى الخارج لتثبيتها على شناعة شيء آخر؛ فعندما يكره المرء شخصًا لأسباب معقولة بعد ثبوت غشه، أو انكشاف خبث طويته، أو ثبوت خيانتة مثلاً، سيكون رد الفعل المناسب هو ازدراء هذا الشخص، والامتناع عن مجاملته على المستوى الاجتماعي؛ لأن الشخص الحقيق لا يستحق الطاقة التي تستلزمها المشاعر الصادقة.

ومثلما يقول لاروشفوكو في ملاحظته: "عندما تبلغ مشاعر الكراهية في قلوبنا ذروتها، تضعنا في مرتبة أدنى ممن نكرههم". وهي نقطة ذات صلة بما أقول، أما الوعّاظ الأخلاقيون (وهم الساعون إلى فرض تصوّرهم الأخلاقي على الجميع في صورة القيم العائلية الحديثة التي أثبتت فشلها الذريع على نحو مؤلم) فهم يضمرون في الحقيقة كراهية لأي شخص يفكر تفكيرًا مختلفًا عنهم، ومن المؤكد أنهم في هذه الحالة قد استوفوا مقومات وجود الكراهية، وهي: الخوف من الخيارات المختلفة وأنماط الحياة المغايرة، والجهل

بمصالح الناس وخبراتهم الحياتية، والغيرة منهم بسبب تحررهم من الضوابط التي يفرضها الوعّاظ الأخلاقيون على أنفسهم، وامتلاء أنفسهم بمشاعر الاشمئزاز والغضب مما يفعله الآخرون.

وما المقومات السابقة إلا المواد الخام لصنع الكراهية التي من شأنها تكريس قيم القمع والتزمت وضيق الأفق عندما تُقدّم مُغلّفة بخطاب الأخلاق التقليدية الذي تفوح منه رائحة الورع، وحقيقة الأمر تكمن في أن وجهات النظر، التي يسعى الوعّاظ الأخلاقيون إلى فرضها على الآخرين، غالبًا ما تكون تعبيرًا عن أشد ما يخشونه في دخيلة أنفسهم، ومثلما لاحظ هيرمان هسه: "إذا كرهت شخصًا ما فإنك تكره في الواقع خصلة فيه تُذكرك بنفسك".

وكما نرى في مواقف النازيين إزاء اليهود، والمثليين، والفجر، والمنحدرين من أعراق سلافية، وهكذا تصل الكراهية ذروتها عندما تنصب على مجموعات بعينها يُنظر إلى أفرادها باعتبار وجودهم داخل تلك المجموعة ولا شيء سواه، فيحل على الأفراد من اللعنات مثلما يحل على "تصنيف" مجموعتهم التي أُدرجوا ضمنها، مع أنه من اليسير أن تكره التصنيف العام نفسه، لكن هيهات أن تكره إنسانًا عرفته معرفة شخصية لمجرد كونه مُدرجًا داخل ذلك التصنيف.

قد يكره المرء شخصًا ويزدرية، لكن الباعث الحقيقي وراء شعور الكراهية ثاوٍ في أعماق طبقة غائرة في قرارة نفسه، إلى درجة أنه لا يغدو أن يكون كشفًا عن القصور العاطفي للكاره نفسه، وشتان بين الشعورين.

أضف إلى ذلك أنه من السهولة أن نكره فردًا لمجرد انتمائه إلى جماعة معارضة؛ لأن الكراهية في حقيقتها عاطفة تلقائية بديهية بالنسبة إلى العقل الجمعي، مثلها في ذلك كمثل عاطفة الولاء التام وغيرها من العواطف الهيستيرية الخالية من الشكل والقوام. الجدير بالذكر أن الكراهية دائمًا ما تبدأ من مستصغر الشرر، وكما كتب سارتر: "يكفي أن تكره رجلًا واحدًا فقط لكي تنمو الكراهية وتبتلع البشرية بأسرها خطوة بخطوة".

الانتقام

”أن تنتقم يعني أنك لا تختلف عن عدوك،
وأن تعفو وتصفح يعني أنك انتصرت عليه.“

فرانسيس بيكون

لا توجد في العالم رغبة أشد إلحاحًا من رغبة المرء في الانتقام عندما يمسّه السوء أو يقع الضرر على مجتمعه، سواء كان ضررًا حقيقيًا أو مُتوهمًا، ولا شيء أحب إليه من تذوّق حلاوة المتعة الغاضبة التي تهز كيانه حالما يبطش بطشة الانتقام.

أما المتمرسون بدروب الانتقام فربما يشيدون بملاحظة الكاتب إميل غابوريو "Emile Gaboriau" التي تقول: "الانتقام ثمرة سائغة عليك تركها أولاً لتتضج". ومع ذلك فقلما تتحلى الرغبة في الانتقام بفضيلة الصبر؛ فنحن نسارع إلى الانتقام دائمًا، بينما نتباطأ في سداد أنواع أخرى من ديوننا، أبرزها دين الإعراب عن الامتنان لغيرنا، ذلك لأن إخفاقنا في الأخذ بالتأثير يوجعنا وجعًا مؤلمًا مهينًا، نادرًا ما نشعر به لو أخفقنا في الوفاء بديون أخرى.

* رواثي وصحفي فرنسي من القرن التاسع عشر. (المترجم)

ينشد فعل الانتقام تحقيق العدالة، لكنه دافع بدائي. ومع أن غرض الانتقام هو وضع الأمور في نصابها لكن الباعث الشخصي العاطفي فيه يهدده دومًا بأن يتحول إلى فعل مفرط في القسوة والعنف، ومن ثم يجر معه مزيدًا من الانتقام. وأبلغ دليل على ذلك ما وقع بين الجويلفين والجيبيلينين "The Guelphs and Ghibellines"، أو بين المونتاج والكابوليتس "Montagues and the Capulets"؛ إذ أسفر فعل الانتقام عن موجة أعتى من الانتقام، وهذا هو ديدن الصراعات التي تتفاقم بسرعة وتستهلك الأطراف المعنية في دوامة من الكراهية والعنف. قال يوريبديدس "Euripides": "ما أجمل أن ترى هلاك عدوك، وما أروع أن تسدد كل ديونه ابتغاء وجه العدالة".

لكن الأمور لا تتوقف عند هذا الحد (وهنا مربط الفرس)؛ إذ لا يستقيم حال مجتمع لو تُرك لأفراده حرية أخذ القصاص بأيديهم، فلا يمكن لإنجاز العدالة أن يكون مشروعًا خاصًا يديره كل من هبّ ودبّ. وكان من ثمار الاعتراف بهذه الحقيقة منذ العصور الغابرة بناء مؤسسات العدالة الناجزة، التي بلغت أوج تقدّمها -- في المجتمعات الناضجة -- عبر سنّ التشريعات القانونية توازيًا مع التشديد على وجود رقابة رسمية بغرض صحة تطبيق التشريعات،

* فصيلان متعارضان في السياسة الإيطالية من القرن الثاني عشر حتى نشوء الحكومات الوراثية ابتداءً من القرن الرابع عشر. (المترجم)

** الإشارة إلى مسرحية وليام شكسبير «روميو وجوليت»، وصراع العشيرتين النبيلتين مونتاج والكابوليتس. (المترجم)

ووفق الأحكام والإجراءات اللازمة لضمان حمايتها من أي قوى تحاول عرقلة سير العدالة.

في وسعنا النظر إلى منظومة العدالة بوصفها تسعى إنسانياً حسن النية (ولعل وصفه بهذا الوصف هو اعتراف صريح بالنقص الذي يعتور الجنس البشري برمته)، وهو يسعى يبتغي توفير وسيلة موضوعية نزيهة لاستدراك ما يُرتكب من أخطاء وتصحيحها، سواء ضد الأفراد أو ضد المجتمع. ولما كانت منظومة العدالة مؤلفة من مجموعة أفراد تستمد منها المنظومة سلطتها، فالمنظومة تمارس عملها باعتبارها نائباً عن المجتمع وممثلاً له، واطعة نصب عينها تحقيق العدالة أينما كان ذلك مطلوباً وممكنًا.

ليس الانتقام إلا جانباً واحداً من جوانب الهدف المنشود (هذا لو اعتبرناه جانباً من الهدف من الأساس)؛ إذ يذهب بعض الناس إلى ضرورة اقتصار العقوبة على إعادة تأهيل المذنب لا القصاص منه. والحقيقة أن التهوين من أهمية القصاص لا يلائم سوى المجتمعات الناضجة حضارياً؛ فالفكرة الأساسية من تطبيق القصاص هي أن العقد الاجتماعي الضمني المُبرم داخلياً (بين أعضاء المجتمع الواحد)، وخارجياً بينهم وبين الآخرين هو العيش بمقتضى اللوائح والقواعد المُنظمة ابتغاء تحقيق المنفعة المُتبادلة الشاملة للأطراف كافة.

وعندما يخرق أفراد المجتمع القواعد المعمول بها، يتحتم عليهم قبول تطبيق ما اتفق عليه المجتمع من عقوبات، ولا يمكن أن نسمي هذه الحالة انتقاماً من المجتمع، بقدر ما هي لو توخينا الدقة خطوة لإعادة الأمور إلى نصابها واستدراك الخطأ بالصواب.

أما أشد رغبات الانتقام خطورة فهي الرغبات التي تراود الأفراد عندما يستبد بهم الخوف والغضب والشعور بقلّة الحيلة في مواجهة ألوان الظلم، ومعظم البؤر المشتعلة في العالم مُحاصَرة حصارًا كثيفًا بهذه الأبخرة القابلة للاشتعال؛ فعندما يُحجَم رجل عن الأخذ بثأره برغم كل ما لديه من أسباب تسوغ فعلته (نيلسون مانديلا على سبيل المثال)، فإنه يضرب بذلك لنا مثالًا استثنائيًا جديرًا بكل إعجاب. يقول المثل الإسباني: ”العفو عند المقدرة هو الانتقام الأكثر شرفًا“. في فضيلة الحِلْم نبل عظيم؛ فالحِلْم تعبير عن نشدان شيء أعظم وأسمى من الرغبة في الانتقام، وهو بلوغ السلام والعبور إلى المستقبل، ووضع حد للأحقاد وصنوف الأذى المتقيحة التي تُسمِّم الحياة.

لكن الأمر يستلزم التحلي بخلق الشهامة، تلك الكلمة المشيرة للإعجاب المُقتَبَسَة من لفظة ”magna anima“، التي تعني الروح النبيلة والترفع عن الرغبة في الانتقام. ومع أن الشهامة خُلِق نادر الوجود لكنه حجر الزاوية في كل خُلُق قادر على جعل العالم مكانًا أفضل للعيش، وهو الترياق الوحيد لمعالجة الرغبة في الانتقام الباطش، الذي يؤدي دومًا وبنجاح لا يخيّب إلى خروج الأمور عن السيطرة.

الإفراط

”الإفراط هو رزق الطبيب“.

فرانسيس بيكون

قد تترك ليلة احتفال صاخبة أسرف المرء فيها في معاقرة الخمر أثرًا يسيّرًا في نفسه، وربما يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ، فيصاب بحساسية إزاء الضوء أو الصوت، وينفر من فكرة الطعام، وتثور ثائرته لأبسط كلمة بينه وبين الآخرين، وهذه العواقب هي الجزاء الوفاق للإفراط ومجاوزة الحد.

ثمة خدعة تسكن طبائع الأشياء، تتجلى في أبهى صورها في هذين الفارسين الجامحين، أقصد معاقرة الكحول والاحتفال الصاخب. وهذه الخدعة تزين للإنسان المضي قدمًا عندما يكون قد جاوز الحد بالفعل. وهذا هو سر الإفراط؛ أنه يحدث بعد فوات الأوان. كتب ويليام جاريسون “William Garrison”: “منذ نشأة البشر، لم يشهد العالم طاغية أشد استبدادًا من طابع الإفراط، ولم يرَ عبيدًا أذل من عبيده“.

* وليام لويد جاريسون: مجدد اجتماعي أمريكي وصحفي ومناصر لحقوق المرأة.
(المترجم)

ومع ذلك تشيد بعض المذاهب الفكرية بخصلة الإفراط بسبب ما تنطوي عليه من قيمة تعليمية؛ إذ قال بليك Blake: "إن طريق الإفراط هو أقصر طريق إلى قصر الحكمة"، وحثه على ذلك أن الإفراط ليس فعلًا مبهجًا في حد ذاته وحسب، بل إنه يعود بالنفع من خلال الحيلولة دون تحويل فضيلة الاعتدال إلى عادة مستقرة؛ فما أشد تعاسة رجل لم يأخذه الشطط بعيدًا ليرى كيف يبدو العالم من الجانب الآخر!

رُبَّ سائل يقول: وماذا يعرف عن الاعتدال من لا يعرف سوى فضيلة الاعتدال؟ ليس من قبيل المفارقة الادعاء بأن الإفراط باعتدال يعمل على احتفاظ المرء بمنظور يرى من خلاله الأشياء رؤية أعم وأشمل، فضلًا عن تأثيره الشافي، القادر على طرد العادات المُقَيِّدة، ولا أقصد بكلمة "الإفراط باعتدال" المجازفة بمعايرة نصف لتر إضافي من الكحول فوق ما يشربه المرء في المعدل الطبيعي مثلًا، بل أعني المشاركة في حفل صاخب يُقام من حين إلى آخر، ولكن ليس كل ليلة بالطبع.

لكن ثمة أفكارًا أشد قتامة؛ ففي إشارة بارعة للكاتب كريستوفر فراي "Christopher Fry" يقول: "يسمح العالم لنا بالانغماس في الأشياء فقط، وليس بالارتواء منها"، وهي مقولة لا تخلو من حكمة عميقة؛ فكل وسائل الإفراط هي ضروب لإلهاء التفكير وصرف الانتباه، هي وإذا كانت تُعلِّمنا شيئًا نافعًا فإنها تُعلِّمنا قيمة زوالها. يتعطش البشر إلى امتلاك أشياء ذات قيمة ثمينة، ويتوقون

* كريستوفر فراي: شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي تُوفِّي سنة 2005. (المترجم)

إلى بلوغ الحد الأقصى من الخبرات، لكن كأسًا واحدة من الخمر كفيّلة بإيهاهم بأنهم حازوا في أيديهم الحسنيين.

بيد أن تلك الأوهام تسبح بالمرء ضد التيار، وتمضي عكس الواقع المنشود. وهي ليست مسألة أخلاقية البتة؛ فلكل إنسان له الحق في استبدال "واقعه المرير، ذي الحبال الطويلة، المشكوك فيه" بحلم سهل سريع المنال، الحكاية وما فيها أن من رأى الحقيقة يعرف إلى أي حد يمتاز الواقع عن أي محاكاة خيالية عارضة غائمة الملامح؛ فناقل الحقيقة أكثر عرضة لخطر الموت من الحالم الذي يحمل البنادق، وهو ليس ملومًا في أنه نقل الحقيقة.

كان أبيقور هو الفيلسوف الذي ذهب إلى أن اللذة أعظم المنن وأن الألم أعظم البلايا، وتتلخص تعاليمه في الحث على السعي إلى المبدأ الأول؛ اللذة، وتجنّب الأخير؛ الألم، ومن ثم فهو يخلع صفة ثابتة على من يحبون الحياة الرغدة المقتربة من تخوم الإفراط، وأقصد بها صفة الأبيقوري.

ولشد ما يُدهش أغلب الناس حين يعرفون أنه كان يكتفي بشرب الماء فقط، مؤكدًا أن أسمى متع الحياة هي مناقشة الفلسفة مع الأصدقاء تحت شجرة وارفة الظلال. على أن أبيقور لم يرَ فضلًا في الإفراط وحسب، بل أبدى فهمًا عميقًا لأسباب الأفكار الجديرة باهتمامنا إذ قال: "إننا لن نرى أي غضاضة في اعتياد الناس على الإفراط والإدمان لو كانت ثمرة ملذاتها قادرة على صد مخاوفهم إذ يواجهون الموت والألم، فضلًا عن تعريفهم بحدود رغباتهم".

وكان مما يحز في نفس أبيقور أن تلك المتع المُفترضة كانت تأتي بمفعول عكسي، وكما يقول مثل فرنسي قديم: ”زجاجة الخمر الأولى فقط هي التي تكون باهظة الثمن“. وفي هذا المثل خلاصة الحكمة التي ينشدها أي إنسان بشأن سلوك الإفراط والإسراف، أو الحكمة التي ربما يكون على استعداد لتقبلها عندما يستيقظ بعد ليلته الليلاء صباح اليوم التالي.

ينطبق موضوع الإفراط والإسراف على مناح كثيرة في الحياة، لكن الملاحظات السابقة تصدق خصوصاً على معاقرة الكحول وغيره من صنوف المسكرات، ولا غرو لو رأينا الناس يُقبلون على معاقرة الخمر في المناسبات الحاسمة في حياتهم، أي عندما تطرأ على حياتهم تغيرات وقتية، لكنها عميقة الأثر، وتُعلّمنا دروس التاريخ أن البشر لم يعدوا أسباباً خاصة لفعل ذلك.

في المجتمعات القديمة - ولا يزال بعضها يحذو الحذو نفسه - رأى الناس في تعاطي الكحول وغياب العقل عن وعيه وسيلة للتواصل مع الآلهة، ومصرفاً ليفضي الناس بمكنون صدورهم بعضهم إلى بعض وإلى أنفسهم أيضاً، فكانت معاقرة الخمر فرصة يأخذ فيها الناس عطلة من أنفسهم ومن قيود الحياة اليومية المعتادة.

أقرّ للناس بحقوقهم في أخذ ”عطلات تحرّر أخلاقي“، واعترف بذلك اعترافاً واسعاً، إلى درجة أن جميع المؤسسات الحاكمة خصصت أياماً وأعياداً ومواسم احتفالات مُرخّصة (مثلما هو الحال مع عيد الحاكم الفوضوي ”Lord of Misrule“) يُسمَح فيها

بقلب الموازين الاجتماعية رأسًا على عقب مدة يوم واحد فقط، فيغدو الملك خادمًا للمهرج.

ومع ذلك لم يكن تعاطي الكحول بوابة البشر الوحيدة للتولوج إلى التواصل مع الألوهية أو إلى تحرير الذات؛ إذ عرفت البشرية منذ أقدم العصور الأنواع الأساسية من المخدرات، فلعبت تلك المسكرات دورًا محوريًا ولافتًا في حياة المجتمعات البشرية لخصائصها المميزة، ونظرًا إلى قدرتها على إحداث مثل هذه التحولات المزاجية، أُدرجت داخل دستور الأدوية القديم*. ولكن حالما بدأت الأديان المتشددة تخشى أثر القوة الفوضوية لتلك العقاقير، تحول صانعو العقاقير إلى شياطين مردة وإلى سحرة وساحرات وملعونين من ذرية الشيطان. ومع تزايد عدد المجتمعات وتعقيد ظروفها، تزايدت الجهود الرامية إلى إحكام القبضة على توفير العقاقير المخدرة وتداولها، وكان السبب الرئيسي وراء ذلك هو أن تأثيراتها تجعل الناس يخرجون عن أطوارهم.

وكما يشير اسمه، فالمخدر مادة تخدر جسم الإنسان، وتذهب بخاصية الإدراك والشعور، فما يلبث الدماغ أن يحاول الدفاع عن نفسه ضد ذلك التأثير المدمر لأغلب المواد الكيماوية الطبيعية المُفَرَّزة من خلال حماية نفسه بالتحصن خلف "حاجز دموي دماغي"، لكن المخدرات - على وجه التحديد - هي تلك المواد

* دستور الأدوية «pharmacopoeia» أو دستور العقاقير (فارماكوبيا): اصطلاح قديم، وهو عبارة عن سجل ضخيم يضم جميع الأدوية المسموح باستعمالها وصفاتها وخصائصها وطرائق تحضيرها. (المترجم)

القادرة على اختراق الحاجز، ومن ثم إزعاج الخلطة الكيميائية الطبيعية والحساسة للدماغ وتعطيل وظائفه!

لعل إحدى مزايا الكحول ملاءمة آثاره مع الجرعة المُتناوِلة؛ فقليل من الخمر يُلطف الجو الاجتماعي ويساعد على إذابة حائط الجليد بين الضيوف، ولكنه يتحول إلى خطر داهم لو عاقره المرء في أثناء القيادة؛ فكثير منه يُفقد الإنسان السيطرة على العضلات، والجرعات الأكبر منه قاتلة لا محالة.

كتب أناكارسيس "Anacharsis": "تحمل الكرم ثلاثة أنواع من العنب: الأول عنب اللذة، والثاني عنب السُّكر، والثالث عنب الاشْمِزاز". أما قبل سن تشريعات حظر القيادة تحت تأثير الكحول (وهو نوع من جرائم القتل التي تنتظر الحدوث) فقد حشدت الأصوات الرصينة تركيزها على التنبيه إلى خطورة تناول الكحول. يقول المثل الدانماركي: "يكتُم الرصين سرّه في قلبه، بينما يهرق السكّير سرّه على شفّتيه".

كما أشارت الأصوات الناصحة إلى التأثير المدمر لإدمان الكحول في الحياة الأسرية وفي صحة الفرد على حد سواء. وقد كان الشائع -في تلك الحقبة- أن إدمان الكحول هو دليل على الفشل الأخلاقي الخالص، أما اليوم فقد اعتُرف بمشكلة إدمان الكحول بوصفها مشكلة اجتماعية، ولو توخينا الدقة لقلنا مشكلة طبية، وفي هذا الكلام معيار دقيق يقيس محورية دور الكحول في حياة البشر؛

إذ قاوم كل محاولات حظر تداوله (في أيام تجريم تداول الكحول كانت التكلفة باهظة)، خلافاً لأنواع المسكرات الأخرى.

في وسعنا القول إن الكحول هو مرآة تعكس القدرة على السيطرة، وإنه يمثل حتمًا حدود سيطرة الإنسان على نفسه بالدرجة الأولى. يقول دولي الحكيم في كتاب "فينلي دون": "لم يجعل الكحول رجلًا إنسانًا أفضل قط، لكنه جعل رجالًا كثيرين يظنون أنهم أفضل"، وهي ملاحظة جائزة التطبيق على عموم مناحي الحياة.

وقد رأى السيد دولي أنه لولا تبادل كؤوس الخمر لما أفلح كثير من الأزواج والزوجات من تنويع علاقتهم بالزواج، بينما يقول يوربيدس: "الرجل الحكيم هو من يلزم منزله عندما يكون ثملًا". وربما كان يوربيدس يفكر في الأمر نفسه.

ربما تلقي هذه الملاحظات المتحفظة بظلالها على رواد الحفلات الصاخبة، الذين سيشاطرون لورد بايرون الرأي إذ قال: "ولا يشمل إلا الرجل ذو الفكر، وما الحياة إلا نشوة وسُكر". ولكن هل في وسعنا رفض كلام لورد بايرون لو كان يقصد بنشوة السُكر الانتشاء من سحر الفن والكلمات والموسيقى والحب؟

* فينلي بيتر دون: كاتب سيناريو وصحفي وكاتب أمريكي، والعمل المقصود هو كتاب السيد دولي «Mr. Dooley»، وهو كتاب مقالات ساخرة ترد على لسان نادل أيرلندي مهاجر حول موضوعات الساعة في أمريكا، وقد لاقى العمل نجاحًا واسعًا وقت نشره. (المترجم)

الاكتئاب

”إن غيمة واحدة لقادرة على حجب ضوء الشمس كله“.

توماس فولر

يُطلق على الاكتئاب الملازم لأيام الشتاء القاتمة اسم ”الاضطراب العاطفي الفصلي“ “Seasonal affective disorder”، ويُسمى اختصارًا ”SAD“. ويُعالج هذا النوع عبر تعريض المصابين لضوء الشمس القوي مدة نصف ساعة يوميًا.

الملاحظ أن أغلب المصابين بالاضطراب العاطفي الفصلي من النساء، ومن الواضح أن الإصابات لها أسباب وراثية. في هذه الأحوال، لا تجدي المصابيح الكهربائية العادية نفعا، كما يتحتم أن يكون الضوء مُكثَّفًا وواسع النطاق (ولكن لا ينبغي أن يكون أشعة ذات طيف كامل، من الأفضل استبعاد الأشعة فوق البنفسجية). وتُعَوِّل تلك الطريقة على أن مادة الميلاتونين المسؤولة عن تنظيم النوم والحالة المزاجية للذهن تُفَرِّز بإفراط بسبب طول عدد ساعات الظلام، فيعمل الضوء الواسع الطيف على كبحها، وعبر التحكم في إفراز مادة الميلاتونين، يستطيع الإنسان ضبط الساعة الداخلية في أثناء الرحلات الجوية الطويلة.

الاضطراب العاطفي الفصلي هو مرض فصل الشتاء بامتياز. ولنقرأ ما كتبه جيمس طومسون "James Thompson" في هذا الصدد إذ قال: "انظر! ها قد حلَّ فصل الشتاء ليغمر السنة كلها بمسحة حزن وكآبة". للمسألة اعتبار جغرافي أيضًا، ومن هنا فلا غرو أن عدد من يعانون الاكتئاب الفصلي في ولاية ألاسكا يفوق عدد من يعانونه في ولاية فلوريدا مثلاً، ومع ذلك فالسبب ليس مقصوراً على عدد الفوتونات المتاحة في كل بقعة.

أما لو رجعنا إلى المصريين القدماء لرأينا كيف كانوا يحسون بسلطان الإله العظيم في صباح كل يوم تصافح فيه الشمس رؤوسهم، أقصد قوة الإله رع (إله الشمس)، وما علينا إلا أن نقارن حجم ثمرة برتقال فلوريدا العملاقة بحجم مثيلاتها في ولاية ألاسكا لنتبين قدرة هذا الإله العظيم، ولشد ما يتضح التناقض الصارخ لو قارنًا الضوء المشرق المبهج في الصيف بالصباح المظلم الكئيب في الشتاء، وبدخول الليل ساعة منتصف الظهيرة، حيث تبدو كل الأشياء غائمة مكفهرة.

أستحضر هنا مقولة بييترو أريتينو "Pietro Aretin" إذ قال: "هلموا نحب فصل الشتاء؛ فالشتاء ربيع النبوغ والعبقرية"، وهي مقولة لا تخرج إلا من فم رجل إيطالي^{*}، أما بلدان الشمال، التي قصدها البشر قديمًا هروبًا من الملاحقة والاضطهاد (وليس حبًا في

* جيمس طومسون: شاعر وكاتب مسرحي إسكتلندي من القرن الثامن عشر. (المترجم)

** شاعر وكاتب إيطالي من عصر النهضة، وإشارة المؤلف هنا إلى اعتدال طقس إيطاليا صيفًا وشتاءً مقارنة بطقس بريطانيا في فصل الشتاء. (المترجم)

البرد القارس ولا الظلام الدامس)، فلتلغين أشهر الشتاء فيها طويلة، ولتجدنّها بلا شمس في أغلب الأوقات.

ولو سلّمنا بصحة الافتراض القائل إن مهد البشرية الأول كان مشمولاً بدفء الحرارة، ساطعاً بالألوان الاستوائية الزاهية، عابقاً بالروائح الفاتنة، لكان علينا أن نتساءل: لو كان الحال هكذا فعلاً، فأى غرائز عميقة تلك التي تكون مُجبرة على البقاء نائمة وسط عالم الثلج الصامت، حيث الليل السرمدى؟

يقول جاك ماريتان "Jacques Maritain": "إن أكثر ما يُورث الإنسان التعاسة ليس سلب ما كان يملكه، بل سلب ما لم يملكه يوماً ولم يكن يعرف بوجوده من الأساس"، وهو ما يجعل توق الإنسان للرجوع إلى جنة عدن توقاً متأصلاً في جيناته الوراثية، تلك الجنة التي يخبرنا علم الحفريات البشرية^{**} أنها كانت في قارة إفريقيا.

أما الاكتئاب الاضطرابي (أو السريري) فهو مرض خطير يستلزم علاجاً دقيقاً، وهو نقيض التقلبات المزاجية الطفيفة التي يوصي د. دودي سميث بعلاجها عبر "الإقبال على فعل الأعمال النبيلة وأخذ الحمامات الساخنة".

* جاك ماريتان: فيلسوف فرنسي معاصر. (المترجم)

** علم الحفريات البشرية «paleoanthropology» هو فرع من علم الآثار مع التركيز على البشر، يسعى إلى فهم التطور المبكر للإنسان العاقل تشریحياً. (المترجم)

بينما الاضطراب العاطفي الفصلي هو شكل من أشكال الاكتئاب السريري، ولكنه -لحسن حظ المصابين به- مرض أسبابه واضحة وعلاجه ميسور بالنسبة إلى أغلب الناس، لكننا نقول إجمالاً: لا تخلو حياة فرد من حالة نفسية تداهمه وفق ظروفه، وهي -بطبيعة الحال- تتراوح بين التقلبات المزاجية المعتادة والحالات الطبية الخطرة. وقد دأب كُتَّاب المآسي الإغريقية القديمة (بما اعتادوا عليه من المسحة السوداوية المسرفة) على الإفراط في المبالغة، ومن ذلك قول، يوريديس: "يُوفِّي القدرُ كلَّ إنسان نصيبه المحتوم من البؤس". لكن النصيب المحتوم هنا ليس بؤساً ولا غمّاً، بل هي حالة من حالات الكآبة التي تعيننا على استشعار قيمة الأشياء وإدراكها على نحو لا نقدر على فهمه في غير ذلك من الأحوال؛ والسبب أن أحوالنا المزاجية أشبه بضبط الترددات على جهاز لا سلكي يلتقط الحقائق من خلال ترددات متباينة، فلو غاب عنا إدراك نطاق ترددات المشاعر الإنسانية كاملة فلن نتمكن من معرفة النطاق الترددي للحقيقة كاملة.

تنسجم حالة الكآبة هاته مع حقيقة أن الحياة مشبعة بأسباب الحسرة والندم، وأن السعادة ليست دائماً الغاية المنشودة، وأن الحياة تغص بشتى صنوف المشقة والنضال التي يتحتم محاربتها، لكنها لا تمتلئ بقدر كافٍ من الخير والجمال، وأن التدبر في هذه الأفكار يعصم الإنسان من مغبة السقوط في الرعونة والرضا عن نفسه، وهي الحالة التي يصفها الروس حرفياً بحالة "الانغماس في مستنقع التفاهة"، التي من شأنها دفع المرء إلى أن يعيش حياة مبتدلة، وعليه فإن نذرًا يسيرًا من الاكتئاب لا يخلو من فائدة، في أي وقت كان.

المسيحية

”أحرق المسيحيون بعضهم بعضًا، وكانوا على اقتناع
أن من يأتون من بعدهم سيحذون حذوهم“.

لورد بايرون

المسيحية ديانة شرقية طغى عليها الامتزاج بمؤثرات آتية من
الحقبة الكلاسيكية*، وقد غيرت هذه المؤثرات من مسار حياتها
ومن ثم تاريخها، ولا فائدة من التكهن كيف كان من الممكن
أن يستمر تاريخ الحضارة الغربية لو اندثرت الديانة المسيحية بعد
وقت قصير من ظهورها متحولة إلى مجرد نسخة مكررة مما شاع في
تراث الشرق الأدنى، بداية من الأساطير المصرية القديمة وصولاً
إلى الطقوس الأورفية حول الإله الذي يموت ويُبعث حياً من جديد.
ولكن في وسعنا أن نقدم الأطروحات الآتية: من ناحية، كان من
المستحيل القضاء تمامًا على أكاديمية أفلاطون وأرسطو في أثينا
القديمة في سنة 529 بعد الميلاد بدعوى أفكارها الوثنية، ومع ذلك
فالمفارقة الشائكة المقترنة بهذه الحقيقة هي أن من حاول القضاء
عليها (وهو الإمبراطور جستنيان) سُمي الكنيسة المهيبة التي شَيَّدها في

* المقصود بالعصر الكلاسيكي عمومًا الفترة الممتدة من القرن الثامن قبل الميلاد
حتى القرن الخامس أو السادس الميلادي، وتحديدًا في منطقة حوض البحر
الأبيض المتوسط (الحضارة الإغريقية والرومانية والهيلينية). (المرجم)

القسطنطينية باسم ”كنيسة الحكمة المقدسة The Church of the Holy Wisdom“. على صعيد آخر، لم يكن ثمة مسيحيون للقضاء على الألعاب الأولمبية في سنة 393 ميلادية بسبب كرههم لُعري اللاعبين الرياضيين، فكلمة ”Gymnos“، التي اشتُقَّت منها مفردة رياضة الجمباز ”gymnastics“، تعني في الأصل التدرُّب عاريًا. ربما يفزع سدنة المدافعين عن المسيحية قائلين إنه لولا تحوُّل الديانة المسيحية إلى الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية بمحض المصادفة، لخسرت فنون عصر النهضة أبهى لوحات البشارة والصُّلب، ولكنها ربما تبدو خسارة هينة لا تُذكر لو قُورِنت بالتاريخ الدموي للمسيحية المتمثل في ما شئتَ من حروب صليبية، وفي محاكم التفتيش والحروب الدينية، وقتل الساحرات، والأخلاق القمعية، والعداء المطلق لغريزة الجنس، ولولا تلك الفظائع لاختفت لوحات البشارة وحل محلها مزيد من صور أبولو مُطارِدًا دافني، ولوحة موت بروكريس ”The Death of Procris“، ولوحة ديانا وهي تستحم، وما شابهها.

والحق أن أسطورة أفروديت المولودة من زبد البحر هي بكل المقاييس - وبغض النظر عن المعايير المتزمته الكثيرة للمذهب البروتستانتي- رمز يعزز حب الحياة تعزيزًا أقوى من لوحة إنزال المسيح من فوق الصليب ”Deposition from the Cross“* الطافحة بالكآبة.

* لوحة مشهورة رسمها الإيطالي بونتورمو في سنة 1525 ميلادية. (المترجم)

من سمات الموقف الديني المسيحي رفض حمل الأمور على محمل الجد لو رآها في غير صالحه. ولنقرأ معاً هذه الفقرة من سفر صموئيل الأول 15: 32: "وقال صموئيل: قَدِّمُوا إِلَيَّ أَجَاجَ مَلِكِ عَمَالِيقَ، فذهب إِلَيْهِ أَجَاجُ فَرَحًا، وَقَالَ أَجَاجُ: حَقًّا قَدْ زَالَتْ مَرَارَةُ الْمَوْتِ، فَقَالَ صَمُوئِيلُ: كَمَا أَتَّكَلُ سَيَفُكُ النِّسَاءُ، كَذَلِكَ تُتَّكَلُ أُمُّكَ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَقَطَعَ صَمُوئِيلُ أَجَاجَ أَمَامَ الرَّبِّ فِي الْجِلْجَالِ".

ولو كان تمزيق أوصال أجاج يشيع البهجة في قلوب الآلهة فهو بالتأكيد أقرب إلى موقف بروميثيوس في قصيدة جوته*؛ إذ طبق الأخير مقاييس الآلهة نفسها حين خاطبها قائلاً:

لَسْتُ أَعْرِفُ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْكُمْ بُرْسًا

تَحْتَ الشَّمْسِ، أَيْتَهَا الْآلِهَةُ.

تَتَغَذَّوْنَ عَلَى الْقَرَابِينِ

وَعَلَى أَنْفَاسِ الْمُصَلِّينِ

وَلَكُمْ كَانَ سِينَالٌ مِنْكُمْ الْجُوعُ،

لَوْ لَمْ يَكُنِ الْأَطْفَالُ وَالْمُتَسَوِّلُونَ حَمَقَى مُفْعَمِينَ بِالْأَمْلِ الْمُهَيْبِ

أشارت ليزلي ستيفن "Leslie Stephen" إلى اقتصار البحث الأخلاقي في أوقات ازدهار الدين على مجال الفقه وحده، أي على علم تفسير الأوامر الإلهية. يتكئ هذا الاتجاه على مغالطة منطقية

* المقصود قصيدة بروميثيوس للشاعر والأديب الألماني يوهان جوته، ويحكي فيها قصة بروميثيوس سارق النار الإلهية الذي انقلب على التايان، بحسب الأسطورة الإغريقية. (المترجم)

ذات اسم لاتيني وهي "argumentum ad baculum" (العصا الغليظة) أو سياسة الاحتكام إلى القوة، ويمكن شرحها على النحو الآتي: لو طرح متشكك أخلاقي السؤال التالي: "لم ينبغي لي أن أتصرف بالطريقة الفلانية أو غيرها؟" فسيكون الرد الديني: "لأن الرب يأمرك بذلك". والحقيقة أنها صياغة مهذبة لعبارة: "لأنك ستُعاقب لو لم تُطع أوامر الرب"، وهو المغزى الحقيقي من حجة "argumentum ad baculum"، أي التهديد والترهيب باستخدام القوة. بيد أن أسلوب التهديد والوعيد لا يمثل مسوغاً منطقيًا لاتباع سلوك بعينه والصد عن آخر، ولئن افترضنا وجود إله ذي نزعة انتقامية عقابية وفق الصورة اليهودية المسيحية فربما تكون طاعته وخشية ناره نوعًا من الحكمة، ومع ذلك فالتهديد بالمعاقبة -ابتداءً- ليس سببًا يوجب الطاعة.

يقول حماة العقيدة الدينية إنه لا ينبغي أن يكون الوازع الأخلاقي نابعًا من التهديد بالعقاب الإلهي، بل من محبة الله والإحسان إلى إخواننا في الإنسانية. لكنها مقولة أقرب إلى ذر الرماد في الأعين مهما حسنت نواياها؛ فمن المنظور الديني، لو اختار إنسان ألا يتصرف بإيعاز من هذه المشاعر الدينية، أو لم تلامس تلك المشاعر قلبه، فسيُنَبَذ في مكان قصي وحيدًا ملعونًا، ولن يختلف مصيره عن

* تعني كلمة «baculum» باللاتينية: العصا، ومن ثم تعني هذه المغالطة اللجوء إلى التهديد والوعيد من أجل إثبات دعوى لا تتصل منطقيًا بانفعال الخشية والرعب الذي تهيّب به. (المترجم، نقلًا عن المغالطات المنطقية، د. عادل مصطفى، هنداوي 2019)

مصير شجرة التين المشار إليها في الكتاب المقدس، التي لُعنَت لأنها لم تثمر في غير موسمها*.

وربما يقول مفكر أخلاقي علماني: لو كان الحب الإيثاري (وفق الاصطلاح الإغريقي "agape"، أو الاصطلاح اللاتيني "caritas"، بمعنى حب إيثار الغير والإحسان إليهم) هو السبب وراء كوننا أخلاقيين، فما جدوى وجود إله أو عدمه؟ وما المانع في أن نخوض غمار الحياة الأخلاقية متسلحين بمشاعر الخير التي تسكننا؟

يدّعي الأخلاقي العلماني أن وجود إله لا يضيف شيئاً إلى موقفنا الأخلاقي، اللهم إلا وجود شاهد خفي يعلم ما نعمل (ويعلم ما في صدورنا وما نفعله في جنح الليل)، ويهددنا بالعقاب الأليم في الحياة الآخرة لو عملنا السوء. يرى هؤلاء أن مثل هذه الرؤى يتعذر أن تكون إضافة ثرية إلى الحياة الأخلاقية؛ لأن عماد هذه الرؤى هو الخوف والتهديد بالعقاب، وهو بالضبط ما تسعى الحياة الأخلاقية إلى تحريرنا منه، من بين أمور أخرى.

* يظهر ثمر التين قبل أوراقه -بعكس معظم الأشجار- فإذا ظهرت الأوراق من دون الثمار فلا يُرجى من الشجرة ثمر، والإشارة إلى حكاية في العهد الجديد وردت في إنجيلي متى ومرقس. تقول الحكاية: إن المسيح -عليه السلام- عندما كان جاثلاً في إحدى المرات، توجه إلى شجرة تين على طريق أورشليم، لكنه لم يجد فيها ثمرًا. ومع أنه لم يكن موسم التين قد حان، لكن المسيح وفق الرواية لعن الشجرة فيست، والإشارة هنا (بحسب التفاسير) ترمز إلى اليهود الذين لا يؤمنون. (المترجم)

وهذا ما يجرنا إلى السؤال التالي: "لماذا تُختَص الكنائس بمنزلة رفيعة - بل ربما حصرية تقريبًا - كلما طُرِح نقاش اجتماعي حول الأخلاق، مع أنها المؤسسات الأقل كفاءة وجدارة لنيل هذه الحظوة؟" ربما ينطوي هذا الكلام على شيء من التناقض، ومرد ذلك أننا درجنا أن نعطي الكلمة الأولى لرجال الكنيسة عند وقوع الأزمات الأخلاقية، وهو ما حدث بطريقة عجيبة!

طالما كانت الكنائس مهووسة بالتركيز على نزر يسير من النشاط البشري، وخصوصًا ما يتعلق بأمور الجنس، فاستنفدت الكنائس كل الوسائل لضبط بوصلة السلوك الجنسي للبشر وفق هواها وتقييد سلوكهم تبع مرادها، فجارت أصوات الكنائس بالشكوى من سوء أخلاق البشر في هذا الجانب، وهو ما خَوَّل للكنائس (بوجه ما، أو بآخر) سلطات عامة في مضمار القضايا الأخلاقية، في حين أننا لو أعملنا عقولنا لاكتشفنا بسهولة أن رؤاهم كانت منبئة الصلة عن القضايا الأخلاقية الحقيقية، أو أنها كانت تناهض القضايا الأخلاقية مناهضة حاسمة.

تُعَلِّي المجتمعات العصرية المتطورة من شأن قيم الاستقلال الشخصي، والسعي وراء كسب لقمة العيش، وإعالة الأسرة، والادخار لأيام القحط، واستحقاق التقدير والمكافأة عن إحراز النجاح في الحياة المهنية، بينما تُمَجِّد الأخلاق المسيحية العكس تمامًا؛ إذ تطالب البشر ألا يفكروا في الغد: "وَلَمَّاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأْمَلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنُمُو! لَا تَتَعَبُ وَلَا تَغْزُلُ"، وأن يعطوا الفقراء

* الآية من إنجيل متى (28:6). (المترجم)

كل أموالهم، وتحذر من أن الغني لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، ومن ثم فهي تدعو إلى الخنوع الكامل، على عكس القيم الداعية إلى استقلال الشخصية وتحمل المسؤولية.

والحقيقة أن مثل هذه الأخلاق واقعة على طرف النقيض مع معايير المجتمع الحديث؛ إذ يغض أغلب الناس الطرف عن التناقض الصارخ بين وجهات النظر هاته وروح عصرنا الحديث، بينما تلزم الكنائس الصمت حيال هذه القضايا، في حين أنه لو كلّف شخص نفسه عناء فحص متطلبات الأخلاق المسيحية -أو في الواقع أي أخلاق دينية- لغمرته الدهشة من تعارضها التام مع ما يألفه الناس اليوم ويرغبون فيه، وسيرى صحة موقف الأخلاق المعاصرة، بغض النظر إذا ما كانت أخلاقًا مسيحية أم غير مسيحية، وهو مما يدل على أن الأخلاق الأولى (أخلاق المسيحية) منبئة الصلة بالآخرة (أخلاق المجتمع المعاصر)!

تتعلق الأسئلة الأخلاقية الكبرى في عصرنا الراهن بحقوق الإنسان، والحروب، والفقر، واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، والالتفات إلى مأساة موت طفل كل ثانيتين ونصف في دول العالم الثالث بسبب الجوع، أو موته بسبب مرضٍ قابل للعلاج لكن دواءه غير موجود! ومقارنة بهذا فهوس الكنائس بأمور الحرية الجنسية قبل الزواج، وإذا ما في مقدور الأزواج المطلقين الزواج مجددًا زواجًا كنسيًا، يبدو أمرًا مثيرًا للازدراء قياسًا بهذا الطوفان الهادر من المعاناة والعوز الإنساني.

إن أشد ما يُلحِق الضرر بمسألة الخير في العالم هو صرف انتباه الناس عن المسائل الجوهرية الأجدر بالعناية، وحشد الجهود الهامشية غير النافعة على حض البشر على ممارسة حياتهم الشخصية وفق ما تمليه الكنيسة وحدها.

في بعض الأحيان، لا تناهض الممارسات الكنسية الأخلاق وحسب، بل تغلو في عدم أخلاقيتها؛ ففي بقاع كثيرة في العالم يحبس المتطرفون والمتعصبون النساء، ويشوهون أعضاءهن التناسلية، ويقطعون أيديهن، ويمارسون القتل والتفجير والإرهاب باسم معتقداتهم، وسيجانبنا الصواب لو ذهب بنا الظن إلى أن رجال الدين في العالم الغربي، الذين ليست لهم فائدة ولا عائدة، من تلك الممارسات بعيد؛ إذ كان من دأب رجال الكنيسة حتى عهد قريب الأمر بإحراق من لا يؤمنون بتحوُّل النبيذ إلى دم عندما يصلي الكاهن عليه، أو إحراق من ينكرون ثبات الأرض، أو من ينكرون أن الأرض مركز الكون، بل وصل الأمر بهم إلى جلد الناس وجدع أنوفهم وقطع آذانهم بسبب المعاشرة الجنسية خارج إطار الزواج، أو التحذير من أن العادة السرية أسوأ من الاغتصاب؛ لأن الاغتصاب قد يؤدي إلى الحمل، بينما الأولى لا تفعل. ولو بقي هؤلاء القساوسة على رأس العالم المسيحي حتى اليوم فَمَن يجرؤ على القول إن الأمور كانت لتختلف؟

ولما كان الشغل الشاغل للطاقة الدينية داخل الكنائس مُنصَّبًا بالدرجة الأولى على توجيه السلوك الجنسي للبشر، إما بحظره (أو حظر أفكاره أو تمثلاته) اللهم إلا في ظروف محدودة للغاية، وإما بعرقلة تحسين عواقبه، فلا عجب أن نرى اليوم دعاة الأخلاق

عاكفين على تدبيج الشكاوى الرسمية ضد برامج العري التلفزيونية، بينما يغضون الطرف عن تصدير أطنان الأسلحة من المصانع المجاورة لهم إلى شتى بقاع الأرض التي تضربها مرارة الفقر والحرمان، وتصطلي بنيران الحروب الأهلية. وعلى ضوء هذه الأمثلة السابقة والتناقضات المذكورة، فالكنيسة أفقر من أن تقدم شيئاً ذا بال لصالح إثراء النقاش الأخلاقي.

هنا سيُهرع سدنة الكنيسة إلى الإشارة إلى أن الأعمال الخيرية، التي تقدمها كنائسهم، لا تتواني عن فعل الخير داخل البلاد وخارجها، والحقيقة أنهم إذ يفعلون ذلك فإن أنشطتهم لا تختلف البتة عن أنشطة منظمات الإغاثة الإنسانية غير الكنسية والجمعيات الخيرية وغيرها، وهو على كل حال جهد مشكور ومطلوب، ومع ذلك فعندي ثلاثة أفكار أود الإشارة إليها؛ أولها أن منظمات الإغاثة غير الكنسية تنطلق من دوافع إنسانية محضة، ولا تحتاج إلى مرجعية عقائدية عليا لتبرير مصدرها أو لتمنحها قوة التحفيز.

والفكرة الثانية أن المنظمات الإنسانية غير الكنسية لا تُجبر من تسدي إليهم المعونة على اعتناق أفكار بعينها، سواء سرّاً أو جهراً، مثلما تفعل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أو أي طائفة أو عقيدة أخرى.

وأما الفكرة الثالثة والأخيرة فهي أن اهتمام المؤسسات الكنسية بالأنشطة الخيرية لا يعوض كثيراً حجم المعاناة التي أثقلت بها العقيدة المسيحية كاهل البشرية على مدار التاريخ، وهي المعاناة التي تشكل الجانب الأعظم مما نرى عواقبه وآثاره اليوم. لا ننكر

أحقية الكنائس (شأنها شأن أي مجموعة مصالح أخرى) في أن تدلي بدلوها في الأمور الواقعة ضمن نطاق اهتمامها، لكن مع ذلك تبقى الكنيسة في نهاية المطاف مجرد تكتل مصالح، تتبنى وجهات نظر متحيزة، وتُضَمِّر مآرب خفية تنشد بلوغها.

وإن مطالبة الكنيسة بأن تقول كلمة حق في القضايا الأخلاقية لهُو أشبه بمطالبة ثعلب بوضع قواعد صيد الثعالب! إذ يعتقد رجال الكنيسة معتقدات غيبية مغرقة في القِدم، ويعتمدون على حجج أخلاقية انقضى عليها نحو ألفي سنة، ومن هنا فمن العجب أن نغير وجهات نظرهم أولوية على حساب وجهات النظر التي يمكن استخلاصها من ثراء الآراء المدروسة المنفتحة التي يقدمها المجتمع المعاصر.

فعندما يقول أحد الأساقفة إنه يمكن تحقيق المصالح الأخلاقية على أفضل وجه ممكن من خلال تنحية اعتبارات الكنيسة جانبًا، يحسن بنا أن نجلس ونغير الرجل أذنا مصغية. والأسقف المقصود هنا هو حضرة القس النبيل ”ريتشارد هولواي“ أسقف إدنبره، ورئيس أساقفة كنيسة إسكتلندا، وهو اللقب الذي يستحقه بجدارة؛ لأنه كثيرًا ما يشير الجدل بآرائه داخل الكنيسة الأنجليكانية، وفي ما يخص طقوس القربان المقدس وغيرها؛ إذ عُرف بآرائه المتحررة حول قضايا الجنس والإجهاض والمخدرات، والتي كانت محور كتابه ”الأخلاق المتحررة من الإله“ الذي قدّم فيه طرحًا متحررًا لما أسماه ”أخلاق القبول“.

وبرغم ما يحمله عنوان الكتاب من دلالات علمانية واضحة فإن نداء الأسقف مُوجَّه بالدرجة الأولى إلى مواجهة النزعة الأخلاقية المتمتزة داخل الكنائس المسيحية، علماً أن ما أورده من حجج لم يكن غريباً على التيار الليبرالي العلماني المقتنع بهذه الأفكار.

إن أول ما يلقي الرعب في قلوب أبناء طائفته (أي طائفة القس هولواي) هو قوله بتحسُّن أحوال النقاشات الأخلاقية لو زال سلطان الكنيسة، كما يذهب إلى أن غير المتدينين الأخلاقيين يشعرون بمهانة بالغة من ادعاء أن التدين الكنسي هو شرط واجب للتحلي بالأخلاق، وخصوصاً أن تاريخ الجرائم الدموية، التي ارتكبت في حق الإنسانية باسم الدين، تضع هذا الادعاء موضع شك عميق.

لكن الحجة الدامغة، التي يطرحها القس، تتمثل في ضرورة أن تقف الأخلاق على قدمين ثابتتين فوق أرض راسخة، وأن تُلزم نفسها بالعقل وحسن النية، وأن تستغني عن أي تهديدات خارجية بالقصاص لإرغامها على الامتثال لأحكام الكنيسة. يجادل القس هولواي عن كون الأخلاق ترسَّمت في الماضي خطى المنظومة الاجتماعية السائدة؛ إذ كانت للسلطة الحاكمة اليد الطولى (كسلطة الملك على سبيل المثال)، أما الآن فقد انقضى ذلك العهد إلى غير رجعة.

ومع زوال التقاليد القديمة وارتخاء قبضة السلطة الملكية واندثار قواعد مجتمعية جائرة حكمت على النساء (وهن نصف المجتمع) بالحرمان من التمتع بحقوقهن الإنسانية كافة، فقد آن الأوان لإحلال "أخلاق التوافق" محل "أخلاق الأمر والتسلط"؛ ففي أخلاق

التوافق، تستجيب الاعتبارات الأخلاقية للنزعة التعددية المحتومة في الحياة الحديثة، كما تستجيب للمتطلبات الطبيعية والجنسية المطبوعة في تكويننا.

يوضح لنا القس هولواي الثمرة المباشرة لفصل الأخلاق عن الكنيسة؛ إذ يبين أن هذا الفصل هو قارب النجاة للهروب من سيطرة مفهوم الخطيئة، المرادفة لعصيان الله.

تحتل العلاقات الإنسانية، وتحمل المسؤولية، وإبداء الاهتمام بالآخرين بؤرة اهتمام علم الأخلاق، أما الدين فيتعامل مع المطلق تعاملًا حصريًا، بيد أن تنوع أطياف الطبيعة الإنسانية لا يسمح بوجود أي نوع من أنواع المطلق، وإنما يسمح بوجود سلع ورغبات متنافسة.

من بين النقاط الشائكة، التي لمسها القس هولواي، أن الانعطاف باتجاه طريق "أخلاق التوافق" صار حتميًا، وبمجرد أن نأخذ هذه الانعطافة سنرى سبلاً جديدة أفضل وأشد إنسانية للنظر إلى بؤر الاضطراب الأخلاقي التي تؤرق المجتمع الحديث وكيفية التعامل معها، وعلى رأسها الجنس، والمخدرات، والإجهاض، والقتل الرحيم، والتناسل البشري.

في معرض دعوته إلى اتخاذ موقف أكثر انفتاحًا وتسامحًا إزاء المسائل السابقة، يبتكر القسيس فكرة موسيقى الجاز الأخلاقية التي يعني بها العزف عن طريق الأذن في خضم التعامل مع كل معضلة أخلاقية على حدة عند ظهورها، حيث يصبر القس إصرارًا حاسمًا -ومعه الحق تمامًا- أن الإنسان عندما يقف على ظروف

وملابسات كل أزمة على حدة فمن الجائز أن يُظهر تعاطفًا أكبر مما لو عارض شكلاً من أشكال الانحلال الأخلاقي المزعوم.

وصف الرجل وجهة نظره في إشارة بارعة بقوله: "هلموا نطلق بالسيارة، لكن دعونا نتأكد من سلامة المكابح أولاً". تُوجز هذه المقولة ما أطلق عليه القس "خير الأمور الوسط"؛ فحظر المخدرات حظرًا باتًا يأتي بنتائج عكسية، وفي إباحتها إباحة مطلقة مفسدة مطلقة، كما أن الإجهاض ليس جريمة قتل على طول الخط، وينبغي الترحيب بعلاج الخصوبة كحل مفيد لمن يتحرقون شوقًا إلى الإنجاب.

من بين آراء الأسقف الأكثر إيجابية، رؤيته للحرية الجنسية، بل الأشد إثارة للاهتمام هو اعتقاده بأن العادات الجنسية الشائعة في مجتمعنا المعاصر لا تعني توسيع رقعة الانحلال الأخلاقي، وسبب تأييده لهذا المنظور هو حرصه العميق - باعتباره رجل دين - على ألا تُوصد الكنيسة أبوابها في وجه أحد، وأن تحتضن رعيته بدلاً من أن تشدد عليهم الخناق.

وتماشياً مع هذا الرأي، فغالبًا ما يدافع القس داخل الكنيسة عن حرية الممارسات الجنسية. أما وجهة نظره حول الجنس فأشدّ تعقيدًا؛ إذ يذهب الأسقف إلى أن ما يسميه شباب اليوم "المضاجعة العابرة"، أي الممارسة الجنسية العرضية بغرض المتعة وحدها، لا تتعارض مع اعتقاد الشباب نفسه في الإخلاص لزوجة واحدة وعدم تعدّد الشركاء الجنسيين على المدى الطويل، مشيرًا في الوقت ذاته إلى أن الكتاب المقدس لا يزدحم بقصص المضاجعة العابرة

وحسب، بل وبأنماط أخرى أشد تطرّفًا (مثل زنى المحارم) الذي كان شائعًا في سنوات العهد القديم، علاوة على ذلك فهو [القسيس] يُحمِل المذهب الغنوصي وزر اتخاذ المسيحية الأولى موقفًا مناهضًا للجنس، ما يعني أن العهد الجديد لم يكن أقل تسامحًا ولا انفتاحًا من العهد القديم في تلك المسائل.

وهذه النقطة هي بؤرة المشكلات الأساسية بالنسبة إلى القس. وكما ذكرنا آنفًا فإن كتابه ليس إلا محاجّة يخوضها ضد المحافظين المسيحيين، مستهدفًا زمرة المسيحيين المترددين بين مساره الليبرالي ووجهة نظر المحافظين الأكثر تزمّتًا وأصولية. لن يجد الليبراليون العلمانيون في موقف الأسقف الأخلاقي أمرًا غريبًا أو مفاجئًا، بل سيجدونه موقفًا واضحًا موافقًا للحس الإنساني السليم، والحقيقة أن هولواي عبر هجومه ضد التيار المحافظ إنما يوضح قوة موقفهم. يذهب المسيحيون المحافظون إلى أن حقائق الكنيسة خالدة أبد الدهر، وأن الحرية الجنسية رجس، وأنه يتحتم على النساء تغطية رؤوسهن، والتزام الصمت داخل الكنيسة، وطاعة أزواجهن طاعة مطلقة. هذه حدود السماء الصارمة: اعصها وسيقذف بك في الجحيم.

أما هولواي فيقول إن آيات الكتاب المقدس هي آيات مجازية، أُنزلت لتلائم الظروف الاجتماعية لعصرها، ولا تعكس وجهة نظر واحدة ثابتة يمكن تأسيس مبادئ أخلاقية عليها، وهو ما يشهد ببراعة هولواي على مواءمة أفكار الكنيسة لمقتضيات العصر الحديث، وكتابه برهان على ضرورة إعادة تكييف المعتقدات

الكنسية تكييفًا عمليًا بعيدًا عن الاعتقاد بخلود أفكاره أبد الدهر وقدرته على مخاطبة الأزمنة المتغيرة.

وفي معرض محاولة هولواي لإنقاذ الجنس من براثن العقيدة المسيحية، جانبه الصواب في إنحاء اللوم على المذهب الغنوصي، وإنما كان عليه - من باب أولى - إلقاء اللوم على القديس بولس وآباء الكنيسة الأوائل الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك لما تقبلوا بخنوع استخفاف الأفلاطونية بالجسد، وتمجيد الروح على حسابه.

والحقيقة أن الخوف المسيحي من فكرة الجنس وما يقترن به من كراهية المرأة يكاد يكون متجذرًا في عمق العقيدة المسيحية تجذر الغرائز الجنسية في الطبيعة البشرية، ولهذا السبب، يبدو الخوف المسيحي من الجنس أمرًا هامشيًا قياسًا بممارسة غرائز الجنس ذاتها؛ فذلك الأمر يطفو بحرية على سطح الحس الإنساني السليم والمنطق العلمي.

الخطيئة

”إلهي! لستُ نادمًا على الخطايا التي اقترفتها،
لكني نادم على الخطايا التي لم تُتَّح لي فرصة اقترافها“.

الشاعر غالب

في إطار مساعي الطب القديم لإحكام السيطرة على أخطار بعض العادات وما ينجم عنها من آثار خطيرة تبدأ بالتهاب المفاصل والإجهاد الجسدي والإرهاق العصبي، مرورًا بالإصابة بالعمى، وصولًا إلى الجنون والموت، راح الأطباء يصفون مواد ”هيدرات الكلورال“، و”بروميد البوتاسيوم“، و”الأفيون“ لمعالجة الأعراض الثلاثة الأولى، ثم وصف نبتة ”القمعية“ أو مادة ”ستركنين“* (التي تكون أكثر أمانًا عند مزجها بجرعات صغيرة من مادة الزرنيخ كما قال أحد الممارسين المحترفين) لمعالجة الأعراض الأشد خطورة، فضلًا عن التوصية بمادة حمض الهيدروكلوريك الذي يمكن تناوله عن طريق الفم.

* القمعية «Digitalis»: نبتة عشبية لها استعمالات طبية؛ فهي تُستخدم لتقوية انقباض عضلة القلب، أما مادة ستركنين «Strychnine» فهي مادة قلوية عالية السُمِّية كان يُعتقد ببعض الفوائد الطبية لها. (المترجم)

وفي حال فشل الطرائق السابقة، كانوا يعمدون إلى استخدام ديدان العَلَقَة* ووضعها بين الأفخاذ، أو تسخين الصِّفاق أو الأعضاء التناسلية أو حرقها أو صَعق الأعضاء كهربياً. أما لو فشلت الطرائق السابقة كافة فكان يُشار بضرورة التدخل الجراحي عبر الختان أو الإخضاء أو حف البظر.

ولضمان كف أيدي الأولاد عن مقارنة هذه الممارسة، نُصَح الآباء قديماً بخياطة أكمام قمصان نوم أطفالهم في أغطية السرير، أو ربط كاحل أقدامهم (أقدام الأطفال) على الجانبين المتقابلين من السرير، أو إرغامهم على ارتداء منشفة سميكة أو حفاض.

لا جرم أن المقصود بالعادة السابقة العادة السرية التي طالما نظر إليها الأخلاقيون والأطباء بداية من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين نظرة خوف وذعر، ويسود اليوم اعتقاد شائع داخل بعض الدوائر الطبية يروج أن العادة السرية تؤدي إلى وهن الأطراف، فضلاً عن تسببها في مجموعة متنوعة من الاضطرابات العصبية والجنسية. ولو رجعنا قليلاً إلى الوراء لتبين لنا أن علة هذا الخبل هو خوف العقيدة المسيحية بالدرجة الأولى من غريزة الجنس والتعبير عن المشاعر الجنسية؛ إذ دأبت المسيحية -إبان القرون الوسطى وفي عصر النهضة- على تقديم أعراض الاكتئاب والإصابة بأمراض

* ديدان العَلَقَة: طريقة مستعملة منذ القدم للقضاء على الالتهابات، واستخدم أطباء أوروبا العَلَقَة الطبية منذ نحو ألفي سنة؛ إذ كانوا يستخدمونها في أثناء الجراحات الطبية لتساعد على تدفق الدم في الشعيرات الدموية الدقيقة بحيث لا يتجلط دم المريض خلال إجراء الجراحة، أما في الهند فيستخدمونه كبديل للحجامة. (المترجم)

الجذام والزهري بوصفها عقوبات إلهية تحل بالبشر جزاءً وفاقاً على الخطيئة الأصلية، وخصوصاً خطيئة الجنس، أما في العصر الحديث (أي بدءاً من القرن السابع عشر فصاعداً) فتجسدت هذه الأفكار في صورة نظريات تروج للأخطار الطبية الناجمة عن الإفراط في هذه الممارسات، أو الانخراط في الانحراف الخُلقي أو إيذاء الذات (الانتحار).

وهنا نلاحظ التحول المفاهيمي الذي طرأ على الأفكار الكلاسيكية؛ إذ ارتدت أفكار الفحش والدناسة الخُلقية ثوب الطب، واتخذت أعراضها مسميات من قبيل العدوى بالأمراض الخبيثة وتلف الجسم والعقل. تُعَلِّم الكنيسة الكاثوليكية أتباعها أن العادة السرية أسوأ من الاغتصاب؛ فربما يسفر الأخير عن الحمل. وهنا لا نرى اختلافاً بين هذه الفكرة وادعاء الكاثوليكية أن وسائل منع الحمل ضارة بالصحة (مع أن الكاثوليكي لا يرى ضميراً في العزوبة والعزوف عن النساء). لا جدال أن الأخلاق المسيحية جديرة باللوم الميرير على معاناة البشر من مواقفها إزاء الجنس.

لنغض الطرف مؤقتاً عن الآلام النفسية المؤرقة المتجسدة في مشاعر الإحباط والقلق والشعور بالذنب، والحياة الجنسية المشوهة أو المبتورة، والضرر الناجم عن سد المنافذ الطبيعية للتعبير الجنسي، ودعونا نتأمل مثلاً واحداً، وهو معالجة مرضى الزهري الذي ظهر في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر. انتشر الزهري وقتذاك انتشار النار في الهشيم، وأصاب ضحاياه بقروح مؤلمة ومتقيحة كريهة تنهش اللحم وتأكل العظام، وتؤدي إلى تآكل الشفاه والأنوف والأفواه، فتمسخ المصابين إلى مسوخ كريهة الخلقة،

وقد لقي كثير من المرضى حتفهم أول الأمر بهذه الطريقة، أما من كُتِبَ لهم النجاة فكانت في انتظارهم تبعات مأساوية اتخذت هيئة تشوهات في العظام، ثم الإصابة بالجنون قبل أن تفيض أرواحهم. وما كان من الكنيسة الكاثوليكية إلا أن قالت إن المرض هو عقاب إلهي على انغماس الناس في دنس الشهوات، وعلى المصابين ألا يلوموا إلا أنفسهم، ومن ثم يجب تجنبهم، فرأوا في تقديم يد العون إلى الضحايا إحباطاً لعمل الرب الذي شاء ابتلاء أجسادهم لإبراء أرواحهم، ورأوا في مساعدة الناس على التعريف بسبل الوقاية من المرض من خلال توعيتهم بالمعلومات الطبية اللازمة سكوّاً آثماً يحول دون إبراز مفاصد اتباع الشهوات، بل إن توعيتهم هي ضرب من ضروب حث الناس عليها، ومن هنا دأبت الكنيسة على معارضة سبل الوقاية من المرض، مثلما عارضت وسائل العلاج عند الإصابة به. والكنيسة إذ سلكت هذا السلوك كادت معارضتها تكون لونا من ألوان الرحمة والرأفة؛ لأن طرائق العلاج، التي قدمها الأطباء للمرضى، كانت أسوأ من المرض نفسه؛ إذ كانوا يكوون القروح بملاعق بيض ملتهبة، وكانوا يحثون المرضى على استنشاق بخار الزئبق السام، ونقّب الجمجمة "trepanning" بهدف التخفيف من الصداع القاتل الناجم عن المرض. وقد كان رد فعل الكنيسة إزاء وباء الإيدز في أمريكا المعاصرة صدى لرد فعل القرون الوسطى على الأمراض المرتبطة بالجنس، بينما وصفها زعماء اليمين الديني بأنها

* يُطلق عليها أيضًا «الترينة»، وهي عملية جراحية قاسية تتضمن عمل ثقب في جمجمة شخص حي، إما بالحفر وإما بالقطع أو بكشط طبقات من العظام بأداة حادة. (المترجم)

عقاب الله على فعل الناس الخباثت، وعدّوا تلك الخباثت "إيذاءً ذاتيًا مُتعمّدًا". ومن هذا المنطلق، ذهبوا إلى أن المصابين بالإيدز يستحقون الإدانة لا التعاطف! ففي العقدين الأولين الحاسمين من تاريخ تفشي الإيدز، قُوِّلت المعلومات والتدابير الرامية إلى منع انتشاره بشتى صنوف الاعتراض باعتبارها تحريضًا على الفجور.

وترتب على الاحتذاء بالأنماط القديمة حتمية تكرار النتائج القديمة؛ إذ أدى الغضب الأخلاقي إلى عرقلة حركة البحث العلمي الرامية إلى اكتشاف العلاجات الطبية وتقديم سبل المساعدة الملائمة، ومن ثم زيادة آثار المعاناة بين المصابين. ولو أردنا شرح الأمر في عبارة علمية صارمة لقلنا إن اليمين الديني في أمريكا مسؤول عن موت عشرات الآلاف بسبب الإصابة بالإيدز، وهي الحالات التي كانت قابلة للعلاج أو تخفيف أثرها أو إجهاضها تمامًا؛ إذ مارس اليمين الديني تأثيرًا حاسمًا في توجيه سياسات البيت الأبيض تحت قيادة الرئيس الأمريكي ريجان، وفي توجيه دفعة الدعم الشعبي لصالح نُظُم الرعاية الصحية في أمريكا.

جاءت هذه القصة مخيبة للآمال بكل المقاييس، مع أنها ليست جديدة علينا، لكنها برغم ذلك تُذكّرنا أن الأخلاق الكنسية المتزمّة هي أسوأ آفة قد تصيب الجنس البشري برمته.

لنذكر أن الخطيئة مرادفة لكلمة العصيان؛ فلو أمرك الرب بذبح ابنك (كما أمر الرب إبراهيم ذات مرة) ورفضت فستكون عاصيًا، أما لو امتثلت لأوامره فستدخل في عداد الصالحين.

يقتل الأصوليون -على اختلاف مشاربهم- كل من يعدُّونه كافرًا مرتدًّا، ويرون أنفسهم نموذجًا يُحتذى في الورع والصلاح؛ لأنهم يعدُّون أفعالهم طاعة مطلقة لمشیئة الرب، ومن المعروف أن الخطیئة البشریة الأولى كانت أم الخطایا وفق سفر التكوين بوصفها فعلًا من فعل عصیان الله؛ إذ أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة المحرمة فعصيا أمر ربهما، وعُوقبت البشریة منذ ذلك الحین بعقوبة العمل والموت. ویبدو أن المدارس اللاهوتیة لم تولِ عناية اهتمامها إلى دراسة خلفیات هذه الواقعة، فصرفت جل طاقتها إلى تسوین الخطیئة لا فهمها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

التوبة

”ليست التوبة ندمًا على الأذى الذي تسببنا فيه
بقدر ما هي خوف من الأذى الذي قد يلحق بنا“.

لاروشفوكو

في آخر سنة من القرن العشرين، أقر بابا الكنيسة الكاثوليكية على رؤوس الأشهاد بتوبة الكنيسة عما اقترفته من خطايا على مدار السنوات الألفين السابقة، مستشهدًا بـ “خيانة يهوذا” تمثيلًا لـ “انحراف الكنيسة عن رسالتها الأصلية”. من بين ما كان يدور بذهن البابا وقتها الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، وتعذيب المهترطين وحرقتهم، وممارسة التطهير العرقي والإبادة الجماعية، والتنصير القسري للهنود والأفارقة، وممارسة التمييز ضد المرأة، بما في ذلك استعبادها عن طريق إجبارها على الإنجاب مما أسفر عن تفاقم أوضاع الفقر والفاقة واعتلال صحة المواليد، ناهيك عن دور الكنيسة في الهولوكوست.

لم يُشر إلى ارتكاب كل تلك الجرائم على سبيل التصريح، بل التلميح؛ إذ استُبعدت على سبيل المثال مسألة الهولوكوست. وأما عن سبب ترك قائمة الاعترافات مطاطة غير واضحة المعالم فقد قال متحدث باسم الفاتيكان: ”نظرًا إلى فداحة ما ارتكبه الكنيسة

من خطايا على مدار عشرين قرنًا، يتحتم أن نوجز القول بعض الشيء“. تعني التوبة عمومًا رجوع الإنسان عن رأيه.

يتعلم طلاب تاريخ الفنون كيفية التعرف إلى ما يُطلق عليه التغييرات الخفية في عمل الرسام “pentimento”، أي التعديلات، التفاصيل الزائدة، المحو وعمليات الضبط والتسوية التي يمكن اكتشافها بشكل أكثر وضوحًا من خلال الأشعة السينية التي تميّط اللثام عن مراحل تطوّر رسم اللوحة، ومن ثم تسلط الضوء بطريقة غير مباشرة على نوايا الرسام. ولو كان الحال هكذا فما أحوجنا إلى فحص اعتذار البابا بالأشعة السينية لفهم مراحل تطوّره! قبل قرابة عشر سنوات من تقديم هذا الاعتذار الرسمي، أعاد رأس الكنيسة الكاثوليكية فتح الباب أمام فكرة تطهير ضمير الكنيسة، بيد أن الكنيسة الكاثوليكية، بطريقتها المتسمة بالحيطة والحذر، طلبت في البداية إعداد تقرير شامل يوضح سوابق هذا الإجراء وعواقبه، مثلما طلبت ضرورة تقييم حدود الاعتذار الممكنة.

بحسب الوثيقة الصادرة عن اللجنة اللاهوتية الدولية، ارتكبت كثير من هذه الخطايا “لأجل خدمة الحقيقة”، من بينها مثلًا مجزرة

* اصطلاح فني يُفصّد به التغيير الذي يجريه الفنان في أثناء رسم اللوحة ولا يوجد مثيله في نسخة مُقلّدة، والمفردة مشتقة من الكلمة الإيطالية «pentirsi» وتعني يتوب أو يرجع عن فعل، وهي تعني في هذا السياق «رجوع/عدول» الرسام عن صور أو أشكال أو ضربات فرشاة معينة. (المترجم)

الكاثار* وحرق الهراطقة، الذين حاق بهم خطر الانغماس في خطيئة التجديف لو لم يُرسلوا فوراً إلى المطهر ابتغاء مصلحتهم (علينا توضيح بعض الاصطلاحات هنا: الهرطقة تساوي الاختلاف مع الكنيسة، الحقيقة تساوي الخضوع لأوامر الكنيسة).

ولا بد أن سعي اللجنة اللاهوتية في العثور على سوابق تاريخية تعزز دعواها قد تُوج بالنجاح؛ إذ تبين أن البابا كان مدعوماً بالحظ الجيد، فالرب نفسه تحدث عن توبته (أي توبة الرب) كما نقرأ في سفر التكوين: «فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ» (سفر التكوين: 6:6)، أو مثلما نقرأ في صموئيل الأول 15 أن الرب ندم على تنصيب صموئيل ملكاً، أو في سفر الخروج 14:23 بعدما سمع كلمات موسى [النبي] الغاضبة، نقرأ أن الرب كان على وشك أن يصب جام غضبه على الشعب اليهودي الذي استكبر استكباراً**. بحسب دعاوى ما ورد في النصوص السابقة، كان ندم الرب التوراتي مشكلة مؤرقة بالنسبة إلى رجال اللاهوت؛ لأنه شكل تناقضاً محرّجاً بين كمال الرب في عليائه وبين ندمه المزعوم، ومن ثم فالكتابات الدفاعية حول هذه المسألة تحمل عناوين من قبيل «توبة الرب» (1 صمويل 15:35)، ولكنها تعود وتصحح الفهم المغلوط بأن هذا لا يعني أنه ارتكب غلطة أو خطأ

* حملة صليبية عسكرية دامت عشرين سنة للقضاء على بدعة الكاثار التي كانت تدعو إلى المسيحية الأولى المتمثلة في الزهد والوعظ، وكانت عقيدة مثوية تدعي وجود قوتين متصارعتين هما الخير والشر. (المترجم)

** الآية المقصودة هي: «فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ»، (سفر التكوين 6:6). (المترجم)

مثلما نقرأ في مزمو 110: 4 ، وإنما يعني معنى آخر رمزياً، وكان يتعين على اللجنة اللاهوتية أن تحذو الحذو السابق في اعتذارها البابوي، كأن تصوغ اعتذاراً حمّال أوجه تقول فيه: ”لقد أخطأنا، ومع ذلك لم نكن مخطئين“.

يقول المثل السائر العربي الجميل: ”الخطأ خير ألوان التوبة“، ويغلب في ظني أن الكنيسة الكاثوليكية في عصرها الذهبي وفي أوج ازدهارها لم تراودها ولو لثانية واحدة فكرة التوبة الجماعية أو التكفير الجمعي عن خطاياها طوال عشرين قرناً.

في محاضرة ألقاها الحاخام ديفيد بلومينتال أمام طائفة الروم الكاثوليك حول مفهوم ”التيشوفاه“ ”teshuva“ في اليهودية، ومعناه العودة إلى الله وإصلاح العالم من خلال التقوى، لاحظ أنه فضلاً عن اعتراف الإنسان بذنبه والندم عليه تنطوي التوبة على فكرة ”تعويض من ارتكبت بحقهم الإساءة“، وهو ما يفتح الباب أمام سؤال وجيه: هل ستعوض الكنيسة الكاثوليكية، التي ترفل في مظاهر الأبهة والترف، ضحاياها أو ورثتهم بعد اعترافها بما اقترفته في حقهم من جرائم؟

* المقصود هو آية المزمور: «أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ: أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الْأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلِكِي صَادَقَ». (المترجم)

** لا يوجد مثل سائر عربي بهذا المعنى حرفياً، ولعل المؤلف يقصد المعاني المنصوص عليها في الأحاديث النبوية الشريفة، ربما أقربها هنا حديث: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» (صحيح سنن الترمذي - الألباني، حديث: (2029). (المترجم)

ومع أن تعويض الضحايا ليس طقسًا مُعترفًا به داخل العقيدة الكاثوليكية، لكن كلام المصلح الديني ملانكتون "Melanchton" يشير إلى أن تعويضهم قابل لأن يحوز الاعتراف؛ إذ يصف التوبة بأنها مُؤَلَّفة من "الندم العميق"، أي مشاعر الخوف التي تُدَاخِل ضمير الإنسان عندما يعي خطيئته، وثانيًا الإيمان بالله، الذي هو منبع العمل الصالح وثمره التوبة الصادقة، وهذا السلوك قادر على امتحان صدق نوايا الاعتذار أو الإقرار بالذنب في حق الضحايا. وما نحن في انتظار كلام الكنيسة بفارغ الصبر.

في بعض الأحيان، يكون تعويض الضحايا ضرورة لا غنى عنها على اعتبار أن الاعتذار وحده ليس كافيًا؛ ففي ظروف بعينها، يمكن للاعتذار أن يساعد الضحايا (على الأقل في كونه اعترافًا صريحًا بمعاناتهم) في إعطائهم شعورًا يسيرًا بالقصاص، "من عاقب نفسه تاب عن ذنبه" على حد تعبير بوبليليوس سيروس.

ومع ذلك فالتعويض لا يُصلح الأضرار الواقعة، ولا يرد كيد مظالم التاريخ في نحرها؛ فعندما يُقدَّم الاعتذار بعد فوات الأوان، أو لأنه صار ضرورة لا مفر منها، يمسي مفرغًا من أي قيمة، ويا حبذا لو أنه لم يُقدَّم من الأساس.

يذهب مارك توين إلى أننا نفكر دومًا في التوبة إلى الله والإنابة إليه كفعل مرتبط بخطايانا وسيئات أعمالنا، ولا نستشعر التوبة إلى الله أو الرجوع إليه عندما نفكر في أعمالنا الصالحة. واقع الأمر

* فيليب ملانكتون: لاهوتي ألماني ومصلح ديني، كان صديقًا لمارتن لوتر.
(المترجم)

أننا عندما نتوب إلى الله من ذنوبنا تتسم توبتنا بالبرودة والابتذال والعجلة، أما عندما نتوب إلى الله ونحن نستحضر أعمالنا الصالحة فستغدو توبتنا مُفَعِّمة بالحرارة ومرارة الندم الفائرة من أعماق القلب، فتصير توبة محتفورة لا يمحوها النسيان.

كتب مارك توين: "لو أنك تبت إلى ربك بالعفو عن ناكر المعروف عفواً صادراً من صميم قلبك، وبعزيمة صادقة وحماسة لا تفتر، فإنك من المحسنين الصادقين، أما التوبة عن الذنوب وحدها فهي سلوك باهت، سقيم، زائل مقارنة بخير الإحسان إلي الجاحدين"، ثم يتابع قائلاً: "على مدار حياتي، اقترفت ذنوباً أجل من أن تُحصى، ربما أكون قد تبت عن كثير منها ... لم أعد أتذكر الآن، وكانت تراودني بين الفينة والأخرى الرغبة في التوبة عنها، لكنني وجدت أن الأمر برمته لا يستحق العناء، لقد نسيت كل سيئاتي تقريباً، اللهم إلا نذراً يسيراً هنا وهناك. لم أعمل طيلة حياتي إلا أحد عشر عملاً صالحاً، لم أنسَ أيّاً منها، أربعة منها منقوشة في عمق في ذاكرتي، وهذه الأعمال الصالحة هي التي أتوب بها إلى ربي كلما استحضرتها، وأنا أداوم على استحضارها، قرابة اثنتين وخمسين مرة في السنة، وعندما أتوجه إلى الله بالتوبة بها فإنني أتوب بالطريقة الأصلية القديمة الممتلئة بالغضب على نفسي. ولو استيقظت في منتصف الليل فسرعان ما أجد أعمالِي الصالحة بين يدي وفي انتظاري، لتشملني بحسن الصحبة حتى بزوغ النهار. وما دامت روحي ممتلئة بمشاعر الجدية والنزاهة التي تبت بها إلى الله، متوسلاً بهذه الأعمال الخيرة الصالحة، فلا أراني قد ارتكبت ذنوباً البتة".

الإيمان

”الإيمان كالثعلب يجد غذائه بين القبور،
ومن الشكوك الميتة يستجمع أشد آماله حيوية ونضرة“.

هيرمان ميلفل - موبى ديك

يشعر بعض المتدينين بالحصار والمرارة عندما تكون معتقدهم مثار تشكيك أو رفض إلى درجة أنهم لا يتورعون عن الإقدام على القتل، أو حتى ارتكاب المجازر الجماعية، وهو ما يحدث عادة عندما يمتزج التعصب الديني بالحنق على الأوضاع والجهل، فيُفِرز التعصب في المحصلة الأخيرة خليطاً من الحقد والكراهية، سرعان ما يتفجر باسم المعتقد الديني.

ثمة مثل سائر يقول: ”الإيمان هو ما أموت من أجله، أما الدوجما “Dogma” فهي ما أقتل من أجله“. لكن المشكلة أن الإيمان مبني على الدوجما.

الغريب أن التجارب التي يجريها العلماء في المعامل، والتحقيقات التي يجريها القضاة في المحاكم تتوخى الحذر

* آثرت تعريب المصطلح إلى «دوجما» لشيوعه في الخطاب الفلسفي المعاصر. والدوجما هو «المعتقد/المذهب»، وهو لفظ مرادف للقوالب الفكرية الجامدة، وأفضل تعريف لكلمة دوجما هو ما قاله الفيلسوف كانط: «الدوجما هي الاعتقاد الزائف في قدرة الإنسان على امتلاك الحقيقة المطلقة». (المترجم)

والحرص في استخلاص النتائج، وتُظهر المرونة والانفتاح لو ظهرت أدلة تدحض ما وصل إليه العلم مستقبلاً، بينما نرى العقائد الجامدة على الصعيد المقابل تدّعي أنها غير قابلة للمساس أو الدحض أو التعديل. استطاعت الإجراءات العلمية المتسمة بالتأني والانفتاح أن تحرز إنجازات علمية تمثلت في ابتكار الضوء الكهربائي، والمضادات الحيوية، والتدفئة المركزية، والرؤية عن بعد، وأجهزة الكمبيوتر وخلافه. ومع إساءة استغلال العلم في أحيان كثيرة -على نحو ما رأينا في القنابل وغرف الغاز- لكن الذنب كله مُعلّق في رقبة السياسة والساسة وحدهم، وليس العلم والعلماء. أما القوالب الجامدة من المعتقدات فمهما فعلت من تسكين روع الخائفين من الظلام فهي لم تجلب معها إلا الحروب والتعصب ومظاهر الاضطهاد وتشويه الطبيعة البشرية إلى أشكال زائفة ومصطنعة!

يحاول بعض الناس التخفيف من الجرائم التي ارتكبت باسم العقائد في تاريخ البشرية أو حتى تبريرها من خلال التركيز على منجزات الفن والموسيقى، لكن الإجابة عن ذلك القول بأن الأساطير الإغريقية والمعتقدات العلمانية أنجزت الشيء نفسه، دون حرق المخالفين كما فعلت المسيحية.

الإيمان المتطرف يُغَيِّب العقل. والعقل هو قدرة المرء على تقسيم الحكم إلى أدلة وبراهين بعد وزنها بميزان من ذهب أولاً. أما الإيمان المتسامح فهو إبداء التفهم حتى في مواجهة الأدلة المخالفة. يُعرّف سورين كيركجارد الإيمان بأنه وثبة مفاجأة في الفراغ يُقدّم عليها الإنسان برغم كل شيء، حتى لو كان الإيمان المطلوب

منه بعيدًا عن التصديق؛ فلو أصر الناس على اعتقادهم بأن الأسود أبيض، ولو حصَّهم غلو معتقدهم على إطلاق النار عليك لأنك لا تشاطرهم الرأي، فهنا تنتفي كل مساحة للنقاش الحر.

في كتابه ”نبي خراسان المُقنَّع“، يقول توماس مور ”Thomas Moore“: ”حينما يقترن الإيمان، أقصد الإيمان المتطرف، بالباطل، يظل معانقًا إياه حتى النهاية“.

في أحد فروع الفلسفة، مبحث علمي يُسمَّى ”الإبستمولوجيا“ أو ”نظرية المعرفة“، وتعريفه أنه ”الاعتقاد الحقيقي القائم على أساس مُبرَّر في الوقت ذاته“. وتصف إحدى نظريات هذا المبحث العلمي الرئيسية المعرفة بأنها العلاقة بين الحالة الذهنية للإنسان والحقيقة، الحالة الذهنية ما هي إلا حكم اتُّخذ بقدر من المسؤولية، أما الحقيقة فهي (لو شئنا أن نضرب مثالًا) إعادة ترتيب العالم، وعندما يكون الحكم صحيحًا يغدو ترتيب العالم صحيحًا أيضًا. يكمن الاختلاف بين الإيمان والمعرفة في أن الأخيرة محكومة بالحقائق، ومُؤسَّسة على العلاقة الصحيحة بين العقل والعالم، بينما الأول (أي الإيمان) موجود في الذهن فقط، وغير متعلق بأي شيء في العالم. قصارى القول: في وسع المرء الإيمان بأي شيء، كالإيمان بأن الخنازير تطير، وأن العشب أزرق، وأن غير المؤمنين أشرار، ولعل هذا هو ما يجعل ملاحظة القديس أوغسطين أن ”مناط الإيمان هو أن تؤمن بما لا تراه، وأن ثواب الإيمان هو أن ترى ما تؤمن به“ – بالفعل – ملاحظة شريرة؛ لأنه لو كان بإمكان المرء الإيمان بأي شيء فسيكون بمقدوره أن يحيط بكل شيء، ومن ثم سيشعر بالحق في

أن يفعل أي شيء انطلاقًا من إحاطته بكل شيء، كأن يعيش متمتعًا
بسلطات بطريك من العهد القديم، وهو أمر سخيف، أو أن يقتل
إنسانًا آخر، وهو فعل حقير.

ولا بد أن قرأ العهد القديم (حتى القراء العابرين منهم) قد
ملكهم الذهول من الصورة التي رُسم فيها الرب التوراتي على هيئة
رب متمر طاغية، ولشد ما يلفت نظرنا تناقض هذه الصورة مع صورة
الرب في العهد الجديد، لكن يجهل القراء أن بعض نصوص العهدين
القديم والجديد قد نالهما التحريف التاريخي بكل تأكيد، ولنتأمل
مثلًا سفر التثنية الذي عثر عليه العمّال بضربة حظ مباغته عند عودة
اليهود من سبي بابل وهم يجددون بناء الهيكل، وليس من شك أن
هذه الرواية عززت جانبًا واحدًا من جوانب حجة اليهود، غالبًا ما كان
يهوه [الرب التوراتي] يظهر بهذه الطريقة مرسومًا بطريقة تُظهر أنه
غير قادر على مقاومة السياسة، وأنه منحاز دومًا إلى الجانب المنتصر.

ولنا في مسألة ألوهية المسيح مثال آخر؛ إذ يظهر المسيح في
إنجيل مرقس بشرًا مثل الناس عاديًا لا أكثر، وفي لاهوت القديس
بولس يظهر باعتباره إله العهد الجديد، أما في القرن الرابع الميلادي،
وبعد موجة الجدل التي احتدمت حول الهرطقة الأريوسية (إذ جادل
أريوس الإسكندري لينفي ألوهية المسيح)، أقول بعد النقاشات
الصاخبة، استقر الرأي على أن الله تجسّد في هيئة المسيح.

قدمت كارين أرمسترونج "Karen Armstrong" حجة مثيرة
للاهتمام في ما يتعلق بظهور الإسلام؛ إذ ذهبت إلى أن ظهور الإسلام
اقترن بشعور الرجل العربي بالدونية أمام الأمم الأخرى، فقالت إن

العرب شعرت بمزيج من مشاعر الاستياء والاحترام إزاء اليهود والمسيحيين لأنهم تمتعوا بميزة بالتواصل المباشر مع الله*. وقد كان الموحدون الأوائل من أمثال زيد بن عمرو يتحرقون شوقاً إلى أن تتلقى أمتهم الوحي الإلهي مثلهم كمثّل الأمم السابقة، واستمر الأمر حتى وصلنا إلى تجربة النبي محمد بن عبد الله [ص] لما اعتكف في جبل حراء على أطراف مكة، فهبط عليه الملاك جبريل (عليه السلام) وأمره بكلمة "اقرأ" "Recite"، وكانت ثمرة نزول الوحي المتكررة على مدار العقدین التاليين هي نزول القرآن "Recitation" (الذي يعني التلاوة والقراءة)، وهو النص الذي اشتهر بعذوبة لغته الفائقة التي كانت أداة مؤثرة في اعتناق العرب الإسلام. ولكن -وكما هو الحال مع المسيحية- دبّت الانقسامات، واستحكمت الخلافات، وما لبثت أن اختفت قيم التسامح الإسلامية التي سادت في الإسلام المبكر تجاه الأديان الأخرى، واختفت الحريات المبكرة التي تمتعت بها النساء، ومرة أخرى -وكما هو الحال مع المسيحية أيضاً- ترسخ الإرث الطويل من فظائع التعصب والاضطهاد المُميّزة لكل العقائد المنظمة! مكتبة سر من قرأ

* ينقل المؤلف وجهة نظر غربية، ولعل في ما ذكره المؤلف في هذا الموضع تبعة من تبعات ما ورد في التراث الإسلامي من كتب السيرة والتفسير من كون يهود المدينة قد بشروا بمجيء النبي محمد صلى الله عليه وسلم. (المترجم)

** المقصود هو زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، أشهر الموحدين في الجاهلية ووالد الصحابي الجليل سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان حنيفياً موحداً. (المترجم)

يبدو "مفهوم الإله" وفق التصورات البشرية مسألة مشوشة، ويبدو أنها فكرة من اختراع البشر أنفسهم؛ لأن البشر كائنات روحية، والأمور الروحانية فقط هي بيت القصيد عندي.

من الناس من يجادل عن كون الفن والشعور هما الضالة المنشودة القادرة على سد الرمق الروحي لدى الإنسان، وبدلاً من البحث عن تعريفات جديدة لفكرة الألوهية، أو التماس "ديانات العصر الجديد"، فمن الأفضل أن نستغني عن الأنظمة اللاهوتية، وأن نعقد آمالنا في أفضل ما في البشر بدلاً من الانخراط في الجدالات اللاهوتية. ولو رغبتنا في استيضاح الأسباب، فخير مثال هو أوربان جراندييه "Urbain Grandier"، الرجل الذي ارتكب خطأ فادحاً في فترة مبكرة، وتحديداً في سنة 1618.

لم تكن نباهة جراندييه ولا فطنته ولا أساليبه الدنيوية ولا ما تورط فيه من فضائح عاطفية أسباباً في سقوطه برغم نشاطه السياسي في بقعة ملتبهة في فرنسا عُرِفَتْ بتوتر العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والهجونوت والبروتستانت، لكننا نود الإشارة هنا إلى أن ذكائه كان من النوع الطافح بالسخرية اللاذعة؛ فعندما صوّب الكاهن سهام سخريته في تلك السنة إلى أحد الوزراء (واسمه أرماند جان دو بليسييس)، لم يكن جراندييه يعرف مبلغ نفوذ الأخير، ولا إلى أي حد سيُضْمِرُ أرماند تلك السخرية في دخيلة نفسه؛ فبعد ما دار بينهما، صار الأخير هو الكاردينال ريشيليو، رئيس الوزراء المقرب من الملك لويس الثالث عشر.

بعد انقضاء اثنتي عشرة سنة من تلك الواقعة، اتهمت راهبات دير أورسولين في بلدية لودون السيدَ جراندييه، الذي كان يعمل كاهن أبرشية "St-Pierre du Marche"، باستحضار الأرواح الشريرة والشياطين، وقد نَمى إلى علم الراهبات أن جراندييه (الذي كان رجلاً ممشوق القوام، وسيم الهيئة، وخطيباً مفوهًا) مرتبط بعلاقة آثمة مع "مادلين دي براو"، وهي السيدة التي أهدى إليها مقالاً يبيح زواج الكهنة من الناحية اللاهوتية. وبعد أن وقعت الراهبات في سحر الكاهن نفسيًا، ذهبت بهن الظنون إلى أنه مسَّهن بسحر شيطاني حقيقي.

وفي أعقاب تفشي وباء الطاعون في سنة 1630، ضربت الدير حالةُ فزع هيستيرية. بدأت الشكوك تحوم بقوة حول الكاهن جراندييه، ثم ما لبثت أن تحولت الشكوك إلى اتهامات باستدعائه لأرواح شريرة كي تمس بسحرها الشيطاني لا كبيرة الراهبات فقط (جان دي أنجيس)، بل معظم الراهبات الأخريات. وهي الواقعة التي انتهت في خاتمة المطاف إلى ما عُرف في السينما والروايات باسم "قضية المس الشيطاني في بلدة لودون". وبعدما ضربت نوبة المس أطنائها في الدير، فُتح تحقيق رسمي، لكن شكوك رجال الدين الموجودين داخل الدير ورفض أسقف بواتيه ورئيس أساقفة بوردو تصديق مسألة المس الشيطاني أنهت النقاش في تلك المسألة.

في أعقاب ذلك، وضمن إطار سياسة عامة استهدفت هدم حصون المقاطعات الفرنسية، أرسل الوزير "ريشيليو" وكيله "لاو بارديمونت" إلى بلدية لودون للإشراف على دك تلك الحصون. لم تصادف تلك السياسة قبولاً شعبياً في بلدية لودون مثلها مثل أي مكان آخر؛ لأنه من خلال حرمان المدن الإقليمية من تحصيناتها

الدفاعية ستصير غنيمة باردة لجيوش المرتزقة، ومن ثم سلبها ونهبها، ولذا قُوِّلت عملية هدم التحصينات بمقاومة عنيفة قادها "أوربان جراندييه". سرعان ما أبلغ المبعوث "لوبارديمونت" الوزير "ريشيليو" بالأمر، فاقتنص الفرصة السانحة لإصابة عصفورين بحجر واحد، أي إزالة التحصينات وتصفية حسابه القديم مع غريمه جراندييه، فأصدر تعليماته إلى "لوبارديمونت" بإعادة فتح التحقيق في قضية المس الشيطاني في الدير، فصارت الأوضاع على فوهة بركان من الغضب.

أبدى ثلاثة من طاردي الأرواح الشريرة، الأول كاهن من طائفة الكابوتشين^{*}، والثاني فرنسيسكاني، والثالث يسوعي، أبدوا استعدادهم للعمل مع راهبات لودون لطرد الأرواح الشريرة؛ إذ نهض الكهنة الثلاثة بمهمة استجواب الشياطين باللاتينية والعبرية. وعقب الاستجواب، استولت على أجساد راهبات الدير سلسلة من حركات الانثناء والالتواء والعروض الفاحشة، وبدأن يتلفظن بالألفاظ الخارجة، مما أدى إلى تفجّر الأوضاع في فرنسا كلها. طلب الكهنة من الشيطان الكشف عن اسم من استدعى الأرواح الشريرة لتتلبس أجساد الراهبات، فقالت الراهبات في صوت واحد: "أورباين جراندييه"!

عُقدت الإجراءات على رؤوس الأشهاد، وشهد ما يقرب من سبعة آلاف شخص في وقت واحد استعراضاً بالفواحش التي ارتكبتها

* تجدر الإشارة إلى أن اسم مشروب «الكابوتشينو» مستلهم في الأصل من لون ملابس رهبان وراهبات الكابوتشين المعروفين في القرن السابع عشر؛ إذ كانوا يرتدون جلابيب لونها مميز ويميل إلى البني المحمر. (المترجم)

راهبات الدير وهن تحت تأثير المس الشيطاني، الأدهى أن الكاهن اليسوعي، طارد الأرواح الشريرة، قد صار ممسوسًا هو الآخر، بينما أصبحت الراهبة جان دي أنجيس شخصية وطنية ملء السمع والبصر بعد تعافيتها من هذه المحنة، فجابت آفاق فرنسا للحديث عن مغامراتها. كان الدليل الرئيسي على ثبوت إدانة أوربان جراندييه هو العقد الذي وقَّعه مع الشيطان وأعوانه ”أستوروث، وبعلزبول، وليفيathan“؛ إذ وقَّع الشياطين الأعوان على وثيقة التحالف بخط مزهر جذاب.

وبهذا الدليل القاطع، صارت قضية جراندييه ميؤوسًا منها، وقد خُنِقَ صغار المجرمين المشاركين معه قبل حرقه حيًّا على التود، أما هو فقد عُدِّبَ أشدَّ العذاب بأداة اسمها ”الحذاء“، وهي أداة غريبة صُمِّمَت لسحق أقدام المسجونين وأطرافهم السفلى قبل إضرام النار فيهم.

خاف طاردو الأرواح الشريرة من أن تواجههم الشياطين الساكنة في جسد جراندييه بمقاومة أشدَّ بأسًا، فاستخدموا المطارق الحديد بأنفسهم لسحق عظامه، بعدها سُحِبَ الرجل على وجهه من غرفة التعذيب إلى التود، حتى أن دمائه النازفة (بحسب شهادة الشهود) وعصارة النخاع المتدفقة من ساقيه تركت آثارًا فوق الحصباء، إلى درجة أن بعض الراهبات أشفقن على حاله وحاولن التراجع عن كلامهن، وكان هذا دليلًا أقوى عند طاردي الأرواح الشريرة أن الشياطين لم تغادر أجسادهن بعد.

والحقيقة أن قراءة المصير البشع للكاهن أوربان جراندييه تعني أن نقرأ حرفاً بحرف القصة الطافحة بالسواد والمرارة للمكائد السياسية، والأحقاد، وازدواجية المعايير الأخلاقية، وسرعة تصديق الخرافات، والمعاناة الإنسانية، والجنون البشري، وللأسف ما حدث للرجل أمر شائع الحدوث في تاريخ الحماقة الإنسانية والجرائم الدينية على حد سواء. إن مصير جراندييه هو مصير رجل ضاع تحت عجلة التحالف الذي تديره الخرافات الكنسية والخبث البشري، وهو تحالف فطري وموغل في القدم.

وحتى لو افترضنا بقاء غريزة الحقد البشري معنا أبداً الدهر، فهل في مقدورنا أن نطرح سؤالاً عن النصف الثاني من المعادلة، أعني: هل تستحق الخرافات الكنسية أن يكون لها موضع قدم في المنظومة الفكرية للعالم الحديث؟

والحق أننا لو تأملنا تاريخ المعرفة الإنسانية لوجدنا أن الأمر على خلاف ذلك؛ فالمعتقدات الدينية الخرافية – على نحو ما رأينا آنفاً – إنما هي إرث أسلافنا من سكان الكهوف الذين شكلت المعتقدات الخرافية معارفهم، وشكلت الشعائر الدينية تقنياتهم العليا؛ ففي أول الأمر، قدمت لهم تلك المعتقدات تفسيرات للرياح والعواصف وأصل العالم والغرض من خلق النجوم، وفي آخر الأمر، قدمت لهم وسيلة تُجَنِّبُهُم الجفاف، وتداوي أسقامهم، وتساعدهم على إحراز النصر في الحروب، وتحديدًا عبر إقامة الشعائر الدينية، وتقديم القرابين ومراعاة الطقوس، واجتناب المحرمات، وكل ذلك ابتغاء غاية واحدة فقط، ألا وهي استرضاء القوى الغامضة، المتمسمة بالجبروت في أحيان كثيرة، والتي كانت في نظرهم تحكم العالم.

ومع تقدّم المعرفة الحقيقية وإحكام السيطرة على ما حولنا،
تتقلص الحاجة إلى استدعاء قوى خارقة لتفسير هذا العالم تقلصًا
نرى معه توارى أرباب العالم القديم لتسكن الأماكن المظلمة في
آفاق المعرفة الإنسانية، ونرى معه انطفاء ضوئها كلما سطع نور
العلم.

ومع ذلك لا يتوقف سدنة جهل العصور السحيقة (ممن يدعون
امتلاك السلطة) عن حثنا بقصد تقييد سلوكنا بشتى الوسائل، تتخذ
بعض هذه الوسائل هيئة قيود غريبة الأطوار (كالامتناع عن تناول
اللحوم يوم الجمعة)؛ وبعضها الآخر مدمر لسعادتنا (كإجهاض
التعبير عن عواطفنا الطبيعية).

ربما يكون الصراع الأشد لفناً للأنظار في خضم هذه المعركة
بين الجهل القديم والمعرفة الحديثة هو تصارع الروايات المتنافسة
حول أصل الكون وطبيعته؛ إذ تقدم كل ديانة من ديانات العالم
الجديدة نسختها الخاصة من قصة نشأة الكون، إذ استطاعت قوة
عليها خارقة إنشاء العالم من العدم، وكانت مهمة استغرقت بين لحظة
وأُسبوع تقريبًا، لكن ديانات قليلة قدمت رواية تفصيلية حول أصل
هذه القوة العليا، التي يلفها الغموض التام. وبينما تعدُّ معظم الأديان
قصة الخلق حقيقة إيمانية مطلقة، يقدم العلم الحديث فرضيات
تذهب إلى النشوء التطوري للقوى الفيزيائية. وهنا أقول "فرضيات"،
وخذ في حسابك أنها فرضيات مبنية على براهين وجيهة، خضعت

* تؤمن بعض الطوائف المسيحية بضرورة الامتناع عن أكل اللحوم يوم الجمعة؛ لأن
المسيح ضحّى بجسده لأجل البشرية في هذا اليوم وفق اعتقادهم. (المترجم)

للفحص مرات عدة، ورأينا التطبيقات العملية لتلك النظريات (الأطروحات) بنجاح في شتى مناحي الحياة اليومية، مثلما تراها متجسدة مثلاً في المصباح الذي تقرأ على ضوءه هذه الكلمات، وجهاز الكمبيوتر الذي تشتغل عليه، والطائرة التي تسافر بها.

إن أعظم مزية للفرضيات العلمية الدقيقة المتأنية (التي لا يمتنع تقويضها بكل سهولة حال ظهور أدلة أدمغ) هي كونها لا تستخدم أي مواد ولا تتوسل بظنون وتكهنات تتجاوز تلك التي يوفرها العالم المادي نفسه. ربما يظن المرء أن العلم قد قضى على الخرافات القديمة؛ ففي القرن التاسع عشر، دارت حرب ضروس حول تلك المسألة في ما يتعلق بالعقيدة المسيحية، بسبب ما تتسم به المسيحية من تاريخ شائك، بيد أن الإرساليات التبشيرية الدينية، (لا إلى دول إفريقيا والشرق الأقصى وحسب، بل إلى الأحياء العشوائية في لندن ونيويورك)، التي وضعت نصب أعينها تبشير الجهلاء والأميين ممن لم يسمعوا العلم قط، أقول أنقذت هذه البعثات التبشيرية دور الكنائس من الاندثار، ومهّدت الطريق لتأسيس طائفة كبيرة من التيارات الأصولية المتطرفة بين الشعوب التي استعمرتها القوى الأوروبية في يوم من الأيام.

كثيراً ما يتحدث حماة العقائد عن قيم الجمال والخير والشخصية المستقلة والتجربة الذاتية، وهي القيم الأشد أهمية في ظني، بيد أنهم في الوقت ذاته يرتكبون خطأ مألوفاً (وغالباً ما يكون خطأ مقصوداً) عندما يخلطون بين هذه القيم السامية النبيلة المتعلقة بأفق التجربة الإنسانية الفسيح وبين الظواهر الخارقة للطبيعة؛ فإحساس الفطرة الإنسانية بالجمال وكرم الأخلاق، وقدرتنا على منح الحب، وشحن

طاقتنا الإبداعية، وأفضل الخصال الإنسانية فينا، هي ملك لنا جميعًا، ملك للتجربة الإنسانية برمتها في العالم الحقيقي. وهي غير محتاجة إلى ارتباط بقوى مفارقة من أي نوع؛ إنها مملوكة لنا بالمقدار نفسه لما تعارضه تلك القيم من الشر والغباء والجشع والقسوة.

لماذا لا يقول المدافعون عن العقائد إن الأشياء السيئة تنبع دومًا من العقائد البالية، والأشياء الأفضل تنبع من الإنسان، وليس العكس، كما يزعمون دائمًا؟

المعجزات

”يتحدث الناس عن معجزات الكتاب المقدس لأن حياتهم خالية من المعجزات ... توقّف عن قضم القشرة الصلبة؛ ففوق رأسك ثمرة ناضجة“.

نورو

عندما نتطرق إلى الحديث عن المعجزات فأشد ما يبعث على البهجة هو كونها لا تحتاج إلى تأييد بالبراهين أو الأدلة العقلية؛ ذلك لأنها تؤدي دورها على خير وجه بلا أدلة ولا براهين، ولنا في كلام مارك توين خير مثال على ذلك، عندما ذكر أن أستاذًا جامعيًا مشهورًا قد سُئل عن صحة التقارير التي تلقّاها مؤخرًا (وكان ذلك في عام 1909)، وكانت التقارير تزعم أن د. فريدريك كوك اكتشف القطب الشمالي، فأجاب البروفيسور: ”الإجابة بنعم أو لا مرهونة بالرد عن هذا السؤال: هل يزعم الناس أن إنجاز د. كوك حقيقة أم معجزة؟ فلو كانت معجزة فأي نوع من الأدلة قادر على إثبات الأمر؟ أما لو كانت حقيقة فإقامة الدليل ضرورة“، فقال السائل: ”هل هذا قانون واجب؟“ فردّ البروفيسور: ”بالقطع، لا يجوز إدخال التعديلات عليه“.

في سياق آخر يتصل بهذا الموضوع، أستشهد بخبر من صحيفة "وِستمَنستر جازيت" يشير إلى أن لاعب الجولف عندما يسجل رقمًا قياسيًّا فعلية الحصول على توقيع شخص آخر على بطاقته ليكون شاهدًا، وأنه في حالة د. كوك لم يكن ثمة أحد لِيُوقَّع على بطاقته؛ إذ لم يصحب د. كوك إلا فردين من الإسكيمو ليشهدا على صحة اكتشافه، لكنهما كانا يحملان متاعه، ولذا فطبقًا لقوانين لعبة الجولف لن تُقبَل شهادتهما. ها نحن أولاء أمام لب المسألة؛ فلو قَدِّم اكتشاف د. كوك بوصفه حقيقة فستكون شهادة عاملي الإسكيمو غير كافية، وإذا قَدِّمَت كمعجزة فشهادة فرد واحد فقط كافية!

تُوصَف المعجزات بأنها تعطيل سُنن الطبيعة تعطيلًا خارقًا، ويذهب المؤمنون إلى أن هذه المعجزات ليست تعطيلًا لسُنن الطبيعة وقوانينها، وإنما تبدو كذلك أمام الجاهلين فقط. أيًّا ما كان الأمر فالمعجزات أمور لا يُقاس عليها البتة، ومن الواضح أن مفهوم المعجزة ذو منفعة كبيرة؛ لأنه يشكل ركيزة يمكن الاتكاء عليها لتفسير أي شيء مهما كان، وهذا مكن الضعف في المعجزة. أشار ديفيد هيوم "David Hume" إلى أنه عندما يضع المرء الأدلة الداعمة للعمل المنتظم لسُنن الطبيعة وقوانينها في كفة، والأدلة المؤيدة لخرقها في الكفة المقابلة، فسترجح الكفة الأولى إلى حد أنها ستُبطل عمل الثانية، مضيئًا (أي د. هيوم) إلى احتمال أن يكون الشخص، الذي زعم رؤية معجزة، مخطئًا أو مخدوعًا أو كاذبًا هو الاحتمال الأقرب إلى الصحة من احتمال تعطيل قوانين الطبيعة بصفة مؤقتة لتحقيق أغراض مقصورة على مكان محددة.

لتعريف المعجزة معنى آخر أفضل، وهو معنى عامي شائع، يشير إلى ما هو رائع في الطبيعة وفي الطبيعة البشرية عندما تكون في أفضل حالاتها، ولا حاجة إلى قوى خارقة لتفسيرها، والإيمان الوحيد المطلوب هنا هو الإيمان بقدرة العالم على فعل الخير، وهذه القدرة في كثافة تنوعها وسعة مداها إنما هي معجزة في حد ذاتها.

التنبؤ بالغيب

”ادرس النبوءات عندما تصير تاريخاً“.

سير توماس براون

يبدو أن النبوءة الثالثة التي أفضت بها القديسة فاتيما، تلك التي بقيت تفاصيلها طي الكتمان حتى عهد قريب، يبدو أنها كانت متعلقة بمحاولة اغتيال البابا في عام 1981. يظل اختيار السماء لما تُنبئنا إليه لغزاً يلفه الغموض؛ فمنذ نبوءة القديسة فاتيما، لم تعلن المشيئة الإلهية عن وقوع وشيك لحوادث المجاعات والإبادة الجماعية والزلازل والأوبئة، بينما أعلن عن محاولة الاغتيال!

وفق الكاردينال الذي يشغل منصب وزير خارجية الفاتيكان، سيُنشر النص الكامل للنبوءة بعد إعادة صوغه في صيغة ملائمة، وذلك في وصف لم يستحِ الكاردينال من قوله، وغير مُستبعد أن

* القديسة فاتيما لقب كاثوليكي للسيدة العذراء مريم عليها السلام، أما هذه النبوءة الثالثة فتعود قصتها إلى سنة 1917؛ إذ زعم الأخوان البرتغاليان فرانسيسكو وجاسيتا مارتو وابنة عمهما لوسيا أن العذراء مريم ظهرت لهما، وأبلغتهما بثلاثة أسرار: الأول والثاني متعلقان بتنبؤ بنهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية، وصعود الدولة السوفيتية وسقوطها، أما الثالث فقد ظل سرّاً إلى سنة 2000، عندما كشف الفاتيكان عن كون النبوءة متعلقة بمحاولة اغتيال القديس يوحنا بولس الثاني التي وقعت في 13 مايو 1981. (المترجم)

تُشرَح (في هذا الصوغ الجديد) أهمية هذا الحدث؛ ليكون موضع نبوءة.

ومع ذلك فرسائل التنبؤ في العقيدة المسيحية، منذ عهد القديس يوحنا (سفر الرؤيا عمل صعب التتبع)، هي رسائل باعثة على الهدوء والراحة قياسًا برسائل العقائد الأخرى التي يبدو أنها تشجع بالدرجة الأولى على قتل الهراطقة (وأقصد المختلفين مع قادة الدين المعنيين).

تُعَرِّفنا الأنباء الدالة على تحقُّق نبوءة القديسة فاتيما قبل عقدين من الزمان أن الفاتيكان كان على دراية جيدة بملاحظة توماس براون التي صدَّرنَا بها هذا الفصل؛ فالنبوءات تلقى مزيدًا من القبول عند الناس عندما تكون لرؤاها المستقبلية جذور ضاربة في الماضي، بحيث تساعدنا تلك الجذور على تفسير ما يقع من حوادث تفسيرًا تاريخيًا مقبولًا، كما هو الحال مثلًا في اختبار بقع جبر روشاخ؛ فالماضي سخي اليد وهو يفسر لنا المستقبل.

أما لو صيغَت النبوءات صياغة مغرقة في الغموض على نحو ما نرى في "نبوءات نوستراداموس" مثلًا، فستكون هذه هي الغاية المنشودة؛ إذ ستسمح هذه الصياغة المُبْهِمَة بتحقُّق النبوءات كافة، أيًا كان نوعها!

في زمن الكتاب المقدس، ولفترة طويلة من الزمن، كانت النبوءة تعني تفسير الإرادة الإلهية، وكان النبي معلمًا أخلاقيًا ومُنْبِئًا بالغيب،

* اختبار نفسي يستخدمه علماء النفس لفحص خصائص الشخصية وأدائها الانفعالي عن طريق بقع الحبر. (المترجم)

كما كان لكل عقيدة وتقليد ديني عرافون، وكذا في الميثولوجيا الإغريقية، وبسبب رفض كاساندرًا لُحِب الإله أبولو، صَبَّ عليها الأخير لعنة تمثلت في عدم تصديق أحد لتحذيراتها المُتنبَّئة بعد ذلك، بينما اشتهر تيريسياس* العراف الأعمى بحدة بصيرته وتفوقه على جميع المبصرين. على مدار التاريخ، لم يعانِ العرافون من البطالة قط نتيجة إيمان البشر بالخرافات من ناحية، وخشيتهم من تقلبات الحياة من ناحية أخرى، وهو ما جعل مهنة العرافة سلعة لا تبور. وقد أدانت الكنيسة العرافين بوصفهم أولياء الشيطان، انطلاقًا من مبدأ أن أي محاولة للتكهن بأحداث المستقبل هو خطيئة مُؤثَّمة، والطريف أن قرار الكنيسة انسحب على النبوءات غير المُرخَّصة منها فقط بطبيعة الحال، وهو ما يدلنا على استراتيجية السوق التي تبنتها الكنيسة لضرب المنافسين، فالنبوءة (بمعنى التكهن بأحداث المستقبل) لا تكون ذات معنى إلا إذا كانت نظرية الحتمية** فرضية صحيحة، أي إذا كان تاريخ العالم المستقبلي خاضعًا لتسلسل منطقي محدد سلفًا.

أما رجال اللاهوت فقد تعذَّر عليهم التوفيق بين حرية الإرادة المكفولة للإنسان لارتكاب الخطيئة (أو عدم ارتكابها) وعلم الله المحيط بكل شيء بما في ذلك أحداث الغيب، وقد أسفر هذا

* كان تيريسياس في الأساطير اليونانية عَرَّافًا أعمى، يعمل لصالح الإله أبولو في مدينة طيبة، واشتهر بنفاذ بصيرته. (المترجم)

** في السياق الفلسفي، تُعرَف الحتمية «Determinism» بوصفها الرأي الذي يرى أن كل ما يحدث في الكون، وكل أفعال البشر، والقرارات التي يتخذونها، وكل ما يحدث لهم هو نتيجة ظروف معينة، خارجة عن سيطرتهم. (المترجم)

عن عكوف علماء العصور الوسطى على تقديم شروحات مفصلة توضح كيفية المواءمة بين حرية الإنسان في كسب أفعاله والمعرفة الإلهية المُسبَّقة. وبسبب براعتهم التي لا يُشَقُّ لها غبار، أفلحت حججهم اللاهوتية فلاحًا عظيمًا، وهنا نشير إلى أن للتنبؤ بالغيب ابن عم مُوقَّرًا لا يمكن الاستغناء عنه، وهو التنبؤ العلمي المبني على الخبرات السابقة والبيانات المتوفرة، وهدفه تقييم الظواهر الأقرب إلى الاحتمال واستبعاد الأقل احتمالًا.

من بين ذلك التنبؤ بأحوال الطقس مثلًا، والاتجاهات الاجتماعية المُتَوَقَّع برزوها السنة المقبلة، والآثار المُحتمَّلة الطويلة المدى للتغيرات المناخية كالتدخين والتلوث. الحياة كلها حركة نحو المستقبل، وعليه فالتخطيط والإعداد أمران لازمان لو أردنا أن تكون الحياة جديرة بالعيش. تنطلق فرضية هذا التوجه من نقطة مضادة تمامًا لفكرة التنبؤ بالغيب، وهي فرضية مفادها أن المستقبل لم يأتِ بعد، وأن في مقدورنا أن نجعل المستقبل عالمًا أفضل لو أحسنَّا فهم الماضي والحاضر.

بل حتى في العصور الكلاسيكية القديمة، لم تُمارَس قراءة الطالع بوصفها عملًا تنبؤيًا، بل مُورست باعتبارها محاولة لاستقراء موقف الآلهة حيال البشر؛ فلو بدت تُذر الطالع عدوانية فتأويل ذلك أن الحدث القادم سيكون معركة حامية الوطيس، أو أن خطة بناء قصر مهيب سَتُمنى بالفشل على سبيل المثال.

وكان يكفي الآلهة الوثنية آنذاك لتعدل عن رأيها وتبارك مساعي البشر بالنجاح أن تُهرَق الدماء وتُقدَّم القرابين. وقد تنبَّه بعض الفلاسفة الأقدمين إلى ما تنطوي عليه الفكرة السابقة من دلالة تسترعي الانتباه؛ ذلك أننا لو استطعنا التأثير في مجرى الأحداث الآتية فمعنى ذلك أننا نتحمل مسؤولية ما سيحدث في المستقبل، بل حتى لو اتخذنا موقفاً سلبياً فسيكون موقفنا هو اختيار في حد ذاته. لو نظرنا إلى المستقبل بوصفه سماءً مفتوحة فسنكون سادة مصائرنا، أما لو اعتقدنا خلاف ذلك، واستقر في ظننا أن الرجم بالغيب ممكن، وأن الحتمية هي صاحبة الكلمة الأخيرة، فهذا يجعلنا ضحية لتدابير القدر.

العفة

”ثمرة المراهقة المُفْرِطة العفة هي شيخوخة طافحة بالمجون“.

أندريه جيد

يسود توافق مجتمعي على ضرورة الوقوف ضد فكرة حمل المراهقات لأسباب معروفة. ومن بين الجهود المبذولة لحث الشابات على عدم الحمل تشجيعهن على الالتزام بالعفة، أو دعوني أستخدم الاصطلاح الذي يروق لمحربي الجرائد الشعبية ”الحفاظ على عذريتهن“.

يعكس الرأي المعاصر، الذي ينادي بتأجيل الأمومة حتى العقد الثالث من حياة المرأة، تفاوت وجهات النظر حول مقدار ما يحتاج إليه مجتمعنا المُعقّد من إعداد تعليمي، وحول خصال شباب اليوم الذين يُنظر إليهم بوصفهم طاقة مُهدّرة أفسدتها الهموم الكثيرة.

اللافت للانتباه أن الآراء السابقة تناقض حقيقة أن أغلب الأمهات على مر التاريخ بدأن حياة الأمومة في سن مبكرة؛ فالسن المبكرة هي أنسب الأوقات للاضطلاع بتلك المهمة السامية من الناحية البيولوجية. في أماكن كثيرة من العالم، لا تزال الفتيات يحذون الحذو نفسه، بينما يبدأ الصبيان المراهقون في تلك السن أيضاً الانخراط في أنشطة التدريب المهني أو غيرها من أنواع العمل الأخرى.

كان الاستمتاع بفورة الشباب قديمًا ترفًا لا يقوى عليه الفقراء، وكانت الأبوة ضرورة اقتصادية توفر مزيدًا من الأيدي العاملة للمساعدة على فلاح الأرض، فضلًا عن كونها تأمينًا للوالدين في طور الشيخوخة.

أما اليوم فينظر العالم الغربي الغني إلى مرحلة الشباب بوصفها نعمة وسببًا من أسباب تيسير سبل الراحة، خصوصًا من تسربت تلك النعمة من أيديهم. وما كانت لفكرة العذرية أن تستحوذ على انتباه محرري الجرائد الشعبية لو لم تستثمرها التقاليد الدينية على مدار فترات طويلة في التاريخ استثمارًا قويًا؛ إذ عززت التقاليد الدينية فكرة ضرورة حفاظ الفتاة على عذريتها حتى يتأكد الرجال الصالحون أنهم سيُرزقون بأبناء يرثون أموالهم. ومع تعاقب الأزمنة، بقيت فكرة عذرية الفتاة إلى حين زواجها في بؤرة الاهتمام، وكان جزاء فقدان العذرية توقيع عقوبات قاسية تصل إلى القتل، أو في أحسن الأحوال تلطيخ سمعة الفتاة ونبذها عن الأسرة. وفق بعض التقاليد السائدة حتى اليوم، لا يزال طقس ختان الإناث أو خياطة أعضائهن التناسلية وسيلة ناجعة لضمان الحفاظ على بكرتهن! ولئن كان السبب العملي المعلن للمحافظة على العذرية هو انتقال الميراث إلى ذرية طيبة فالسبب الميتافيزيقي المستتر هو أن الروح، القريبة من الهواء والسماء، طاهرة، بينما الجسد، الملاصق للأرض، والعاطفة المشبوبة كلاهما نجس؛ ومن هنا تغدو الحياة الجنسية نفسها قذارة والامتناع عنها طهارة.

دفعت كراهية القديس بولس للنساء إلى اعتبار الجماع شيئاً مهيناً. وبعدها بثلاثة قرون، أدخل الأفلاطونيون الجدد على العقيدة المسيحية نظرية جديدة كل الجدة مؤداها أن الروح طاهرة، وأن الجسد دنس، واضعين بذلك كلمة الختام لما بدأه القديس بولس. أما بقية فصول التاريخ فطافحة بأحداث أدهى وأمر؛ فلو أننا ألقينا نظرة على التاريخ لألفينا أن المسيحية لم تكن العقيدة الوحيدة التي اتخذت هذا الموقف؛ ففي حقبة الإمبراطورية الرومانية، عاشت عذارى فيستال اللواتي كن يُعَدَمَن لو فقدن عذريتهن، وكانت مهمتهن الرئيسية هي رعاية الشعلة المقدسة في معبد فيستا الروماني، وكانت طريقة الإعدام هي وأدهن حيات.

كن إجمالاً ست كاهنات عذراوات يُخْتَرَن من بين عائلات أرستقراطية ولما يبلغن العاشرة، وكان لزاماً عليهن المحافظة على بكارتهن حتى بلوغ الثلاثين، ولو اقتضى الأمر إثبات العذرية فكان عليهن إثباتها بحمل الماء في منخل من مياه نهر التيبر، وهي مهمة سهلة لو أنهن تذكرن تشحيم المنخل أولاً بالمواد الغروية (وكانت لديهن معرفة كافية بالكيمياء والغرويات لأداء تلك المهمة). تعلمت عذارى فيستال أن العذرية شيء والعفة شيء آخر؛ ففي وسع المرأة أن تكون بكراً، وأن تستمتع مع ذلك بحياة جنسية سعيدة بأساليب أخرى! ترى الصورة المثلى للزواج في العقيدة المسيحية أن المرأة قد تكون متزوجة (أي فاقدة العذرية)، لكنها مع ذلك لا تفقد عفتها، بمعنى أنه برغم معاشرتها زوجها لا يجب عليها أن تداعبها فكرة الشعور بالمتعة؛ فبحسب كلام كهنة الكنيسة من المُحتمَل أن تسفر

الأفكار والمشاعر الدنسة في أثناء المعاشرة الزوجية عن تشوهات خلقية في الجنين لو وقع حمل. نخلص من الكلام السابق أن الحديث عن العذرية والعفة إنما يخفي وراءه قلقًا أخلاقيًا عميقًا مُضمّرًا في كثير من الأحيان بشأن مسألتَي الطهارة والدناسة، ومن ثم بشأن مشاعر الإغراء والرغبة.

لو كانت عقائدنا قد قررت أن الأذنين أو ضرس العقل مثلًا يتمتعان بمنزلة روحية رفيعة، لانتابتنا مشاعر القلق نفسها تجاههما مثلما ينهشنا القلق حول غشاء البكارة، وقتها سيُكرّس الاهتمام الأخلاقي للأذن وضرس العقل بدلًا من بكارة الفتاة!

الوثنية

”يؤمن البشر بالخزعات لا بسبب فرط خيالهم، بل بسبب جهلهم أنهم يفتقرون إلى الخيال“.

سانتيانا

خرجت جميع الأعياد الدينية المسيحية من رحم أعياد وثنية، ثم ما لبثت أن تبنتها الكنيسة وأدخلت عليها بعض التعديلات من باب تأليف قلوب الناس إلى اعتناق المسيحية؛ فعيد الفصح مثلاً له جذور وثنية متمثلة في الاحتفال بقيامة الطبيعة (وفق كلام القديس بيذا "Bede" فمفردة عيد الفصح "Easter" مشتقة من اللغة الإسكندنافية "أوسترا" أو "أوسترن" أو "إيستر" التوتونية).

أيّما ما كان الأمر فالاسم يشير إلى ربة الخصوبة والولادة في الأساطير الإسكندنافية. نقول هذا مع استمرار معارضة فقهاء اللغة لرأي القديس بيذا اليوم (فضلاً عن الخلاف الداخلي في ما بينهم) حول أصول تلك الكلمات. أما رموز الاحتفال بعيد الفصح كالأرانب والبيض فقديمة قدم الاحتفال ذاته؛ فالأرانب ترمز إلى الحماسة الإنجابية، والبيض يرمز إلى الحياة الجديدة. ومثل عيد الفصح كمثال عيد تقديس الجنس "الفالوسية" في الأول من مايو، الذي يعقب عيد الفصح مباشرة تقريباً (وهو العيد الذي يعدّه

عُبَاد الأوثان المعاصرون أهم؛ فهو السبت الأكبر بدلاً من السبت الأصغر)، ربما لأنه متعلق بالجنس.

والحقيقة أن تناقض الأصل الوثني لهذه المناسبة مع أهميتها الروحانية والدينية حاليًا إنما هو دليل صارخ على أن كلاً من الدعاية والممارسات الكنسية الوحشية (كحرق المخالفين دينيًا على الأوتاد) قادر على دفع أقوام كاملة إلى اعتناق معتقدات مناقضة تمامًا لمعتقدات آبائهم الأولين.

ومن هنا فاستحواذ الديانة المسيحية على عيد الخصوبة هو من ديدنها في الاستقاء من أعياد كانت وثنية في العهود الغابرة، كما أن الأيام الربع فصلية “quarter-days”، بما فيها عيد الميلاد المجيد، مقترنة بلحظات ذات أهمية فلكية، وهي الانقلابات الشتوية والصيفية والاعتدالات الربيعية والخريفية، وكلها أعياد وثنية كبرى. والحقيقة أن المسيحيين اتخذوا القديسين أربابًا مثلما اتخذوا الآلهة الوثنية من قبل أربابًا، إلى حد أن الديانة الجديدة لم تشق طريقها إلى قلوب الناس إلا عبر امتصاص الآلهة الوثنية داخلها، ولنا في القديسين فيتوس وهيوليتوس خير مثال.

يُصَدَّر فريزر “Fraser” كتابه “الغصن الذهبي” بشرح كيف مُزج بين تقديس السيدة مريم العذراء وتقديس الربة العذراء ديانا في الحضارة الرومانية، التي كانت عبادتها راسخة القدم في أوساط

* في التقاليد البريطانية والأيرلندية، الأيام الربع فصلية هي التواريخ الأربعة في كل عام التي يُعَيَّن فيها الخدم، ويبدأ الفصل الدراسي، وتُستَحَق الإيجارات، وتقع في أربعة أعياد دينية يفصل بينها ما يقرب من ثلاثة أشهر، وهي قريبة من الانقلابين «الشتوي والصيفي»، والاعتدالين «الربيع والخريف». (المترجم)

الإيطاليين في القرون الميلادية الأولى. لا شك أن نهج المسيحية كان ناجحًا بحق؛ إذ ابتُلعت العقائد القديمة في مُجملها داخل جسد العقيدة الجديدة، وأُخبر عبدة الإلهة ديانا أنهم استطاعوا معرفة اسم الرب الحقيقي، ألا وهو ماري [أي مريم العذراء].

ومع ما تحمله كلمة وثني من دلالة سلبية فهي تمثل إشارة نجاح لبوق الدعاية المسيحية؛ ففي اللغة اللاتينية، تعني كلمة "paganus" "ريفي"، وكانت المفردة تشير وقتذاك إلى الخزعات التي يرددها الأميون، وهو ما حدا برجال الدين المسيحي إلى حظر مظاهر تقديس الطبيعة وقواها المحركة، فضلًا عن النهي عن تعلُّم أي معارف تحاول فهم قوى الطبيعة ذات الخصائص العلاجية أو المُخدِّرة، ناهيك عن تحريم إقامة الاحتفالات المرتبطة بدورات التكاثر والولادة والنضج والموت، بوصفها طقوسًا شيطانية، وهكذا شُيِّنت الكائنات المرتبطة بهذه الخرافات كالرجل الأخضر، وآلهة الطبيعة، والجنيات، والأقزام من العفاريت.

ارتأت المسيحية ضرورة تقليص أظافر الطبيعة، وإحكام السيطرة عليها مثلها مثل الجسد البشري، بوصفها ذات طبيعة وظيفية لا أكثر. ولم تكتفِ المسيحية بالنظر إلى الطبيعة المادية نظرة أدنى من نظرتها إلى الحقائق الروحية للحياة الآخرة فقط، بل نظرت إليها نظرة معادية ما دامت خارج سلطان الكنيسة.

وقد عكست المعتقدات الطبيعية، التي دمغت العقائد الوثنية القديمة (بل والمعاصرة منها)، الجذور الأولى لفكرة الدين عندما حاول البشر للمرة الأولى مقارنة العلوم والتقنية، فلعبت دور العلم

الذي استطاع تقديم وصف دقيق لآلية عمل العالم، وعلم الإنسان أن سبب هبوب الرياح هو قوى عظمى غير مرئية ترسل الرياح، وأن سبب نبات الأرض هو نزول المطر من السماء بمشيئة الآلهة، كما لعبت تلك المعتقدات دور التقنية التي علّمت الإنسان كيفية التحكم في هبوب الرياح ونزول المطر واستنبات الأرض، وكانت وسيلتهم في ذلك استرضاء الآلهة بإقامة الصلوات وتقديم الأضاحي. لم يرَ أسلافنا في هذه المعتقدات ظواهر اعتباطية؛ إذ استطاعوا رؤية الآلهة في السماء متجسدة في الشمس والقمر، وأحسوا بقوتها في الزلازل، ولمسوا غضبها في انقطاع المطر. يتضح من ذلك تجذّر الرؤية الكلية إلى العالم في نفوس البشر، كما يدل على أنه كلما صارت موضوعات الإيمان أكثر تجريدًا قَوِيَ الإيمان بها، وآية ذلك أن درَج المصريون القدماء على تزويج صبي من ملكة فرعونية في يوم الانقلاب الشتوي، ثم يسارعون بقتل الصبي في نهاية اليوم ويُقَطِّعون أوصاله إربًا لنثرها في الحقول مثل السماد، ابتغاء حث الشمس على التوقف في رحلة الغروب وإعادة الحياة والدفع مرة أخرى كي تنمو المحاصيل مجددًا.

يتكرر حضور هذه الثيمة (ثيمة أن الموت عتبة ضرورية للانتقال إلى الحياة الجديدة) في كثير من التقاليد التاريخية؛ إذ نلمح أصداءها في قصة رحلة أورفيوس إلى الجحيم والعودة منه، وهو ما يجعل قصة رحلة المسيح ثلاثة أيام إلى الجحيم ثيمة مألوفة في التراث الميثولوجي.

في المسيحية الغربية، يوافق عيد الفصح أول يوم أحد يعقب اكتمال دورة القمر، وهو اليوم الموافق لبداية فصل الربيع في الحادي والعشرين من شهر مارس، ولهذا السبب هو "عيد متنقل التواريخ"، أما في المسيحية الشرقية فيتزامن هذا الحدث مع احتفال اليهود بعيد الفصح؛ إذ خصص المسيحيون الأوائل، الذين كانوا يهودًا، هذا اليوم لممارسة شعائهم الدينية الجديدة.

المفارقة أن المحتفلين بعيد الفصح من كلا الفريقين يكررون التناقض المُمَيِّز للطبيعة البشرية؛ فكلا الفريقين يشاهد طقوس قداس عيد الفصح على شاشات التلفزيون، وهم بذلك يستعملون تقنية علمية جديدة تجدد إيمانهم بالمعتقدات الغامضة التي تضرب بجذورها في طفولة جنسنا البشري، تلك الطقوس التي حلم بها البشر لسد فراغ الجهل المبكر الذي طبع فجر الإنسانية.

الطعن في عقائد الآخرين

”تبدأ كل الحقائق الكبرى من كلمة تجديف“.

جورج برنارد شو

سأكون مجدفاً في نظركم لو أنني طعنت في آلهتكم.
لو جاء أجنبي إلى بلد مسيحي، وأخبر مواطنيها أن اعتقادهم في ولادة المسيح من عذراء، وأن معجزات القديسين وقيامه المسيح من الأموات وما إلى ذلك محض هراء، وأن على الناس، عوضاً عن ذلك، الانحناء بخشوع أمام ضفدع بوصفه تجسيدا حقيقيا للإله، فسُيرمى ذلك الأجنبي بتهمة التجديف، وسيرد الأجنبي الصاع صاعين فيرميهم بالتهمة بمثلها، وتستمر المسألة ما بين شد وجذب حتى ينتهي الأمر بحرقه أو حرقهم على التودد الخشبي.

من الصعوبة بمكان أن نُعرّف الطعن في معتقدات الآخرين تعريفاً واضحاً؛ لأنه ينشأ عندما يقول إنسان أو يكتب شيئاً يراه شخص آخر لوناً من ألوان الإهانة، وعادة ما تكون هذه الإهانة مُوجَّهة إلى فكرة عزيزة ذات قداسة في نفس الشخص الثاني.

لكن الأمر يختلف من حالة إلى الأخرى، ودائماً ما يستلزم وجود شخصين -الطاعن في معتقد والمطعون في معتقده- لتكون المسألة واضحة. ويحسن بنا هنا أن نضرب أمثلة تطبيقية للوقوف

على أبعاد هذا المفهوم، لتأمل مثلاً قصة الطحان الإيطالي مينوquio "Menocchio" المروية ببراعة في كتاب "الجبن والديدان" لكارلو جينزبرج الكلاسيكي "Carlo Ginzburg".

أُعدم مينوquio حرقاً على الوند الخشبي في سنة 1600 لإنكاره ألوهية المسيح. كان للرجل منطقته اللاهوتي الخاص الذي حاول إقناع معاصريه بقبوله، ولأنه لم يكن موافقاً لللاهوت محاكم التفتيش لقي الرجل حتفه حرقاً. ولو شئنا ضرب الأمثال لما انتهينا، لكن القاسم المشترك في هذه الأمثلة هو اختلاف الفهم، حيث يضطهد الطرف الأقوى الطرف الأضعف.

سيجانبنا الصواب لو اعتقدنا أن هذه الظاهرة في طريقها إلى الزوال، مع اعترافنا بحدوث بعض الوقائع العارضة مثل قضية سلمان رشدي على سبيل المثال.

يقول فرويد إن المعتقدات الدينية ظاهرة ما قبل حضارية، جذورها متغلغلة في طور الطفولة البشرية، ومع تخفيف قبضتها ستختفي كل الظواهر المصاحبة لها كالإيمان بالسحر، والقوة الشيطانية، والهرطقات الدينية، والمس الشيطاني، والتجديف، وما شابه ذلك. ولأن فرويد ناصب العداء للدين طوال حياته ورآه قوة شر ينبغي هزيمتها (كان الرجل مجدداً بارعاً بهذا المعنى).

إن خطر الصراع بين البشر موجود دائماً، لهذا فالطعن في عقائد الآخرين فكرة مدمرة، وهي فكرة خطيرة يستخدمها المؤمنون بالخرافات لحرمان الآخرين من حرية التفكير، ولا ريب أن العالم سيكون مكاناً أفضل إذا طُهر من هذه الفكرة.

الفحش

”ليست الخلاعة مصطلحًا يشتمل على تعريف قانوني دقيق،

أما في أروقة المحاكم فتعني الخلاعة: أي شيء يصدم شعور القاضي“.

برتراند راسل

في سنة 1857، وفي أوج ازدهار الحقبة الفيكتورية، أصدر البرلمان البريطاني قانونًا يهدف إلى تشديد الرقابة على الأدب المكشوف، وترتب على ذلك إقرار قانون المطبوعات الخلية في سنة 1857، نتيجة الضغوط المتواصلة والمنظمة من قبل المجموعات المتشددة داخل الكنيسة وقتها، حينها تبنى اللورد كامبل (رئيس المحكمة العليا) رفع هذا الطلب إلى البرلمان بهدف صريح وهو منح القضاة جميع صلاحيات مصادرة الأعمال الأدبية المكشوفة وإتلافها.

ثم طُرحت فكرة أن القانون لو صيغ صياغة أكثر تشددًا مما أراد اللورد كامبل، فينبغي أن تقتصر الصياغة على منح القضاة صلاحيات أكبر لإحكام القبضة على الأدب الذي يستهدف عمدًا إتلاف أخلاق الشباب، والإخلال بالآداب العامة، والعبث بكل عقل منضبط.

فرض المشرعون البرلمانيون القيد السابق على مشروع قانون اللورد كامبل على خلفية طبيعتهم المتشككة إزاء فكرة الرقابة

عمومًا، حتى في ظل ازدهار الحقبة الفيكتورية، أما تفسيرات القانون اللاحقة فقد تجاهلت هذا القيد تقريبًا ولم تُلقَ له بالًا؛ ففي سنة 1868، تقدم خليفة اللورد كامبل (وهو اللورد كوكبيرن) بخطوة أكثر تشددًا، فقرر أن مناط الفحش المقصود في القانون هو ”إذا ما كان المتهم بإشاعة الأدب الفاحش يميل في دخيلة نفسه إلى إتلاف المنفتحين إلى تقبُّل مثل هذه التأثيرات غير الأخلاقية“، وترتب على هذا التفسير إلحاق أضرار لا تُعدُّ ولا تُحصى بالأدب البريطاني، لا تزال آثارها ملموسة حتى اليوم.

وكان من بين الضحايا الأوائل لهذا القانون كل من برادلو وآني بيسانت ”Charles Bradlaugh & Annie Besant“ لنشرهما كتيبًا يتكلم عن مسألة تحديد النسل، وحُكِمَ عليهما بالسجن مدة ستة أشهر، ولم يُلغَ الحكم الصادر بحقهما في محكمة الاستئناف لأسباب إجرائية مزعومة. أما القضية الأشهر فكانت الحكم بسجن هنري فيزيتيلي ”Henry Vizetelly“ ثلاثة أشهر في السجن عام 1889 لنشره أول ترجمة إنجليزية لكتاب زولا ”التربة“ ”La Terre“.

ولم تقتصر آثار القانون على الأدب الخيالي وحسب، بل امتدت لتشمل العلوم الطبيعية أيضًا؛ إذ أُقيمت دعوى ملاحقة قضائية عند صدور المجلد الأول من دراسة د. هافلوك إليس ”Havelock Ellis“ حول علم نفس الجنس. لم تكن الوقائع السابقة إلا مشهدًا افتتاحيًا لحرب الاستنزاف الضارية التي شُنَّتْ ضد الأدب الإنجليزي في القرن العشرين، وهي مسألة كانت مثيرة للفرع بقدر ما كانت مثيرة للانتباه.

كان وزير الداخلية في حكومة ستانلي بالدوين "Stanley Baldwin"، واسمه ويليام جوينسون هيكس "William Joynson-Hicks" (جيكس)، داعية أخلاقياً متشدداً، وكان تصميمه على حظر رواية "يوليسيس" لجيمس جويس ورواية "بثر الوحدة" لرادكليف هول "Radclyffe Hall" في عشرينيات القرن المنصرم مجرد نقطة في بحر الكراهية المتفشية، أم هل أقول: "نقطة في بحر الخوف"؟

ربما لم يكن ثمة تفرقة بين الجنسين في المجتمع البريطاني وقتذاك، لكن قرار حظر رواية "يوليسيس" استند في صميمه إلى قراءة رئيس النيابة العامة لأربعين صفحة فقط من الصفحات السبعمئة التي يتألف منها الكتاب، وكان الدافع وراء الأمر هو الشك في شخص جويس ذاته، الذي كان ذا أصول أيرلندية، مثلما كان الدافع هو الاشتزاز من التأملات الاستثنائية لـ "مولي بلوم" بطلة الرواية. شهد عقد الخمسينيات من القرن العشرين موجة تطرّف جديدة استهدفت بالدرجة الأولى منع تدفق الروايات الرخيصة من الولايات المتحدة إلى بريطانيا، ولم تسلم من موجة المنع البطاقات البريدية لعطلات البحر "Saucy Seaside Postcards"؛ إذ وجد أحد منتجيها، وهو دونالد ماكجيل، نفسه ماثلاً أمام المحكمة.

* تقليد بريطاني انتشر آنذاك، عبارة عن بطاقات بريدية فكاهية الطابع تروي مغامرات البريطانيين على الشواطئ في العطلات الصيفية، وكانت مزودة برسوم لا تخلو من الغري والصور المكشوفة. (المترجم)

تولت وزارة الداخلية البريطانية توزيع الكتاب الأزرق للمنشورات المشبوهة على رؤساء الشرطة، وبقي مضمونه سرًا، لا على الجمهور فقط، بل على نواب البرلمان أيضًا. وقد تضمن الكتاب أربعة آلاف عنوان، من بينها كتب لميكي سبيلان، وجيمس هادلي تشيس، وسارتر، وأبتون سنكلير. ولكن المثير للدهشة أن الكتاب أدرج أيضًا روايتي "مول فلاندرز" و"مدام بوفاري". وإزاء عبثية هذا الوضع، ظهر فارس العقل، القاضي النبيل ستيل، الذي ترأس محاكمة الفحش في سنة 1957، والتي كان موضوع دعواها القضائية كتابًا يحمل عنوان "زير النساء" "The Philanderer"، وقال لهيئة المحلفين إنه يعتقد أن قانون اختبار الفحش الصادر في الحقبة الفيكتورية لم يعد ملائمًا للعصر الحالي؛ فقد تغير الزمن، مشيرًا إلى أن عدم ملائمة الكتاب للمراهقين ليس سببًا وجيهًا لحظر بيعه بوجه عام، مطالبًا هيئة المحلفين في الوقت ذاته بقراءة الكتاب في مجمله وعدم الاختصار على أجزاء قليلة منه مُقتطَفة من هنا وهناك، فقرأت هيئة المحلفين الكتاب كاملاً، وبرأت ساحة الناشرين.

في الوقت ذاته، تحول قضاة مدينة سويندون الإنجليزية إلى أضحوكة في أعين الناس بعد قرار حظر كتاب "ديكاميرون" لبوكاتشيو، بينما سمحوا ببيع رواية تافهة للكاتب هانك جانسن بعنوان "Don't Mourn Me Toots".

مكتبة

t.me/soramnqraa

* مول فلاندرز إحدى روايات الكاتب الإنجليزي دانييل ديفو، تدور أحداثها عن سيدة تلاعبت بها الأقدار وتأرجحت بين الخير والشر طيلة حياتها. (المترجم)

كشفت الأحداث السابقة أن مياهًا كثيرة جرت في النهر، وأن الزمن قد تغير بالفعل؛ إذ رأينا روي جينكينز "Roy Jenkins"، الذي أثبت أنه أفضل من شغل منصب وزير الداخلية في تاريخ بريطانيا في القرن العشرين، وقد تقدم بقانون المطبوعات الفاحشة في سنة 1959، الذي قدم دفاعًا جديدًا عن الأدب المكشوف باعتباره لأجل الصالح العام لو وُظف في خدمة مصالح العلم والأدب أو الفن أو التعليم توظيفًا صحيحًا.

وبرغم العوار الذي شاب القانون في جوانب أخرى، لكنه تحول بهذه الطريقة إلى معقل حصين يذود عن الأدب برغم جهود ماري وايتهاوس "Mary Whitehouse" وأمثالها لإبقاء الرقابة المُشددة. كان قانون جنكينز هو التكاة القانونية التي اتكأت عليها المحاكمات التاريخية المثيرة التي تلت ذلك، لعل أهمها الدعوى المرفوعة ضد رواية "عشيق الليدي تشاتيرلي" للكاتب د. ه. لورنس، التي طُبقت عليها أحكام ذلك القانون. ومع ذلك فالرقابة على المصنفات الفنية لا تزال قائمة.

في سبعينيات القرن المنصرم، رُفع تقرير ممتاز إلى الحكومة البريطانية أشرف على إعداده الفيلسوف برنارد ويليامز "Bernard Williams" يتبنى اقتراحًا بإلغاء قوانين الرقابة على المصنفات الفنية الحالية، وإحلال قانون مُوحد شامل يعتمد على فحص ما يُسمّى "الضرر الجسيم، الجليل الأثر"، ومن ثم الاستغناء عن المفاهيم الملتبسة، الضبابية، الهلامية المطبقة حاليًا من قبيل الفحش والفسق والفجور. بيد أن الاقتراح ظل حبيس الأدراج. كان اقتراح ويليامز يهدف إلى خدمة حرية التعبير ضد الرقابة بطريقة

لا تخلو من حكمة وتدبّر؛ فالحرية ليست رخصة على المشاع، بل هي فكرة أسمى؛ الحرية مرادف الانفتاح والتسامح وضبط النفس ضبطاً معقولاً. ولا أفضل من القوانين المصوغة صوغاً دقيقاً من تعزيز بلوغ مثل هذه القيم.

الفقر

”لا مُنِصِت لأصوات الفقراء“.

توماس فولر

من بين معايير المجتمع السوي، طريقته في التعامل مع الفقراء، وربما يتعذر دومًا على غير الفقراء أن يحسنوا فعل ذلك. لاحظ تشارلز بيجوي “Charles Peguy”^{*} أنه في غياب نجابة العقل لا يستطيع الغني أن يتخيل شكل الفقر، ولهذا يظن من يعيشون في بحبوبة من العيش ضرورة استغناء الفقراء عن التلفزيون والسجائر لو لم يمتلكوا ثمنها، وهو ما يُظهر خطأً في فهم طبيعة الفقر.

للفقر أنواع شتى؛ فطبيعة الفقر في بلدان العالم النامي مختلفة عن طبيعته في بلدان العالم الأول بسبب اختلاف الظروف التاريخية والاقتصادية؛ فمشكلات فقراء بلدان العالم النامي منصبة في المقام الأول على ما يسد الرمق وتأمين مصادر المياه والغذاء الأساسية، وتزداد محنتهم تعقيدًا في أحوال كثيرة بسبب ظروف الحرب أو الفساد أو الفيضانات أو الجفاف، ومن ثم فالفقر في بلدان العالم

* شاعر وكاتب فرنسي تبنى الاشتراكية في أول حياته ثم تحول إلى الإيمان الكاثوليكي. (المترجم)

النامي يعني العيش على حافة الوجود في خضم صراع مرير لا يرحم،
فيتراوح البشر بين شعورين اثنين لا ثاني لهما: اليأس والأمل.

أما الفقر في بلدان العالم الأول فمسألة نسبية، لكنها ليست
أقل إيلاّمًا لكونها مسألة نسبية. وهنا تصدّق مقولة سينيكا: "ليس
الفقير من يملك القليل، بل من يتوق دومًا إلى بلوغ المزيد"؛ ففي
المجتمعات المتقدمة، لا يُعدّ اقتناء المنزل أو السيارة من أسباب
الراحة، بل تتجلى مظاهر الرفاهة الحقّة في التمتع بقدرات أكبر،
كالتردد إلى دور السينما أو المطاعم، أو قضاء العطلات خارج
البلاد، وكلها مرادفات لبلوغ المنزلة الاجتماعية المرموقة، وتوطيد
المكانة الرفيعة داخل أوساط المجتمع، والتمتع بحضور لافت
وصوت مسموع، ومن دون امتلاك هذه الأشياء، يغدو المرء مواطنًا
من درجة أدنى، ويدخل في عداد المحرومين المُهمّشين. لا تعكس
الأشياء السابقة مجرد رموز للثراء؛ فغير القادر على شراء جهاز
التلفزيون أو الجريدة لا يُحرّم مما يتمتع به غيره من أفراد المجتمع
وحسب، بل تنقطع صلته بأحداث العالم الخارجي.

ليس الفقر فيروسًا ولا كارثة طبيعية ولا حادثًا طارئًا، وإنما هو
ظرف من صنع الإنسان، معزو بالدرجة الأولى إلى توزيع ثروات
العالم توزيعًا غير عادل، لا يعكس القيمة الحقيقية للأشياء دائّمًا،
أو لنقل في كثير من الأحيان؛ فدُخل المدير التنفيذي لشركة في
مدينة كبرى سنويًا يوازي إجمالي دخل أكثر من خمسين ممرضة
معًا، وهي حقيقة تدعو إلى الاندهاش!

يقول المثل الروسي: "لا يستطيع الأغنياء أكل المال، لذلك فلا بأس من وجود فقراء يزرعون طعامهم". صحيح أن الدواعي الأخلاقية الحاضرة على تخفيف معاناة الفقراء أوضح من الشمس، لكن لا شك أننا لو قدمنا أسباباً عملية ملموسة لاستطعنا تقديم حجج أشد إقناعاً للأغنياء.

في خطبته في يوركتاون، طرح روبرت وينشروب "Robert Winthrop" ملاحظة حكيمة مؤداها أنه يتحتم إجمال العطاء للفقراء: "حتى لا يُغري التسول بالكذب، وحتى لا يدفعهم الفقر إلى الجريمة"؛ فالصلة بين الفقر وتفجّر مشاعر الاستياء المجتمعي، والضيق العام، وارتفاع معدلات الجريمة، ونشوب الاضطرابات والقلق أوضح من أي بيان. واقع الأمر أنه ليس الحرمان المادي هو ما يحرّض الناس على ارتكاب الأفعال المعادية للمجتمع، بل الشعور بالقهر والظلم الاجتماعي المقرون بالحرمان؛ فالحرمان المادي في حد ذاته مثبط للهمة أكثر من كونه محفزاً على الثورة.

أما من يختارون الفقر اختياراً واعياً فهم آحاد الأفراد، ربما يكون من بينهم القديسون والفلاسفة، وغني عن القول إننا لا نحتاج منهم إلى دروس ولا مواعظ لنذكر حقيقة أن الفقر الاختياري ليس فقراً البتة، والمساكين والكسالى لا يمثلون إلا نفراً قليلاً من هذه الفئة. قال ألكسندر تشيس "Alexander Chase": "ربما لا يطأ الأغنياء الجنة أبداً، لكن الفقراء يقضون فترة حكمهم في الجحيم".

* محام وسياسي أمريكي نشط في أوساط اليمين في القرن التاسع عشر. (المترجم)
** صحفي ومحرر أمريكي. (المترجم)

الرأسمالية

”طالما كانت مشكلة النظام الربحي في أنه لم يدر ربحًا
على السواد الأعظم من الناس“.

إي. ب. وايت

تزعم قلة من الناس - على الأقل من يتحدثون بصراحة- أنهم
لا يرغبون في أن تتمتع المجتمعات كلها بالدرجة نفسها من العدالة
والاحترام.

ما أسهل أن نقول إنه يجب على المجتمعات أن تنحو هذا النحو
بدلاً من ذاك، وخصوصاً في حقبة العولمة ورأسمالية السوق الحرة
التي تكفل سبل الحياة الرغدة لمعظم سكان البلدان الصناعية
المتقدمة، وهي البلدان التي تُعدُّ قبلة أنظار العالم ومضرب المثل
في القوة والنفوذ، ومن هنا فلا غرابة لو بدت خصائص نموذجهم
الاقتصادي أكثر تفوقاً من البدائل الأخرى.

أما في عالم الغرب الثري فيسود اعتقاد مفاده أن أيديولوجية
السوق الحرة قد حسمت المعركة لصالحها ورُسِّخت حجتها،
فصارت تلك الأيديولوجيا قادرة على توجيه دفة المستقبل مثلما

تُوجّه دفعة الحاضر، وهو مبعث زعم فرانسييس فوكوياما* بشأن أطروحة نهاية التاريخ.

ومهما بلغت درجة حصافة الفصيل المعارض لذلك التيار وسعة اطلاعه، فلا يكاد صوته يكون مسموعًا أمام طوفان الثقة الصاخبة لفصيل الرأسمالية الذي يهيمن على المشهد، في حين أن السردية، التي تطرحها الأصوات المعارضة للرأسمالية، باعثة على القلق العميق، ناهيك عن كونها تطرح حجة دامغة على أنها تصب أكثر في مصلحة العدالة والاستدامة على خارطة الاقتصاد العالمي.

تحتاج الرأسمالية -لكي تصون وجودها- إلى دوران عجلة الإنتاج باستمرار، ومن ثم دوران عجلة الاستهلاك بطبيعة الحال. لا شك أن الفوائد المتراكمة، التي جلبها التطور التكنولوجي في تحسين مستويات المعيشة، صارت واضحة وملموسة في العالم الغربي الغني. وعلى صعيد مقابل، يقول المعارضون إنه ثبت بالدليل القاطع أن ثمن هذا التطور كان باهظًا للغاية، وخصوصًا في الأضرار البيئية، وديون العالم الثالث التي تثقل كاهل الشعوب، والهوة الشاسعة، التي لا سبيل إلا ردمها، بين الأغنياء والفقراء، فضلًا عن العواقب الوخيمة التي تحل بالمجتمعات من جراء تحويل البشر إلى سلع، ومن تحويل العلاقات الاجتماعية إلى معاملات سوقية. وفي مقدور المناهضين للرأسمالية الاستشهاد بشكل يبعث على القلق بأرقام دقيقة حول حجم الأضرار البيئية الناجمة عن الاقتصاد

* فرانسييس فوكوياما: فيلسوف ومُنظّر سياسي أمريكي اشتهر بكتابه نهاية التاريخ والإنسان الأخير الذي بشر فيه بأن عولمة الديمقراطية الليبرالية تمثل صيغة نهائية لتطور البشرية. (المترجم)

الاستهلاكي، وعن اتساع رقعة الفقر، وأضرار النفايات، وشراسة استغلال العالم الثالث.

وأمسى مألوفاً أن نقرأ يومياً عن الخسائر الفادحة في تقلص مساحات الغابات المطيرة سنوياً، وعن أطفال جنوب آسيا الذين يعكفون على خياطة كرات القدم التي يلعب بها أطفالنا مقابل بضعة بنسات في اليوم، وعن المجاعات التي تضرب بلدان العالم الثالث بسبب تصدير المحاصيل الأساسية، التي تقيم صلب الإنسان، عوضاً عن استهلاكها في السوق المحلية!

ثمة حقائق أقل ذيوغاً بين الناس، منها مثلاً أن أغنى أغنياء المكسيك يملك ثروة تفوق ما يملكه أفقر سبعة عشر مليوناً من مواطني بلاده مجتمعين، وأن سداد الديون السنوية المستحقة على كثير من البلدان الفقيرة يتجاوز كثيراً حجم الإنفاق على مجالات الصحة والتعليم. لا شك أن الاعتبار السابقة تسلط الضوء بقوة على أوجه الظلم وعدم الاستقرار الذي يضرب بأطنابه في النظام الاقتصادي العالمي، وتدفعنا إلى التساؤل لا عن ضرورة تغيير هذا النظام، وإنما عن كيفية تنفيذ التغيير فعلياً.

أما المدافعون عن رأسمالية السوق الموعومة فيضعون ثقتهم في أمرين؛ أولهما قدرة الأسواق نفسها على تصحيح أوضاعها المعوجة ومعالجة أسوأ مظاهر الظلم وعدم المساواة التي تسببت فيها على مدار حقبة طويلة، والآخر ما يسمونه الإصلاح الفني؛ إذ سيكون الابتكار التكنولوجي مستقبلاً قادراً على حل المشكلات التي خلقتها التكنولوجيا والتطور الصناعي، فعلى سبيل المثال، ستحول

السيارات والمصابيح الكهربائية وأنظمة التدفئة مستقبلاً إلى أنظمة ذكية فعالة (كما يزعم المتفائلون)، حتى إننا سنستهلك معدلات طاقة أقل مما نستهلك اليوم، ومن ثم فلا يهم لو أهدرنا موارد الطاقة المتوفرة لدينا اليوم التي يبدو أنها غير مستدامة.

الطريف أن الذرائع السابقة لا تهز شعرة في رأس منتقدي الرأسمالية، الذين يؤكدون أن مريط الفرس من وجود الأسواق هو أن يجني المسيطرون على مصادر الطاقة الأرباح في المقام الأول؛ لأن هذا هو هدفهم الوحيد ومبرر وجودهم. إن ترك العالم فريسة لقوى العرض والطلب غير المحكوم يجعل السوق غاضبة طرفها عن الآثار السلبية التي تصيب العمّال الساهرين على خدمة السوق، ولا يتقاسمون الأرباح مع أصحاب رؤوس الأموال.

كما يذهب المنتقدون إلى أن تحقيق العدالة الاجتماعية محتاج إلى تبني نموذج اقتصادي يضع المصالح الإنسانية نصب عينيه؛ فهذا النموذج من الاقتصاد قادر على حماية البيئة، وصون الخصوصية الحضارية، وإرساء العدالة الاقتصادية بين الأفراد وعلى مستوى الشعوب، فضلاً عن وضع ضوابط عمل الشركات المتعددة الجنسيات.

ما أكثر ما قُدم من نظريات حول تأسيس نشاط اقتصادي مستدام، ومن ثم أشد انضباطاً وتوازناً، لكن من المُستبعد أن يتبنى النظام الحالي مثل هذه النظريات في الوقت الذي يوفر فيه الامتيازات لفئة من الناس ويغريهم بمزيد من الحوافز، والحقيقة أن أي محاولة ترمي إلى تغيير دفة مسار الاتجاهات الجامحة للنظام العالمي المعاصر

تستلزم تغييرات هائلة على صعيد المواقف والممارسات، ومن هنا فمن العسير أن نرى إمكانية حدوث ذلك ما لم تجبرنا عليه كارثة كونية تهز أركان العالم.

يرى البعض أن العودة إلى مجتمعات الحكم الذاتي الصغيرة هو الأمل الوحيد نحو بلوغ مستقبل أكثر عدلاً واستدامة، وهم إذ يروجون ذلك فإنهم يضعون في اعتبارهم "ثقافة المجتمع الريفي" المحلية الذاتية الاستدامة، والتي وُجِدَت منذ أقدم العصور، وهو نسق اجتماعي وصفه أحد المؤرخين بأنه "أفضل إنجاز أحرزته البشرية".

ومع ذلك فالكلام السابق يكشف عن الضعف القاتل الذي يعتبر حجج المؤيدين للرأسمالية المُعوَلمة. وبما أن الرأي المذكور آنفًا هو رد فعل على المخاوف الحقيقية المثارة بشأن الجوانب المظلمة من رأسمالية السوق الحرة، والتوصية بالعودة إلى نمط حياة الريفية أو التحرر من الاستهلاك والنمو المحدود وتحاشي الركود الاقتصادي، فمن المؤكد أنه ليس خيارًا ملائمًا للمستفيدين من الرأسمالية، ناهيك عن يطمحون إلى الاستفادة منها. ربما يتصف موقف منتقدي الاقتصاد العالمي المُعوَلم بالميل إلى التحيز بسبب ما جلبه النظام الرأسمالي على الطبيعة والمجتمع من آثار مؤسفة، ناهيك عما خلفه من ألوان الظلم المختلفة، وهم محقون عندما ينادون بضرورة المبادرة باتخاذ رد فعل. ولكن يبدو أنه لا مخرج آمن من هذه المعضلة الشائكة كما تكشف المقترحات المُقدَّمة التي لا تسمن ولا تغني، ومن بين أولئك نفر من الناس لا يكتفون بالدفاع عن نظام السوق الحرة والنزعة الاستهلاكية التي يغذيها وحسب، بل نراهم يمجّدونها أيضًا.

تذهب أصول الفكر الاجتماعي السليم إلى أن النزعة الاستهلاكية تنطوي على لون من الإرغام، وأن خبراء التسويق البارعين نجحوا في التلاعب بعقولنا فصنعوا منا ضحايا سلبيين، من حيث كوننا نسرف في استهلاك كل شيء استهلاكًا مطردًا غير منقطع لا غاية له، مدفوعين بإغراءات الحملات الإعلانية التي تخلق بداخلنا رغبات زائفة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن شراء سلعة ما هو شراء السعادة نفسها. والحقيقة أن قراءة تقارير تحليل النزعة الاستهلاكية وما تنطوي عليه من محاور شتى كالتسويق، والأسماء التجارية، والأزياء، والتسوق، والتغليف، والقمامة، والتلوث، والتنافس الاجتماعي، وروح الإقصاء، وتسليع القيمة أمر باعث على الإزعاج؛ لأنه يشير إلى أن آليات الإقناع والحض على الشراء (وهي صميم عمل الرأسمالية) إنما هي آليات مؤذية خبيثة.

كما تخبرنا مبادئ الفكر الاجتماعي السليم أن المديرين التنفيذيين لإدارات التسويق يحولوننا إلى أفراد ينهشهم القلق، لكن تسهل قيادتهم وتوجيههم، وأننا وقعنا في فخ الاعتقاد بأن الطريق لبلوغ الجنة هو الإقبال على شراء الأشياء. ومع ذلك فثمة مجموعة من المفكرين المتميزين (أذكر من بينهم ثورستين فيبلين، وجون كينيث جالبريث، وفانس باكارد، ووالف نادر، فضلًا عن فلاسفة مدرسة فرانكفورت)، هذه المجموعة تُدين ثقافة الإسراف، والرعونة، والوعي الزائف، والانزلاق إلى فخ المجتمع الاستهلاكي، ويصفون تلك الممارسات بأنها مؤامرة تهدف إلى إرغامنا على العمل لنتمكن من شراء فتات موائد النظام الاقتصادي العالمي، وسقط متاع المصانع التي نشترى منتجاتها غير الضرورية، بينما نواصل

الغرق في بحر النفايات والتلوث ونحن جالسون أسفل الوميض الأزرق للإعلانات التلفزيونية، نتناول وجبات عشاء غير صحية مُجهَّزة في الميكروويف.

بيد أن الأدلة الداعمة لهذه الفكرة ملتبسة وغارقة في الغموض؛ إذ تشير تقارير مختلفة إلى أن جمهور المستهلكين هو جمهور ذكي في اختياراته، وأن فكرة التسوق في حد ذاتها هي مصدر عميق لبلوغ المعنى في عالمنا المعاصر. ويبدو أن هذه الفكرة تشير ضميرًا إلى أنه إذا ترك المعلنون جمهور المستهلكين إلى حال سبيلهم فسيشرع الجمهور على الفور في قراءة أعمال فيتجنشتاين "Wittgenstein" والاستماع لموسيقى ماهر "Mahler" مثلاً، وهو ما لن يحدث في حقيقة الأمر؛ فالجمهور يرغب في اقتناء الأشياء، ويرغب في شراء الحاجات، وهو مسكون بالرغبة في الشراء والتملك.

وفق قوانين العرض والطلب فالمستهلك هو صاحب اليد الطولى، أما المنتجون والمعلنون فيلهثون وراءه ويقدمون العزاء والوعد بالخلاص (ها هي ذا اللغة الدينية تتبادر إلى الذهن تلقائيًا) الذي توفره العلامات التجارية الرنانة، وتتيحه متعة الاقتناء، وربما لهذا كله لا يكون حب المستهلكين لفكرة الاستهلاك أمرًا جديدًا بالازدراء.

يزعم المدافعون عن اقتصاد السوق الرأسمالية أن الاستهلاك هو تجسيد لشغف الحياة المعاصرة ولمستها الإبداعية، ويقولون إننا عبر فعل الشراء واقتناء الأشياء نحدد هويتنا، ونفسر مجتمعنا، ونضفي على حياتنا قوامًا متماسكًا؛ فنحن لا نرغب في مجرد قيادة

سيارة، بل في قيادة سيارة من طراز "فيراري"، ولا نرغب في أن نشرب شمبانيا، بل نرغب في أن نشرب كحول "فوف كليكوت"، ولا نرغب في ارتداء أي بدلة، بل بدلة من طراز "أرمانى"، ومن ثم فامتلاك هذه الأشياء يمنحنا شعورًا بتحقيق المعنى؛ فلغة العلامات التجارية والمنتجات والخدمات هي اللغة المشتركة التي ينطق بها لسان مجتمعنا، والشعارات الاستهلاكية والإعلانات هي الشعارات الثقافية المُميّزة لطبيعة عصرنا، وهي معالم تساعدنا على تلمّس طريقنا في هذا العالم وتقييم ما يواجهنا فيه.

إن اللغة والصور تقدم ما سبق أن قدمته المعتقدات الدينية ذات الأصول المشتركة، بيد أن المدافعين عن النزعة الاستهلاكية يسرفون في الشطط ويقولون إنها رابطة اجتماعية أشد ديمقراطية وإنصافًا؛ فالمستهلكون ليسوا حمقى، ولا يُلقّنون العقائد التي يليقها الكهنة؛ لأن المستهلكين هم أنفسهم كهنة، يعرفون جيدًا ما يريدون، ويعرفون كيف يحصلون عليه.

ولنتأمل مثلًا منطق العلامات التجارية: لماذا يُقبل الناس على شراء ملابس ذات علامات تجارية مشهورة باهظة الثمن ويحرصون على ارتدائها؟ الجواب أن اقتناءها يمنحهم المنزلة الاجتماعية المرموقة والهبة والثقة بأنفسهم والغاية المنشودة، وهذا هو مفتاحنا لفهم النزعة الاستهلاكية؛ فاقتناء هذه الأغراض المادية هو بالضبط ما يمنح المشتري شعور شراء الأصول غير الملموسة (أي العلامة التجارية).

صحيح أن الادعاء بأن الاستهلاك ليس نوعًا من الإرغام، وأن المستهلكين سعداء، وأن النزعة الاستهلاكية تشيع الغبطة في نفوس البشر، وتضفي إلى حياتهم معنى، كل ذلك قد يبدو أمرًا مقنعًا إلى حد بعيد، ولكن إذا كانت السعادة هي ”بيت القصيد“ فما المانع من فكرة تحقيق أعلى درجات السعادة وأكثرها شيوعًا عبر وضع عقار دوائي مناسب في مواسير المياه التي تمدنا بمياه الشرب؟ تتجاهل هذا الادعاء (أي أن الاستهلاك ليس نوعًا من الإرغام) مقولة صارت مبتذلة لكثرة ما لاكتها الألسنة، وهي أن مراكز التسوق لا تباع الأشياء الجديرة ببلوغها في هذه الحياة كطيبة القلب، والحكمة، ورقة المشاعر الإنسانية!

الباب الثالث

الرفاهة والماديات

العقل

”في مقدور العقل مصارعة الأهوال، وكسر شوكتها“.

يوريبيلديس

في كل ما نسمعه من نشرات إخبارية، تتخذ أنباء الصراعات، التي تستحوذ على انتباهنا، طابعًا سياسيًا أو عسكريًا، أو ربما تتخذ صورة صراع يخوضه الإنسان ضد الطبيعة عند تفاقم المسألة وتحولها إلى صراع طافح بنبرة عداثية على نحو ما نرى في الفيضانات والجفاف والطاعون، ومع ذلك فوراء الكواليس صراع ذو طبيعة أعمق وأشد تنظيمًا، وسبب ذلك الوصف قدرته على تشكيل مصائر البشر على الأمد البعيد، بيد أنه صراع مستقل لأن أبعاده متناغمة مع أبعاد التاريخ ذاته.

وأقصد بذلك الصراع ”صراع الأفكار“، المتجسد في صورة الأيديولوجيات والسياسات والأطر المفاهيمية المُحددة للمعتقدات والأخلاق. يتأسس فهمنا للوضع الإنساني العام (فضلاً عن اختياراتنا لكيفية إدارة التحديات الجامعة المعقدة في شبكة الوجود الاجتماعي) على مجموعة من الأفكار، وهي في العادة أفكار هيكَلت داخل أنساق نظرية، ومن ثم فالأفكار - في نهاية المطاف - هي التي تدفع الناس إلى اتخاذ قرار السلم أو قرار الحرب، وهي التي

تشكل الأنظمة التي يعيشون في كنفها، وهي أيضًا التي تحدد كيفية تقاسم الموارد الطبيعية الشحيحة في ما بينهم.

الأفكار مسألة جوهرية، مثلها في ذلك كمثل العقل الذي تحيا به الأفكار أو تموت؛ فالعقل سلاح الأفكار، وهو السلاح الذي تُشهره وجهات النظر المتباينة حينما تتصارع. يدلنا الكلام السابق على أن العقل -بدرجة ما أو بأخرى- مُطلَق، وأنه لو استُعمل استعمالًا رشيدًا لاستطاع تسوية النزاعات وإرشادنا إلى سبيل الحقيقة.

ولكن تاريخ العقل بهذا المعنى لم يخلُ من أعداء قط، وأول أعداء العقل هو العقائد التي تدّعي أن العالم الميتافيزيقي ينقل حقائق يتعذر على العقل البشري الوصول إليها عبر البحث، ومن وراء هذا العدو عدو آخر هو النسبية، وهي وجهة النظر القائلة إن الحقائق المختلفة، ووجهات النظر المتباينة، وطرائق التفكير المتفاوتة، كلها صالحة التطبيق وعلى قدم المساواة في الصحة، وأنه لا توجد وجهة نظر موثوقة يمكن القطع بها.

ولعل السجلات الدائرة بين العلم والدين هي المظاهر الكلاسيكية المعبرة عن الصراع الأساسي بين المفاهيم المتنافسة حول مكانة العقل وطبيعته؛ إذ تذهب معظم العلوم والنظريات الفلسفية إلى تأييد الحجة القائلة بأن العقل (على ما يشوبه من أوجه العيب والنقصان) يقدم معيارًا موحدًا ينبغي أن تخضع له وجهات النظر المتباينة، وعليه فأنصار مذهب العقل معادون لآراء "ما بعد الحداثة" الذائعة حاليًا، التي تروج لوجود سلطات أكبر نفوذًا من العقل، كالعرق والتقاليد أو الطبيعة أو القوى الخارقة.

طالما اعتُقد أن الخصال والقيم البشرية ثابتة لا يمكن المساس بها، بيد أن الهندسة الاجتماعية "social engineering" وغيرها من أنماط الهندسة الحديثة حولت تلك الخصال والقيم إلى متغيرات يمكن التلاعب بها، وترتب على ذلك أننا فقدنا المقدمات المنطقية التي يمكن من خلالها التفكير في الوسائل والغايات.

تقدم لنا قوة التكنولوجيا خيارات شتى، ومن ثم تستلَب نقاط البداية الثابتة القديمة، وهو ما يجعلنا نقف مُذبذبين بين هذا وذاك إذ نفكر في القيم والأهداف، وفي مثل هذه الظروف، يُقرَع ناقوس الإنذار وتجارُّ الأصوات بالهتاف: دعونا نؤمن بالآلهة أو بشراب سحري يحل مشكلاتنا أو دعونا نعتقد في الأجرام السماوية أو أيًا ما كان لنعثر على طريقنا. ولربما نقول (لو استعملنا لغة ما بعد الحداثة): دعونا نفهم أنه لا يوجد سوى "خطابات" "Discourses"، كل خطاب منها صالح للتطبيق شأنه شأن ما سواه من خطابات أخرى. ربما تصدق وجهة النظر القائلة بأن التجربة الإنسانية صارت

* مجموعة من الأنماط والسلوكيات البشرية التي نمارسها بقصد أو دون قصد، ويستخدمها المختصون عامة في التسويق لإقناع الجمهور بمنتج بعينه والترويج لمؤسسات بعينها، كما تُستخدم في عالم السياسة من أجل كسب تأييد الجماهير، ويستخدمها الأطباء في بعض الأحيان لحث مرضاهم على اتباع نظام غذائي معين على سبيل المثال من أجل صحتهم. (المترجم)

** من باب التوضيح نقول: ما بعد الحداثة حركة فكرية نشأت في النصف الثاني من القرن العشرين، تهدف إلى تحطيم السرديات الكبرى وتقويض اليقين المعرفي، وإنكار وجود قيم أخلاقية ثابتة، أما الخطابات ومفرداتها خطاب «discourse» فهي مصطلح فلسفي من ابتكار الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، وتحليل الخطاب بحسب فوكو هو التركيز على فهم روابط النفوذ في المجتمع المُعبَّر عنها باللغة والممارسات. (المترجم)

اليوم أكثر تشظيًا وأشد انغماسًا في المفارقات عما كانت عليه في الماضي، وهذا التشظي من شأنه تقويض الثقة في كل شيء، ومع ذلك (وعلى حد قول سدنة المذهب العقلي) يبقى العقل دومًا الإمام الذي يرشدنا ونحن في سبيل البحث عن المعرفة الحقة، وبرغم كل إخفاقاته وقيوده يتحتم علينا الاستمسك به بقوة.

بيد أن كثيرًا من الناس يرفضون هذا الرأي جملة وتفصيلًا، ويقولون إن الحضارة الغربية تمر بأزمة حادة؛ لأننا نقصر إيماننا على العقل وحده، ونعيش في عبودية النموذج المثالي للمجتمع العقلاني، الذي طرحه مفكرو التنوير لأول مرة في القرن الثامن عشر الميلادي، وجاءت نتيجته مخيبة لآمال مفكرين من أمثال فولتير "Voltaire"؛ إذ لم تحرر العقلانية الإنسانية من أغلالها، بل كبالتها في قيود مؤسساتية "corporatism" تسلطية تتعرش خطواتها كلما واجهت كارثة وأخرى، دون أن يقيدتها غرض أخلاقي. وهذه هي الحجج التي يترسّم خطاها المناهضون لفكرة العقلانية.

سعى فلاسفة التنوير إلى إنقاذ الناس من تعسف السلطة الملكية أو الكهنوتية واستبدالها بسلطان العقل، بيد أن آمالهم ذهبت أدراج الرياح بسبب قصر النظر وعدم إدراك المدى البعيد للأمر، وترتب على ذلك تعاظم نفوذ النخب التكنوقراطية.

* تُعرَف أيضًا باسم «الكوربوراتية»، وهي نظام للتنظيم الاجتماعي والسياسي تقوم فيه الدولة بالسيطرة وأحيانًا احتكار بل وخلق جماعات المصالح أو المجتمع المدني الذي يدور في فلكها، ومع بدء المجتمعات في التحديث وخصوصًا إدخال مزيد من التعددية فإن آليات السيطرة الكوربوراتية تبدو شديدة الجاذبية للنخبة الحاكمة، سواء كانت عسكرية أو مدنية. (المترجم)

قصارى القول إنه لم يعد أصحاب رأس المال هم أصحاب اليد الطولى في ما يخص رؤوس أموالهم، ولم يعد للناخبين القول الفصل في المشهد السياسي، وصار المديرون التنفيذيون هم من يملكون زمام الأمور، وهم وحدهم من يقدرّون على التعامل مع التعقيدات الهيكلية للمجتمع، علماً أن الشغل الشاغل للمديرين التنفيذيين -بطبيعة الحال- هو جني المكافآت والأرباح، أما الانتصارات الانتخابية فلم تعد تتشكل وفق قانون الأخلاق.

لقد أطلّت النزعة المؤسسية التسلطية (الكوربوراتية) برأسها على الكتلة الشرقية المنهارة مثلما تطل برأسها اليوم على العالم الغربي، والحقيقة أن التمييز بين الشرق والغرب (كما هو الحال في التمييز بين اليسار واليمين) ليس تمييزاً حقيقياً كما يقول هؤلاء المنتقدون؛ فالفارق الوحيد هو مخيلة الاستراتيجية الإدارية المهيمنة التي يحفظ بها عصر العقلانية ماء وجهه.

في مقدور أي شخص تقديم حجج دامغة على فساد العقلانية لو أننا أحصينا مشكلات الحضارة المعاصرة، وهي الطريقة التي يبرع فيها مناهضو العقلانية براعة فائقة؛ فهم لا يفتؤون يُذكرُونا أن الساسة يتصلّون من مسؤولياتهم عبر التفوه بهذر وهراء خلو من أي معنى، لأن مربط الفرس هو طريقة إلقاء الخطاب، لا محتواه، ويُذكرُونا أن الحكومات تواصل عملها بكل وقاحة برغم فشلها الذريع بسبب غياب مفهوم المسؤولية عن الأذهان، خصوصاً بعد أن أعمى التلفزيون، وطوفان الإعلانات، وتقديس الأبطال المصطنعين كنجوم المسلسلات التلفزيونية وغيرها؛ أعمى الناس عن المأزق الحرج الذي يعيشه العالم.

والحقيقة أن الظواهر السابقة (وما أكثرها في حياتنا) إنما هي أعراض تُعبّر عن الشعور بالضييق العميق، لكن الأسوأ من هذا وذلك ما نراه في تجارة الأسلحة مثلاً، التي تشجعها الحكومات في الوقت الذي تخرج فيه علينا تلك الحكومات بتصريحات تفوح منها رائحة الورع والتقوى عن جهود إحلال السلام وإشاعة الحرية، بينما تعمل تلك الحكومات سرّاً على إجهاض تلك الجهود عبر ضلوعها في ما يرقى إلى تهريب الأسلحة قانونياً، وليس ذلك سوى فصل واحد من فصول مسرحية ازدهار المؤسسات العسكرية المنتشية بهوس الإدارة والتقنية، في الوقت الذي تبتلع فيه الحروب أجزاءً واسعة من العالم. صحيح أن جملة المشكلات السابقة معروفة لا تقول جديداً، لكنها تُذكّرنا بضرورة بقاء عقولنا متيقظة.

لا يقع الذنب في وقوع مشكلات العالم الراهنة على عاتق فكرة بعينها، وعلى الأخص على عاتق فكرة سلطة العقل الأثيرة عند عصر التنوير، بل الواقع أنها واقعة على كاهل البشر أنفسهم؛ فالعقل ليس إلا أداة منوط بها مساعدة البشر لو استعملت على الوجه الصحيح لاستنباط النتائج من المقدمات دون الوقوع في فخ التناقض، ويبقى مؤشر النجاح مرهوناً باختيار المقدمات السليمة، وهي مسؤولية إنسانية بالدرجة الأولى.

لا يختلف إلقاء اللوم على العقل عن إلقاء اللوم على الذاكرة أو الإدراك، مثلاً، كانت عنصرية النازيين هي السبب في وقوع المحرقة، وليس المنطق الذي استعمله النازيون لتطبيق كراهتهم، فهل يقصد النقاد أن استخدام العقل دون قيد ولا شرط أمر مذموم؟ هأنذا أتخيلهم يستعملون منجزات العقل في برامج معالجة

النصوص “Word”، وهم يستخدمون هواتفهم، وكذا وهم يتناولون المضادات الحيوية لمعالجة التهابات الحلق، وها هم يستعملونها أيضًا وهم يضغطون على مفاتيح الكهرباء لالتماس الدفء والضوء عندما يخيم الظلام مُحَمَّلًا بالبرودة، فهل كل منتجات العقل هاته إذن جديرة بالازدراء؟

يتجلى تشوُّش أفكار المناهضين للعقلانية في أوضح صوره عندما نفحص ما يقدمونه من بدائل؛ فهم يُعِدُّون قائمة بالفضائل التي يجب إحلالها محل العقل، من بينها: الروح، والرغبة، والإيمان، والعاطفة، والإرادة، والخبرة. وهنا سرعان ما يتنبه المرء على الفور إلى أن الفضائل السابقة كافة، باستثناء الفضيلة الأخيرة؛ الخبرة، إنما هي القيم التي تغذي روح التعصب وتذكي نار الحروب المقدسة، لو لم تخضع لسلطان العقل. وهنا يكمن فقر وجهة نظر التيار المناهض للعقلانية.

التعليم

”وخدمهم المتعلمون هم الأحرار بحق“.

إبيكتيتوس

إن ما يمهد الطريق لتوطيد أركان مجتمع مدني هو التعليم بالدرجة الأولى، خصوصًا التعليم المنفتح، وتكتسب هذه الوسيلة أهمية كبرى تتجاوز إسهامها في تحقيق هدف النمو الاقتصادي، وهو بكل أسف الهدف الوحيد الذي يستحوذ على عقول الساسة.

ولكي نفهم الدور الحضاري والأخلاقي للتعليم فعلينا كسر دائرة التعريفات الضيقة لكلمة الأخلاق بالمفهوم الشائع في العصر الحديث (أي منذ القرن السابع عشر)، والعودة إلى مفهوم كلاسيكي أكثر شمولًا ورحابة لاصطلاح ”الأخلاق“.

وفق آلية عمل هذا المفهوم اليوم، تُطبَّق الأخلاق على جانب محدد من جوانب الحياة، وعلى بعض جوانب العلاقات الإنسانية، وكذلك على بعض جوانب الشخصية والسلوك؛ فلا أحد يعتقد مثلاً أن أكل الموز قضية أخلاقية، وكذلك اختيار الإنسان للعمل في مصرف أو المشاركة في بناء المجتمع، أو اختيار لون طلاء منزله، وما إلى ذلك. أما الإغريق فأخذ تفكيرهم منحى مختلفًا؛ إذ نظروا إلى الحياة في مجملها نظرة أخلاقية، وقالوا إن الإنسان يعيش

وينهض بواجباته كفرد ذي شخصية متكاملة الجوانب، وإن ازدهار حياته ودرجة تأثيره في ما حوله نابع من تلك الشخصية المتكاملة، ولهذا السبب يجب أن تخضع الحياة للفحص والتأمل (لنتذكر مقولة سقراط التي صدرنا بها الكتاب)، ولا سبيل إلى إخضاع الحياة للفحص والتأمل إلا عبر التعليم والمعرفة.

ومن هنا يأتي دور التعليم المنفتح. وأقصد بالتعليم المنفتح هنا ذلك النوع الذي يشمل تدريس الآداب والتاريخ والفنون، ويضعها على قدم المساواة مع العلوم الطبيعية والتجريبية؛ إذ يفتح الاهتمام بتدريس التخصصات السابقة آفاق العيش بطريقة أكثر التصاقاً بالتأمل والمعرفة الحقة، وخصوصاً في ما يتصل بالتجارب والمشاعر الإنسانية كما نخبرها هنا والآن، وكما قرأنا عنها في الماضي، وهو ما يفضي بنا إلى فهم اهتمامات الآخرين واحتياجاتهم ورغباتهم فهمًا أفضل، ومعاملتهم معاملة لا تخلو من الاحترام والتعاطف، مهما اختلفت اختياراتهم ومهما تباينت التجارب التي شكلت حياتهم.

وعند مقابلة الاحترام والتعاطف بالمثل من الطرف المقابل، ستكون النتيجة هي التحلي بروح التسامح، وردم الفجوات التي تؤدي إلى التشاحن بين البشر، وإلى نشوب الحروب في نهاية الأمر، وكفى بالأخيرة حلاً.

هي رؤية طوباوية بالطبع؛ لا جرم أن وُجد بين ضباط قوات الأمن الخاصة النازية "SS" من كان يقرأ أعمال جوته، ويستمتع لموسيقى بيتهوفن، ثم يتوجه بعدها رأسًا إلى مباشرة عمله في غرف الإعدام بالغاز، ومن ثم فالتعليم الليبرالي لا ينشئ أفرادًا أفضل إنشَاءً تلقائيًا،

لكنه يشمر ثمارًا طيبة في كثير من الأحيان، وهي -بطبيعة الحال- أطيب من ثمار الغباء والأناية التي نجنيها من وراء الافتقار إلى المعرفة وفقر البصيرة.

لا شك أن التعليم الليبرالي يمثل نموذجًا مثاليًا آخذًا في التلاشي في العالم الغربي المعاصر، وعلى الأخص في المناطق الناطقة باللغة الإنجليزية؛ إذ اقتصر التعليم بالأساس على فئة الشباب، لكنه لم يعد تعليمًا ليبراليًا كما شرحنا آنفًا، بل أمسى عملية أقل طموحًا، ومُوجَّهة إلى أهداف بعينها تتمثل في تأهيل الشباب للالتحاق بسوق العمل، وهي مسألة لا يمكن التقليل من أهميتها بطبيعة الحال، لكن ذلك التعليم الكلاسيكي لا يخلو من ضرر بالغ.

أما غاية التعليم الليبرالي فهي تنشئة أفراد قادرين على مواصلة التعلم بعد انتهاء فترة التعليم الرسمي، قادرين على ممارسة التفكير وطرح الأسئلة وكيفية العثور على الإجابات عند الحاجة، وهي مسألة جوهرية، خصوصًا في حالة التعاطي مع الإشكالات السياسية والأخلاقية في المجتمع التي تطرأ على المجتمع دائمًا وأبدًا، وسيتحتم التعاطي معها مرة بعد أخرى، لذلك لا سبيل إلى نشوء مجتمع مدني مستدام إذا حُرِمَ أفرادُه من القدرة على التأمل والاستبصار، وإذا لَقِنُوا تعليمًا فقيرًا رديًّا.

صحيح أن بلوغ مستويات تعليمية رفيعة مسألة باهظة الثمن، وتتطلب تمويلًا سخيا من المجتمع، لكن تحقيق مستوى تعليمي عالي الجودة هو الفوز العظيم؛ فالتعليم المتطور يعد بتخريج جيل من المتعلمين يتجاوز دورهم دور جنود مشاة يشاركون في معترك

معركة النضال الاقتصادي، ليصير دورهم تقديم الدعم إلى الآخرين في الحصول على مزيد من التجارب الاجتماعية والثقافية، وعيش حياة أكثر ثراءً وأشد انغماسًا في المشاركة داخل مجال العمل وخارجه، وخصوصًا في وسائل الترفيه الاجتماعي، وفي مسؤولية المدنية والسياسية؛ فالأفراد المتمتعون بسعة الاطلاع وعمق التأمل هم الأكثر ميلًا إلى مراعاة مشاعر الآخرين مقارنة بالجهلاء، الضيقي الأفق، الأنانيين، المفتقرين إلى التحضر بالمعنى الرحب للكلمة، وهو السلوك الذي صار مُمَيِّزًا لكثير من التجارب الإنسانية اليوم.

لا ينكر أحد أن التعليم صار النواة الصلبة للحياة والعمل في الاقتصاديات المتقدمة؛ إذ تطلب النماذج الاقتصادية الحديثة عمالة مُدرَّبة ماهرة ومتحمسة، وهذه العمالة لا يمكنها أن تجني ثمار الفرص الاقتصادية إلا لو كانت مهيأة للتعامل مع متطلبات تلك الاقتصاديات. لقد تلقينا الآن كثيرًا من الحكمة.

يكمن جانب كبير من مشكلة التعليم الراهنة في أن الصلة بين التعليم والتأهيل لسوق العمل صارت وثيقة للغاية. قديمًا، قال أرسطو إننا نُثَقِّف أنفسنا لنتمكن من استثمار أوقات فراغنا استثمارًا أمثل، وهي وجهة نظر مناقضة تمامًا للاعتقاد السائد حاليًا بأن غرض التثقيف هو الحصول على وظيفة، وانطلاقًا من هذه الرؤية فالنظرة المعاصرة تشوه الغرض من التعليم باعتباره غاية لا ترمي إلى تنمية الأفراد، وإنما باعتبارهم تروسًا في دولاب العملية الاقتصادية. يكمن مفتاح الحل في ضرورة فهم الفارق بين التعليم "education" والتدريب المهني "training"، كما يكمن في

إدراك أن الناس محتاجون إلى كليهما سواءً بسواء، وألا نخجل من إيلاء العناية للتدريب.

فالأطفال الصغار محتاجون إلى التدريب على جداول الضرب والقراءة والتهجئة والكتابة، تمامًا كما يُمرّن الرياضي جسده، ومن هنا لا بديل لمواصلة التدريب والتكرار والممارسة. وعندما يكتسب الأطفال مجموعة من المهارات، يستطيعون تطبيقها على الأشياء التي حولهم، مما يمنحهم الثقة بالنفس ويزودهم بالمواد اللازمة للانتقال إلى الخطوة التالية، ألا وهي التعليم الصحيح، بمعنى تعلّم التفكير ومعرفة كيفية العثور على المعلومات واستخدامها متى احتاجوا إليها.

تتضمن عملية التعليم بالدرجة الأولى صقل قدرات الإنسان على إصدار الحكم وتقييم المعلومات. لاحظ الفيلسوف هيراقليطس أن التعلم ليس إلا وسيلة لتحقيق غاية اسمها الفهم، وهذا الفهم هو القيمة النهائية التي يجنيها الإنسان من التعلم.

تعني كلمة التعليم من الناحية اللغوية الاشتقاقية "الإنباء"، أو "إظهار المخبوء"، وهي فكرة تدين بوجودها إلى نظرية أفلاطونية مثالية، ولكنها عميقة الأثر. اعتقد أفلاطون أن لدينا أرواحًا خالدة موجودة مسبقًا، عارفة بكل الأشياء في حالتها غير المادية المتجسدة، ولكننا ننساها بمجرد الولادة، ومن ثم فالتعلم - وفق نظرية أفلاطون - هو التذكر وإظهار ما هو عالق بأذهاننا منذ أمد بعيد.

في فترات لاحقة، حاول عدد من المفكرين إدخال التعديلات على هذه النظرية، وصوغها صياغات أكثر منطقية، فذهبوا إلى أن

التعليم هو استنهاض المواهب والقدرات الكامنة داخل الفرد، لا بعث المعرفة الفطرية. وبالمعنى الحسن للكلمة فهذا الرأي هو الأقرب إلى الغاية المنشودة؛ فنحن لا نزال نعتقد أن قدرات الإنسان قابلة للتنمية والتطوير متى أُتيحت له الفرص المناسبة.

التفوق الإنساني

”يمثل مذهب المساواة تهديدًا صريحًا لنزعة الشعور بالتفوق، وهو الشعور الذي يراه الإنسان الديمقراطي سببًا باعثًا على الحسد وإقصاء الغير، وهو سبب يمكن دحره بسهولة“.

أليكسيس دي توكفيل

عندما وضع ماثيو أرنولد “Matthew Arnold” قبل مئة سنة كتابه “الثقافة والفوضى”، وصف السعي وراء التفوق الإنساني في معرض تعزيز الثقافة بالكلمات الآتية: “إن السعي وراء التفوق في مناحي الحياة كلها هو معرفة أفضل ما تفتقت عنه قريحة البشرية وأفضل ما قالته، وعبر هذه المعرفة، سنرشد مفاهيمنا وتقاليدينا برافد من الأفكار الجديدة الحرة“.

عمل أرنولد مفتشًا تربويًا بالمدارس، وكان مؤازرًا قويًا لنهج تطوير التعليم الراقى، مؤمنًا بضرورة تحقيق التفوق في مضمار التعليم، لا باعتباره وسيلة لخدمة المصالح الاقتصادية وحسب، بل بغرض تنشئة مجتمع مثقف يرقى إلى تحقيق المثل الأعلى الذي ذهبت إليه مقولة أرسطو الأنفة الذكر حول التعليم والاستثمار الأمثل لأوقات فراغنا.

* كاتب وناقد ومصلح تربوي إنجليزي تُوفِّي سنة 1888. (المترجم)

من أقاصي الصين حتى حدود فرنسا، تطمح كل دولة متطورة أو طامحة إلى التطور إلى إنشاء طبقة تعليمية نخبية، تضم العقول الأكثر نبوغاً وتمنحهم أفضل تدريب فكري ممكن، وهو ما يُطبق الآن فعلياً على الأطفال في الصين وهم في عمر الزهور من خلال تطبيق آلية تعمل على انتقاء صفوة الأطفال وألمعهم ذهنًا وإلحاقهم بمدارس خاصة، أما في فرنسا فيتأسس نظام جامعات الصفوة "Hautes Ecoles superior universities"، وهي الجامعات التي تشتد المنافسة بين الطلاب على الالتحاق بها؛ أقول يتأسس النظام على فرز المواهب الممتازة وإخضاعها لنظام تعليمي صارم، والقصد في الأحوال كلها تعزيز العقول الأفضل للحصول على أعلى مستوى تعليمي متاح في مجالات العلوم والهندسة والقانون والإدارة الوطنية والطب والفنون.

ثمة فئة قليلة تعارض الأساس المنطقي لهذا النهج، نستثني منها من يرون أن ضريبة المساواة الاجتماعية هي تحقيق مستوى عالمي متوسط القيمة للتعليم، لكنه رأي ينطوي على خطورة أن تصير وسائل تنمية التفوق التعليمي ضحية للمناداة بالقيمة المتوسطة؛ ففي حالة فشل وسائل تنمية التفوق التعليمي نفسها، يصير المال والنفوذ معيارين إضافيين.

في كثير من دول العالم (وربما أقول أغلبها)، يشكل المال والنفوذ العاملين المحددين لمعيار المزايا الاجتماعية، حتى في ظل تطبيق معايير الاستحقاق والجدارة العادلة؛ ففي الولايات المتحدة، يغدو المال ضرورة لو رغبت في الحصول على مزايا اجتماعية، بينما تكون عضويتك في الحزب الحاكم في الصين ميزة داعمة.

صحيح أن الأثرياء وأصحاب النفوذ والعلاقات لا تنطبق عليهم فئة الصفوة التي ينبغي للنظام التعليمي أن يربعاها، ولكن من السهل أن تستخدم الصحف والاساسة الشعبويون مصطلح الصفوة استخدامًا تحقيريًا للإشارة والتعريض بتلك النخب الظالمة، في حين أنهم سرعان ما يجأرون بالشكوى لو خيَّب الأطباء أو المعلمون أو الرياضيون في المنتخبات الوطنية آمالهم في تحقيق النتائج المرجوة. قصارى القول: لن يكونوا صفوة تحت أي ظرف بالمعنى الصحيح للكلمة.

ومع أن عالمنا لا يضم إلا عددًا قليلًا من الديمقراطيات الحقيقية (على افتراض وجودها من الأساس)، فأغلب الأنظمة، التي تحمل ذلك الاسم، هي حكومة أقلية مُنتخبة، لكن الروح الديمقراطية تستثمر نمط الحياة الغربية دومًا لصالحها، سواء في الخير أو في الشر، فأما الخير فيكمن في ممارسة الضغوط لمعاملة الجميع معاملة عادلة، وأما الشر فيكمن في ممارسة الضغوط لجعل جميع المواطنين متشابهين. والنزعة الأخيرة ترمي في الحقيقة إلى جعل الناس نسخًا مكررة من أنفسهم، إنها دفعة ناحية الأسفل، دفعة تكره التفوق الإنساني؛ فالتفوق الإنساني يُبرز قمم الجبال الشامخة، بينما الديمقراطية في نسختها السلبية لا تريد إلا رؤية السهول المنبسطة.

لا ينبغي للديمقراطية أن تختزل البشر وإنجازاتهم في نماذج مُقوّلة مشتركة الخصائص، بل عليها الارتقاء بهم ارتقاءً طموحًا قويًا إلى مصاف تقارب درجة المثالية، وهو ما يعني الحاجة إلى وجود مؤسسات، وعلى رأسها المؤسسات التعليمية، وهي أفضل المؤسسات قاطبة، وهي على رأس الأولويات.

الطموح

”للعبد سيد واحد، أما الطَّموح فعدد أسياده
يساوي عدد من يعتقد أنهم قادرون على نفعه“.

جان دي لا برويير

من المفهوم أن ندرك سبب المتعة التي تغمرنا إذ نشاهد سقوطًا مدويًا لرجل متغطرس راهن بالحقيقة وبنزاهة ضميره لأجل لفت أنظار الجمهور. يحضرني هنا مثل من بورما يقول: ”من يخطُ خطوات واسعة فسيترك وراءه فجوات أوسع“، لكنها في واقع الأمر فجوات غالبًا ما تسدها المشكلات والعقبات. وهذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه من أقل نجمهم من الساسة أو الشخصيات العامة.

ومع ذلك أقول إن الطموح سيد عديم الرحمة، ومن السهل أن ينسى الممثلون بالطموح أو يتجاهلوا تلك الدروس القادرة على إنقاذهم من براثنه. ربما يقول بعض الناس إن نفاذ الصبر (لا الرغبة) هو ما يطيح بأحلام الإنسان الطَّموح (ثمة مخلوقات قادرة على الجري بسرعة فوق سطح الماء إلى درجة أنها لا تغرق، لكن هذا يحدث لبعض الوقت فقط).

ومع أن طموح البشر إلى إحراز النجاح الدنيوي من مال وسلطة وألقاب قد يفضي بهم إلى فقدان الأعصاب ونفاد الصبر (وهو ما يحدث في كل الأحوال تقريباً)، لكن الطموح وحده هو الذي يفسر إصرار الشخص - حتى بعد أن يُقبَض عليه - على تزييف الحقائق لإخفاء مسروقاته، أو لإنكار الحفلات التي اقتحمها، وكذا التنصل من مخالفة القيادة خطأً في الشوارع ذات الاتجاه الواحد، وإجمالاً لإخفاء صنوف الكذب الصغرى والكبرى التي شق طريقه من خلالها ليحتل مقعداً في الصف الأول من مسرح الحياة دون امتلاك تذكرة. وهي مسألة محفوفة بالأخطار.

وضع تاسيتوس "Tacitus" إصبعه على الجرح إذ قال: "إن أولئك الذين يهدفون إلى تأسيس إمبراطورية أمام خيارين: إما النجاح المظفر وبلوغ القمة، وإما الفشل والسقوط في الحضيض"، قاصداً بذلك تاريخ أوروبا الملطخ بالدماء بعد موت الإمبراطور أغسطس، لكنها - مع ذلك - نقطة قابلة للتعميم. بوجه عام، يعتمد البشر الطموحون على مساعدة غيرهم في الأوقات الحرجة، لكنهم قد يخاطرون لو تركوا من وقفوا إلى جانبهم في الماضي بعد الصعود، فيحولونهم إلى خصوم.

ليس الطموح شراً في حد ذاته، مع أن ميلتون "Milton" يصف الطموح بأنه "وصمة العار الأخيرة في العقول النبيلة"، بل أقول: حتى من يرون الطموح رذيلة (كما تروج التعاليم الدينية الأخلاقية التي تمجد فضيلة التواضع، وضرورة أن يعرف المرء قدر نفسه)،

* مؤرخ وسياسي روماني، يُعدُّ أعظم المؤرخين الرومانيين عبر العصور. (المترجم)

حتى أولئك متفوقون على أن الطموح غالبًا ما يكون أسُّ الفضائل على ما يعتوره من نقصان، وخير من هذا وذلك لو نظرنا إلى فكرة الطموح بوصفها الركيزة الأساسية التي تتأسس عليها الإنجازات والاكتشافات العلمية، والأعمال الفنية، وتعزيز المصلحة العامة.

لا بأس من رغبتك في الارتقاء إلى مصاف الشخصيات التي بلغت شأنًا عظيمًا في الماضي، شريطة أن تدرك مقومات ذلك. قصارى القول: إن الطموح الجدير بالسعي هو الطموح المسؤول، وهو الطموح المستعد لسداد ضريبة تحقيقه، أما الطموح لأجل الطموح ذاته فمراده الوثب وثبة عالية دون بذل أي مجهود، باحثًا عن سلم سهل المنال يرتقي درجاته!

وخير مثل لتوضيح الفارق بين نوعي الطموح الأنفين هو موقف شخص يقول إنه يرغب في أن يكون كاتبًا، وآخر يقول إنه يرغب في الكتابة؛ فغاية الأول أن يُشار إليه بالبنان في حفلات التوقيع، أما غاية الثاني فهي الرغبة في الانكفاء منعزلًا ساعات طويلة على مكتبه؛ يرغب الأول في المكانة، بينما يرغب الثاني في عملية الكتابة؛ يرغب الأول في أن "يكون"، بينما يرغب الثاني في أن "يكتب".

لا جدال في أن أغلب ألوان الطموح تتجاوز المطامح النبيلة، بل لا تعدو كونها "طموحًا جامحًا"، يصفه الشاعر درايدن "Dryden" بأنه الطموح الذي يحب ممارسة التزلق، لا الوقوف، بينما جليد الحظ يُفضِّل الوقوف على أرض الفضيلة.

* جون درايدن: أحد أشهر الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر. (المترجم)

إنه ذلك النوع من الطموح الذي يستنزف الآخرين، ويستنزف فضائل الصدق والثقة، وفي النهاية يستنزف نفسه (هذا بالطبع إذا ما اكتشف من الأساس)، والحق أن بعض الناس يظنون أن اكتشاف ذلك النوع من الطموح هو الخطيئة الوحيدة التي قد يرتكبها إنسان حقًا.

التمثيل

”تكمن براعة الممثل الموهوب في ما يخبرنا به من أشياء
دون أن ينطق بكلمة واحدة“.

سيدريك هاردويك [ممثل ومخرج بريطاني]

يظهر أن الحاجة إلى سرد القصص، أو بالأحرى إلى تمثيل
قصص تجاربنا هي حاجة بشرية، بل حاجة بشرية ذات طبيعة كونية.
ولو نحينا مسألة القيمة الترفيهية جانبًا لوجدنا لتلك الحاجة أسبابًا
عدة؛ فنحن نشاهد حكايات عن حياة تشبه حياتنا، وأخرى مختلفة
عنها، أو نقرأها؛ لنفهم أنفسنا فهمًا أفضل، ولنفهم إمكانات الوجود
الأخرى، وأحيانًا نفعل ذلك للهروب من كليهما.

وإن إحدى الطرق الفعالة لفعل ذلك هي فن الأداء، وخصوصًا
في السينما والمسرح، الذي يعيد واحدًا من أعرق الفنون، وهو فن
الرواية، من خلال الأداء التمثيلي الحي.

في وسع الإنسان أن يتخيل أسلافه الأولين يتحلّقون حول النار
ليلاً لإعادة حكي الأساطير عن الآلهة والأبطال والصيد، إما وهم
يؤدون طقوس الرقص أو الغناء، وإما وهم يشاهدون الشعراء يحكون
تلك الأساطير على ضوء النيران وهو يؤدون أدوارهم فوق خشبة
مسرح والنجوم تحفهم، فيجترحون الإيماءات، ويغيرون طبقة

أصواتهم لملاءمة جو القصة، تشجعهم هتافات المتفرجين. لا شك أن الشعراء والمؤرخين الأقدمين كانوا ممثلين بالضرورة؛ فالممثل المحترف ليس مجرد بوق يعيد ترديد كلمات الكتاب المسرحيين؛ إذ تربطه [أي الممثل] العلاقة نفسها مع النص المسرحي، مثلما يرتبط الملحن بالموسيقى.

إذن، كان يتحتم عليهم فهم تأويلات معاني النصوص المختلفة، ومعرفة ما سيفهمه جمهور المشاهدين من طرائق الآخرين في الكلام والظهور والحركة والفعل، ومن ثم فإدنى المهارات تستلزم تحليلهم بالقدرة على التأويل والتمثيل، ومن خلال ربط التأويل بالتمثيل، يعكس الممثل العالم، ويحمل المشاهدين على الاعتقاد بأنهم يرون الحقيقة في الصورة الماثلة أمامهم.

كان شكسبير مغرمًا بالتأملات التي تذهب إلى أن المسرح صورة مُصَغَّرة للعالم، وأن العالم صورة مُكَبَّرَة للمسرح، فقال عبارته الشهيرة: "عندما يكون العالم مسرحًا يصير جميع سكانه ممثلين، وتمسي حياتهم سلسلة من المشاهد، تبدأ بمشهد الرضيع الذي يبكي ويتقيأ بين ذراعي ممرضته، وصولاً إلى دخول الشيخ الطاعن في السن إلى مرحلة الطفولة الثانية، حيث تكون حياته نسياناً مقيماً لكل شيء".

بيد أن الناس أيضًا ممثلون بأشكال تتجاوز هذا الدور. ونحن نتحدث عن الأدوار المختلفة التي نلعبها، نؤدي كثيرًا منها في الوقت ذاته، بوصفنا أطفالاً وآباء، وزملاء وأصدقاء، وعملاء ومستهلكين،

ومتفرجين ومشاركين، فنضبط أدوارنا تبعًا لرفقاء اللحظة أو الظروف التي نجد أنفسنا فيها.

ونتيجة لذلك فقد نلعب في اليوم الواحد سلسلة من الأدوار، بعضها مختلف عن غيره تمام الاختلاف، ومع ذلك فجميعها تمثل حقيقة نفوسنا، وجميعها تعبر عن جوانب شتى من هوياتنا، من حيث هي هويات أكبر تعددًا، وأشد تنوعًا وتطورًا مما كنا نظن، حتى لو كانت محصلة تفاعل تلك الأدوار كلها تخلق شخصية مستقرة الهيئة في مظهرها حيال العالم الخارجي، مثلها كمثل صوت وتر مكون من كثير من النغمات المختلفة.

يظهر لعب الأدوار في حياتنا اليومية ظهورًا طبيعيًا لا اصطناع فيه؛ فالحياة اليومية تقتضي ذلك، ومن المفيد أن ننتبه إلى تلك الحقيقة، بحيث لا يتعين على الإنسان أن يكون مستعدًا لتمثيل دوره عند الحاجة وحسب، بل أن يصير فاعلًا إذا لزم الأمر؛ فالكلمتان يمثل ويفعل، لهما الجذر الاشتقاقي نفسه في الفعل اللاتيني "ago, ageie, egi, actum" وتعني يفعل، ويحدث على، ويقود، ومن ثم فلعب المرء لدور ما ونهوضه بدور ما يعني أن يكون نشطًا فاعلًا، لا سلبيًا خاملًا، بمعنى أن يتولى مسؤولية نفسه وأن يُحدث فارقًا في الحياة بمحض اختياره.

يساعدنا النظر إلى إنسان بوصفه عضوًا في فرقة تمثيلية على قراءة ما بين السطور؛ إذ تفسر هذه النظرة الصعوبة التي يصادفها كل إنسان وهو يحاول تعريف كلمة "فهم نفسه"، على الأقل حتى يحصل كل فرد من أعضاء الفرقة التمثيلية على دوره المقسوم على خشبة مسرح

الحياة، ومن ناحية أخرى تفسر هذه النظرة خطأ الاعتقاد بأن ثمة طريقاً مفروضاً بالورود - كطريق العلاج النفسي مثلاً - قادراً على مساعدة الفرد في العثور على حقيقة ذاته؛ إذ تُبيّن هذه الرؤية وجود طرق عدة تفضي بنا إلى حقائق عدة حول فهم ذاتنا، أو على الأقل تخبرنا أن علينا قطع أسفار طويلة قبل أن نستطيع فهم العلاقات الرابطة بين تلك الحقائق، وهو ما يفسر لنا مدى صعوبة أن "نكون على طبيعتنا" متى طُلب منا ذلك، اللهم إلا إذا كانت لحظة اقترابنا من مركز ذاتنا هي لحظة مفارقة الوعي، ولحظة شعورنا بالسعادة لمفارقة ذلك الوعي.

الفن

”أنت تستخدم المرأة لترى وجهك،
وتستخدم الأعمال الفنية لترى روحك“.

جورج برنارد شو

ذات مرة، أُجْرِي استطلاع رأي للوقوف على وجهات نظر المراهقين في زيارة المتاحف والتردد على المعارض الفنية ودور المسرح. لم يكن من قبيل المفاجأة أن كشف الاستطلاع عن كراهية السواد الأعظم من المراهقين لهذه الأماكن؛ إذ رأوا فيها أماكن مملة، وربطوا بينها وبين الأماكن التي يختلف إليها ”كبار السن الأثرياء“.

خلص الاستطلاع إلى أن دور الفنون، لو وفرت مزيداً من المقاهي، وقدمت مزيداً من الأنشطة الترفيهية، وقصّرت مدة العروض الفنية، لربما زاد إقبال المراهقين على زيارتها. لم يتنبه أحد لحسن الحظ إلى نتيجة هذا الاستطلاع؛ فكلامه لا يأتي بجديد، علاوة على أن الأمور طالما مضت على هذا النحو.

والحقيقة أن قاعات العروض الفنية والمسارح لو حاولت اجتذاب جمهور المراهقين فسُئِمْنِي مساعيها بالفشل الذريع، فضلاً عن كونها سَتُفَرِّ الجمهور الرئيسي لها. طالما كانت الفنون (وستبقى

على الدوام) هواية الأقليات. قال هنري ميلر: "لا يُعلِّمنا الفن شيئاً، اللهم إلا أهمية الحياة"، بيد أن معظم الناس يقفون عند النصف الأول من الجملة فقط.

الخبر السار أن زيادة عدد السكان تعني زيادة عدد الأقليات، ومن ثم عدد الأفراد الذين يتذوقون الفنون أكبر من أي وقت مضى؛ فالمعارض مزدحمة، والحفلات الموسيقية محجوزة بالكامل، وهو ما يعني اكتشاف مزيد من الناس ثراء المتعة والبصيرة التي توفرها الفنون. قال بروس: "بفضل الفن، نستطيع رؤية عوالم متعددة متضاعفة بدلاً من رؤية عالم واحد، وهو عالمنا، وبقدر ما يوجد من فنانين ذوي موهبة أصلية توجد عوالم كثيرة تحت تصرفنا". إن النزعة الفلسفية "philistinism" ليست نزعة عالمية شائعة في أوساط المراهقين، وإنما هي مرحلة تتخذ طابعاً احترافياً عند كثيرين. فازدراء المراهقين المزعوم للفنون غير منصب على الفنون ذاتها في حقيقة الأمر، بل منصب على أنفسهم؛ لأنهم لا يستشعرون في أنفسهم استعداداً لتقبُّل ما تقدمه الفنون إليهم، فيشعر بعضهم بالحاجة إلى مزيد من المحتوى الشائق، ومزيد من المتعة في ما يُعرض عليهم، عندها سيلمسون في أنفسهم نزوعاً إلى الفن. قال باتر "Pater": "يهبط عليك الفن ويدخل في روعك أنه سيعرض عليك رؤية أروع لحظات حياتك إذ تمر أمام ناظريك". لو قُبِلت

* الفلسفية: مصطلح ازدرائي لوصف الموقف الاجتماعي الذي يحتقر الفن والجمال والروحانية. (المترجم)

** المقصود والتر باتر، وهو ناقد وكاتب مقالات إنجليزي من القرن التاسع عشر. (المترجم)

هذه الدعوة مرة، فلا يمكن رفضها بعد ذلك أبدًا؛ إذ لا تضمن لك مظاهر التقوى الخداعة بلوغ الحقيقة، بينما تقدم الفنون ضماناً مألوفاً لذلك، وتحديدًا في اللحظة التي ينغمس فيها الشعور المتبصر المتذوق في الفنون، فينهل من رحيقها، ويتعلم منها أشياء كثيرة، أقلها أن يكون ذا بصيرة ثاقبة.

من بين ما قاله باتر أيضًا: "إن بلادة العين وحدها هي ما تجعلنا نرى شيئين يبدوان متشابهين". وتتحول فكرة تفرّد الأشياء وخصوصيتها من لوحة مثلًا أو لحظة رقص لتنسحب على ظرف أخلاقي أو معاناة إنسان ما، وبهذه الطريقة يخضع الفن للتحضر أيضًا؛ لأنه - كما يقول برنارد شو - مرآة للأرواح. ربما يصعب على الشباب تقدير الفنون؛ لأن الفنون نفسها في حالة شباب دائم لا يذبل. قالت أجنيس ريبليز "Agnes Repplier": "ليس الفن ذا طابع تعليمي أبدًا، ولا يتعامل مع الحقائق تعاملًا لينًا سلسًا، وهو مغلوب على أمره حيال التعامل مع النظريات، وأقل موعظة كافية لإزهاق روحه". ربما كان في مقدورها أن تضع كلمة "الشباب" عوضًا عن كلمة "الفن" في بداية الجملة.

يجانب كثير من الناس الصواب عندما يتعاملون مع الفن كما يتعامل المرء مع زينة يتزين بها في المناسبات الخاصة، وعندما يظنون أن الفن مفتقر إلى روح الفكاهة، وعاجز عن تغيير شيء، بينما الحقيقة خلاف ذلك، ولا شك أن القادرين على اكتشاف تلك الحقيقة يتمتعون بثراء لا حدود له.

* كاتبة أمريكية تُوفيت سنة 1950. (المترجم)

الصحة

”عندما نتمتع بالصحة، نغدو قادرين
على إسداء النصيح إلى غير الأصحاء“.

ترنيوس [كاتب من عصر الإمبراطورية الرومانية]

قبل ألفي سنة، نصح المؤرخ الإغريقي بلوتارخ الناس باتباع
حمية غذائية معتدلة، والمواظبة على ممارسة الرياضة، وأخذ قسط
وافر من النوم كأساس للصحة السليمة. ومنذ ذلك الوقت، لم يطرأ
على الجنس البشري ما يجعل تلك النصيحة نصيحة عَفَى عليها
الزمن.

ومع ذلك فقد جرت في النهر مياه كثيرة جعلت بلوغ الأمور الثلاثة
السابقة غاية عزيزة المنال. يحفر الناس قبورهم بأيديهم كما يقول
المثل السائر؛ إذ تتراخي عضلات أجسامهم وتكتسب مزيدًا من
الشحوم، وتزداد ترهلًا من جراء الخمول الجسماني، بينما يسلبهم
الإجهاد العصبي راحتهم، حتى إن أجسامهم لتتجافى عن المضاجع
ويتأوهون وهم على أسرّتهم من فرط الانزعاج ما لم تُسَكِّن أوجاعهم
الحبوبُ المُنوِّمة أو المشروبات الكحولية.

لمعالجة هذا المرض (أو لنقل هذا النكد)، قدّم الفيلسوف
البريطاني برتراند راسل “Bertrand Russell” وصفة طبية

بسيطة، لكنها ناجعة، فقال: "إن مفتاح السعادة هو الشعور بالقلق على الأشياء التي تستحق منك القلق، فلو أعييتك الحيلة لتسوية ديونك البنكية قبل أن يطلع عليك النهار، فيجب عليك التوقف عن التفكير في الأمر حتى تجد حلاً عملياً ناجحاً".

تنقسم الآراء كالعادة حول طبيعة نصيحة بلوتارخ السابقة. ثمة مثل إسباني يقول: "لو أردت العيش بصحة جيدة فلتتقدم في السن مبكراً". وهو ما يتناقض مع مطالبة ج. ب. شو المبهجة التي تقول: "استهلك صحتك حتى الرmq الأخير؛ فهذا هو علة وجودها، وأنفق كل تملك قبل أن تموت، ولا تُعمر طويلاً".

كان برنارد شو رجلاً نباتياً، ممتنعاً عن معاورة الكحول، وعمر حتى ناهز التسعين وهو في أتم صحة وحال، وهو ما لا يؤهله لحث الآخرين على ترسّم خطى دوريان جراي. أما اليوم فيتردد مزيد من الناس على الأطباء أكثر من السابق، ويحدث هذا ونحن ننعّم بصحة أفضل وعمر أطول من الأجيال السابقة. إلى أي اتجاه تمضي العلاقة بين الصحة والتردد على الأطباء؟

هل يتمتع الناس بصحة أفضل لأنهم يكثرون من التردد على الأطباء، أم أننا أفضل صحياً بسبب النظام الغذائي واتباع النظافة الشخصية لكن جهازنا المناعي أقل تحملاً للأمراض البسيطة؟ يشير بعض الناس إلى أن الأطباء حلوا محل كهنة الاعتراف في الكنائس، وصارت أقراص عقار "بروزاك" (مضاد الاكتئاب) صك الخلاص، ويبدو أن ثلث زيارات عيادات الجراحة مرتبط في الأساس بمشكلات نفسية.

تأتي كلمتا الصحة والكمال من الجذر نفسه، وهي الكلمات ذات الأصول الساكسونية القديمة والكلمات الإنجليزية المبكرة مثل "hool" و"heil" و" hail"، على نحو ما نجد في كلمة "hale and hearty" أي موفور الصحة، وكلها تحمل معاني "غير مجروح"، "لم يمسه السوء"، "سليم".

تعكس هذه المفاهيم بدورها الفكرة القديمة القائلة إن الصحة هي شكل من أشكال السلامة الجسدية والعقلية. ومعنى السلامة هنا عدم وجود شيء مفقود، أو غير منضبط في التوازن القائم بين "الأخلاق الرطبة، والباردة، والساخنة، والجافة" على حد تعبير الفلاسفة الأقدمين الذين أسسوا على هذه الفكرة نظامًا طبيًا قوامه الوقاية أولاً، واتباع الحمية الغذائية ثانيًا.

وكان أشهر أولئك الطبيب جالينوس -طبيب الإمبراطور ماركوس أوريليوس- الذي بدأ دراسته في الحرم المحلي المرموف أو "Asclepieum" المُكرّس لإله الطب أسكليبيوس بوصفه معالجًا (أو ممرضًا)، فطوّف بأرجاء الإمبراطورية الرومانية لتحصيل المعارف الطبية، وبعد أن عمل جرّاحًا للمصارعين الرومان، درّس علوم التشريح ووظائف الأعضاء لطلاب العلم، ومارس تشريح الحيوان لأغراض بحثية، فعلم تلامذته أن الهواء هو العنصر الأساسي لنشوء الحياة، وقال إن الدم الوريدي والشرياني يشكلان نظامين مختلفين للدورة الدموية.

بسبب طابعها الذاتي، لا يوجد تعريف مُرضٍ تمامًا لكلمة الصحة، لكن واحدًا من الاقتراحات الجيدة لتعريفها هو أنها النعمة التي تملكها عندما لا تلاحظ أنك تملكها. لكن ذلك لا يعني الاتفاق مع ما ادعاه أوليفر ويندل هولمز "Oliver Wendell Holmes" عندما قال: "كلما أوليت عناية أقل إلى صحتك كان ذلك خيرًا لك". وهي نصيحة سيئة؛ فالصحة جديرة بالتفكير وإيلاء الرعاية، والوقاية خير من العلاج، والعلاج المبكر يأتي في المرتبة الثانية، وكلا الأمرين يستلزم قدرًا معقولًا من الانتباه.

ليست الصحة غاية في حد ذاتها، بل هي الأداة الرئيسية للتمتع بالحياة. قال تشيستر تون "Chesterton": "الصحة موجودة لأجل الحياة، والحياة موجودة لأجل حب الموسيقى وفعل الأشياء الجميلة"، وهو على حق في كلا الأمرين.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وقت الفراغ

”العمل هو أعظم متعة نجنيها من الحرية
ومن أوقات الفراغ التي لا ننشغل فيها بشيء“.

مارك توين

يخطط كثير من الناس لقضاء عطلاتهم استعانة بمطالعة
المجلات؛ لتصفّح الإعلانات التي تعرض فرص العطلات بدءًا من
رحلات جبال الأنديز الشهيرة على صهوة المُهر الصغير، وصولاً
إلى رحلات السفاري في زيمبابوي. بيد أن اختيار أغلبهم يقع على
الشواطئ التي تبدأ بحرف الأبجدية ”M“، مثل: مايوركا، مالقة،
المغرب. ينظر السواد الأعظم من هؤلاء إلى العطلات بوصفها
أوقات ترفيه مثالية، غرضها نيل قسط من الاسترخاء والراحة، وليس
المقصود هنا الراحة الجسمانية والذهنية وحسب، بل والتحلل
عمومًا من الواجبات الأخلاقية، حتى لو كانت في صورة قليل من
الانغماس في الملذات؛ فالتحلل من الأخلاق خلال العطلات
من متع الحياة ومباهجها، وهم على حق لو تأملنا أصل كلمة ترفيه
”leisure“، فهي مشتقة من الكلمة الفرنسية ”leisir“ التي تعني
”يُصرَّح أو يُؤذَن له بفعل شيء“، وهي الكلمة المشتقة بدورها من
المفردة اللاتينية ”licere“، والتي يأتي منها الترخيص.

لذلك فوق الفراغ هو رخصة، وهو مرادف لممارسة الحرية بالدرجة الأولى. والمراد بالرخصة هنا التحرر من العمل والواجبات، وهو من شأنه أن يشيع في الإنسان شعورًا بالراحة، ويحمّله على الاستمتاع بوقته ووضع الالتزامات والقواعد جانبًا.

لعل أفضل الأمثلة على مسألة الرخصة المقصودة هي أوقات الفراغ الرومانسية التي يقضيها الناس في أثناء العطلات، والتي تميل إلى أن تشتعل بالحب، أو أن تنتهي بالموت بالقدر نفسه من المفاجأة. ثمة مفاجأة مبهجة لو علمنا أن العطلات تنطوي على فرصة لارتكاب الخطيئة؛ فكلمة عطلة كانت تعني في السابق يومًا مقدسًا "holy-day"، أما اليوم فقد صار مفهوم الترفيه والراحة هو المهيمن والسائد للكلمة السابقة، وحُدّد هذا اليوم ليمثل نقيض فكرة العمل، وهو ما يعكس الرأي القائل بأن العطلة مرغوبة أكثر من العمل. في كتابه الذائع الصيت "نظرية الطبقة المُرفَّهة"، ادّعى ثورستين فيبلين "Thorstein Veblen" أن حياة الفراغ هي أرقى أشكال الحياة وأروعها.

ينشد معظم الحالمين بالفوز باليانصيب الانتقال إلى تلك الطبقة المُرفَّهة من خلال ترك وظائفهم وأخذ الحياة ببساطة، وتمضية أوقاتهم بين التمشية على الشاطئ، ولعب الجولف، والسفر، والإنصات إلى صوت تسرُّب مياه الصنبور، وترك أعشاب الأرض

* عالم اقتصاد واجتماع أمريكي، كان قائد حركة الاقتصاد المؤسسي، اشتهر ببراعته في نقد الرأسمالية كما هو موضح في أشهر كتبه «نظرية الطبقة الغنية» الصادر سنة 1899. (المترجم)

تنمو (هذا لو استعرنا تعبير ماريا مانس "Marya Mannes")*. ومع ذلك فلا يمكن لوقت الفراغ أن يكون أفضل من العمل (باستثناء الأعمال المُجهدَة أو الشاقة خصوصًا) إلا لو كان وقتًا مفعماً بالنشاط والحيوية؛ إذ سرعان ما يتحول الكسل بعد فترة من الوقت إلى عبء يثقل كاهل صاحبه، وكما يقول ويليام كوبر "William Cowper" ** ملوحًا بإصبعه: "إن عدم الانشغال بعمل ليس راحة البتة، والعقل الفارغ هو عقل مكروب بائس"، وعلى ذلك لا يخلو من حقيقة. إن ما أعلنه أرسطو من مشاعر سامية بشأن استثمار أوقات الفراغ يعزز من فكرة أهمية تحوُّلها إلى فرصة سانحة للاستمتاع بما يفجر طاقاتنا الإبداعية، كالاستمتاع بمتابعة الأنشطة الفنية، وممارسة التأمل، وتعميق الفهم المشترك، وتوطيد أواصر الصداقة مع الآخرين، والسعي إلى التميز. وإذا كان العمل معنيًا بتأمين ضروريات الحياة، فالترفيه معني بتنمية مستلزماتها. تشيع على الألسنة عبارة تقول إن وجود حضارة متقدمة يستلزم بالضرورة توفر أوقات الفراغ؛ فإنتاج الفن والاستمتاع به يحتاجان إلى وقت ومساحة نفسية كافية، وهو ما تستبعده ظروف العمل القاسية لتأمين لقمة العيش.

تحثنا هذه الملاحظات النبيلة على التذكير بأن أوقات الفراغ طالما كانت امتيازًا اختُصَّت به فئة قليلة من البشر، وجاءت على حساب سواعد عاملة وجباه تنضح بالعرق. يتبرم بعض محبي

* كاتبة وناقدة أمريكية تُوفيت سنة 1990، عُرِفَتْ بتحليلها لنمط الحياة الأمريكية

الحديثة. (المترجم)

** شاعر إنجليزي تُوفِّي سنة 1800. (المترجم)

الجمال - ولكن تبرّمهم لا يدوم إلا لحظة واحدة فقط - من الفكرة الكثيية القائلة بأن الجمال متجذر في المعاناة، لكن قراءة التاريخ تخبرنا بحقيقة سعيدة مفادها إن أوقات الفراغ، التي كانت سببًا في نشوء الحضارة، لم تكن حكرًا على الطبقة الأرستقراطية وحدها؛ إذ كانت أوقات الفراغ (في يوم ما من الأيام) جزءًا لا يتجزأ من العمل الشاق.

ففي موسم الخصب والوفرة (الذي كان يوافق فصل الشتاء) حين تُخزّن الحبوب ويُحفظ لحم الخنزير المملح، اضطرّ الناس إلى البقاء في منازلهم بسبب الظلام الدامس وبرودة الطقس لممارسة أنشطة أخرى، من بينها الغناء، وسرد القصص، والنحت، وصنع المنسوجات اليدوية. ومع تغيّر طبيعة العمل على خلفية تعاقب الفصول، وُلدت فنون الرسم والشعر والمسرح والموسيقى، كما وُلد العلم بوصفه تأملًا في حصيلة التجارب التي جناها الناس على مدار السنة. وعلى هذا فشكل العطلات التي يأخذها الناس عادة ليست - بحسب الأفكار السابقة - تمارين تُؤدّى في أوقات الفراغ، بل في أوقات الراحة، وبين المفهومين فارق كبير؛ فإذا طالت فترة العطلة عن أسبوعين أو ثلاثة صارت مملة باعثة على الضجر، واستفزت تعطش الناس إلى التحفيز العقلي. وانطلاقًا من هذه الفرضية يمكننا القول: إن وقت الفراغ ليس مضافًا للعمل، بل هو (وفق رؤية مارك توين وأرسطو) فرصة أفضل؛ أعني فرصة العمل لتحقيق أهداف أسمى وأجل.

الملام

”السلام خيار أفضل، وأمان أقوى للبشر من الأمل في الانتصار“.

تيتوس ليفيوس [مؤرخ من الحقبة الرومانية]

كما يحدث مع معظم الأفكار الشائعة، ينسى الناس كل شيء متعلق بالسلام حينما يسود السلام، ومثله كمثل معظم الأشياء الشائعة في حياتنا؛ فكل شيء متعلق به يستحوذ على أهمية قصوى، فالسلام هو المقوم الأساسي لنشأة التعليم والفنون العلاقات الإنسانية، ووقت السلام هو أنسب الأوقات لتأليف الموسيقى، وزراعة المحاصيل وحصادها، وبناء المنازل والآثار؛ فالسلام يتيح وقتًا لإمعان التفكير والتأمل، وأغلب إنجازات البشرية العظيمة تُولد من رحم لحظات التأمل.

يقول أوفيد "Ovid": "السلام العادل من خصال البشر، أما الغضب العارم فمن خصال الوحوش". ولا عجب لو لم يشاطره جميع الناس ذلك الرأي. وعلى صعيد مقابل، نرى وايتهد، الفيلسوف الدمث الخلق الذي وضع كتاب مبادئ الرياضيات بالاشتراك مع برتراند راسل؛ نراه يقول: "بخفة وسهولة، ينتقل الهدف المنشود من

* ألفريد نورث وايتهد: فيلسوف وعالم رياضيات إنجليزي، تُوفّي سنة 1947.

(المترجم)

السلام إلى بديل وضع اسمه: تخدير مشاعر البشر، مكرراً بذلك وجهة النظر الشائعة بين مُمَجِّدي فضائل المحاربين أن الحرب أفضل للروح الإنسانية. وقد كتب جوفينال "Juvenal" متحسراً على ما رآه وهنا لأركان الإمبراطورية الرومانية: "ها نحن اليوم نعاني من ويلات السلام الطويل. لقد خنقنا الرفاهية، وهي أشد بنا فتكا من الحروب".

بل حتى دعاة السلام يقرون بحقيقة أن الحروب وما يقترن بها من تهديدات هي قاطرة التطور التكنولوجي والعلمي؛ ففي بداية الحرب العالمية الثانية، استخدمت بعض القوات الجوية طائرات ذات سطحين (في سلاح الجو الملكي البريطاني كانت طائرة من طراز "Gloucester Gladiator")، ثم استُبدلت في نهاية الحرب بصواريخ بعيدة المدى ومقاتلات نفثة وقنابل ذرية. ويبدو أن هذا الكلام يؤكد النتيجة التي خلص إليها أدامو "Adamo" وهو يقول بنبرة مُحَبَّطة: "يمكن اختزال صورة التقدم البشري برمتها في انتقالها من الرمح المُسَنَّ إلى الصاروخ المُوجَّه، وهو ما يدل على أننا، بالرغم مما اكتسبناه من ذكاء على مر الزمن، لم نزدد حكمة". وربما لو تأملنا كلام أكثر البشر تشبهاً بهذه الروح العسكرية مثل أدولف هتلر إذ يقول: "لم يُكْتَب للبشرية التقدم إلا حينما خاضت حروبها الأبدية، ولن يُكْتَب لها الهلاك إلا إذا أبرمت السلام الأبدي"، لو تأملنا ذلك لملنا إلى الاعتقاد بأن السلام الهش هو في نهاية المطاف أفضل من الحرب المدمرة.

* شاعر روماني عاش في القرن الأول الميلادي. (المترجم)

وهنا علينا أن نميز بين أمرين: السلام الذي يُراد به موقف الدولة، أو بصورة أعم موقف المجتمع الذي لا يريد الانخراط في صراعات مسلحة داخليًا ولا خارجيًا، والسلام الشخصي، حيث يكون الفرد على علاقة طيبة مع المحيطين به، ويعيش متحررًا من وساوس القلق الداخلي، ومن ثم فالسلام الشخصي (الفردى) يعكس بالضرورة السلام الاجتماعى، لما ينطوي عليه من سلام حيال الذات وحيال المجتمع.

والحقيقة أن السلام الداخلى غاية مرغوبة للغاية بسبب ما توفره من فرص وما تتيحه من قوى منشطة باعثة على الحياة، بل أكاد أقول إنها غاية ضرورية (ولكن في بعض الأحيان فقط)، وكما تحتاج أحجار الرخى إلى الحبوب الصلبة لتطحنها، يحتاج العقل إلى مشكلات يحلها، وصعوبات يتخطاها، وتحديات يتصدى لها.

قال أوليفر ويندل هولمز قاصدًا بكلامه السلام الشخصى الداخلى: "إن الشرط الوحيد لإحلال السلام فى هذا العالم هو عدم امتلاك أفكار، أو على الأقل -قاصدًا بهذه النقطة السلام الشخصى فى مواجهة العالم الخارجى- عدم التصريح بهذه الأفكار".

تذهب بعض المعتقدات إلى أن الهدف الأسمى فى حياة الإنسان هو "تحقيق السلام الداخلى"؛ إذ نقرأ فى ملحمة البهاجا فادجيتا: "لا يبلغ السلام الداخلى إلا من تخلى عن رغباته". ولكن لماذا نتخلى عن الرغبة من الأساس؟

* البهاجا فادجيتا: الكتاب المقدس فى العقيدة الهندوسية (المترجم).

القراءة

”وكم من رجل فتح صفحة جديدة من حياته بعد قراءة كتاب!“

هنري ديفيد ثورو

يصف بعض الأطباء الكتب عوضاً عن العقاقير الطبية للمرضى الذي يشكون من الاكتئاب والتوتر والقلق؛ إذ يُحال المرضى إلى معالج بالقراءة، نعم، معالج بالقراءة يوصي مرضاه بقراءة قوائم مناسبة لحالتهم. نشأت هذه الفكرة من ملاحظة أمناء المكتبات أن مستعيري الكتب يقولون عند رد الكتب المستعارة إنهم يشعرون بتحسّن أحوالهم المزاجية بعدما أضحكهم كتاب ما، أو صرف انتباههم عن التفكير في مشكلاتهم كتاب آخر. ما أكثر ما يُقال حول تلك الحقيقة المذهلة!

وهنا سيتساءل المتشائمون [الكليبيون]:* في أي لحظة نحن كي يحتاج الناس إلى وصفة طبية تحثهم على القراءة؟ ودعوني أجيب على سؤالهم: ومتى نسينا أن القراءة هي أحد مصادر الحياة الرئيسية لألف سبب وسبب؟

* من باب الإيضاح، عرّف الفيلسوف الألماني بيتر سلوتردايك في كتابه «نقد العقل الكليبي» (1983) الكليبيين المعاصرين بأنهم سوداويون، يستطيعون إبقاء أعراض الاكتئاب لديهم تحت السيطرة، ويحتفظون بالقدرة على العمل مهما حدث. (المترجم)

ربما يواصل الكليبيون أسئلتهم: وهل سيلجأ الأطباء في الخطوة التالية يا ترى إلى وصف العشاء للجائعين والنوم للمرهقين من باب إضفاء الصبغة الطبية على الوجود الإنساني، أم أن هذا هو رد فعل على عجز البشر عن التفكير وتصريف شؤون حياتهم؟ صحيح أن تلك الاستفسارات المتعجبة لا تخلو من وجاهة رأي، لكن توجيهها إلى الأطباء ليس صحيحًا؛ فالأحرى أن تُوجَّه الأسئلة إلى ثقافتنا التي فشلت في إظهار مقدار المتعة والفائدة واتساع الأفق التي يجنيها القارئ من قراءة كتاب.

تتضمن فكرة تعليم القراءة بعض الإرشادات اليسيرة المتصلة بكيفية العثور على أي كتاب أو أي نوعية كتب مطلوبة؛ إذ لا يزيد الأمر على خمس دقائق (ربما مدة أقل بكثير لو قلت لأحد: اسأل أمين المكتبة، وهي أيضًا نصيحة ممتازة)، وبقليل من الخبرة، سيتمكن القارئ من التحليق فوق عوالم التاريخ والملاهي والمآسي وثرأ التجارب الإنسانية، وسيجني فائدة جمة مما يعرض أمامه من الأعمال المتوفرة، لو انتبه إلى ما يقرأ.

كلمة السر هنا هي الانتباه إلى المادة المقروءة؛ ذلك أن تعويد القارئ على التدبر وطرح الأسئلة هو أفضل ميزة يمكن أن يورثها أي نوع من التعليم، لكن هذا لا يمنع أن تتحول القراءة إلى عادة سلبية، أو إلى مجرد وسيلة ترفيحية لا تترك بصمة في عقل القارئ، اللهم إلا تزجية أوقاته بطريقة لطيفة.

ولا حرج لو قلنا إن عددًا كبيرًا من الكتب قد أُلِّفَ بمهارة فائقة كي لا تطرح عليها مزيدًا من الأسئلة، لذلك يجب على القراءة أن

تكون نشاطًا إيجابيًا لا سلبيًا، على أنه من الصعوبة تحديد المعيار الذي يحدد نوعية الكتب الجيدة؛ فهي متباينة الأشكال والأغراض، لكن القاسم المشترك بينها أن أغلبها يحفز القراء على التفكير وشحن الشعور؛ إذ ترتقي بمستوى إدراكهم أو تقض مضجعهم، فتحملهم في نهاية المطاف على رؤية العالم رؤية مختلفة قليلًا عما ألفوه.

قصارى القول: تستنهض الكتب الجيدة الهمّة على الانغماس في القراءة النشطة. قال جوزيف جوبيرت "Joseph Joubert": "لا يجد المرء في الكتاب العادي سوى القليل ليضيفه، أما في الكتب العظيمة فيجد العقل مساحة واسعة لكي يضيف أشياء كثيرة".

لا تصنع القراءة بشرًا أكثر حكمة ولا أفضل خُلُقًا تلقائيًا، ولو أحدث هذا الأثر فسبب ذلك معزو إلى أن القراء أدوا واجبهم بأنفسهم، واستنبطوا الفوائد المنشودة من خلال تفاعلهم مع المكتوب في الصفحة المطبوعة. وإذا ما نحينا جانبًا الخبرة العملية في الحياة بوصفها المعلم الرئيسي لكل فرد، فنادرًا ما نجد شيئًا يمكن مضاهاته بالكتب بوصفها معيّنًا ينهل الناس منه.

تعني القراءة أن تشترك مع وجهات نظر مغايرة، وأن تكون مُراقبًا خفيًا للظروف التي ربما لا تسنح الفرصة لتحقيقها في حياتك، وأن تقابل أشخاصًا وتجاوبه مواقف تتجاوز - كمًا وكيفًا - حدود إمكانات التجربة الفردية، ونتيجة ذلك لا تعزز القراءة فهم الذات وحسب، بل تسلح الفرد برؤى ثاقبة متصلة بالاحتياجات والاهتمامات والرغبات

* كاتب مقالات ومفكر فرنسي تُوفّي سنة 1824، تكلمنا عنه بشيء من التفصيل في كتاب «في فردوس الكتب»، منشورات حياة. (المترجم)

التي ربما لا يشاركها المرء مع غيره أبدًا، لكنها تحفز القراء، وبهذه الطريقة تُمكن القراءة الفرد من فهم اهتمامات الآخرين، وإبداء التسامح حيالها، بل والتعاطف معها.

ولو نظرنا إلى القراءة بوصفها امتدادًا لطريقة تشكّل سلوك الفرد إزاء الآخرين، فلا شك أنها تمثل حجر الزاوية لتأسيس المجتمع المدني والإخاء الإنساني. أحتفظ على سطح مكتبي بصورة للمكتبة الفلسفية في دير ستراهوف في مدينة براج، الصورة مأخوذة من الرواق العلوي للمكتبة، وهي صورة حية تجسد الجمال الهادئ للغرفة الغائرة العمق، المشعة بالضوء المتسلل عبر النوافذ الزجاجية للجدار الأيمن. تُظهر الصورة شعاعًا من أشعة الشمس يمتد فوق رفوف الكتب، مسلطًا الضوء على ثراء الكتب المُغلّفة بأغلفة من الجلد، ومصفوفة على الرفوف، أما في الأسفل (في الطابق الأرضي) فتُمة ثلاثة مكاتب موضوعة على مساحات مريحة تتوسط ما بينها، فيا لها من قراءة مبتكرة يحسدها أي دارس!

تُعبر الصورة السابقة تعبيرًا أخاذًا عن كل ما يتصل بالكتب وقراءتها، وكل ما يتصل بأمور الدراسة والفكر، وتقدم بالكتب بوصفها عصارة الزمن وحصيلة مساعي الإنسان، بل حتى خلاصة العالم الذي صيغ على هيئة معادلة متوازنة ثاقبة، ألبست لباس السكينة والعزلة، ولو أن في الجانب الآخر من المكتبة خزانة وسريًا وزاوية صغيرة لإعداد الشاي فلا بأس أن يُحبس المرء ويُرمى بالمفتاح بعيدًا.

رُبَّ متشائم [كلمي] يقول: إن هذه المكتبة الجميلة والمثيرة للذكريات لا تغدو أن تكون مشرحة كتب، أو قبة السائحين الفضوليين الذين يرمقون الكتب بأعينهم اللاهية ثم يسارعون بالانصراف، أو نقطة بيع البطاقات البريدية التي صارت الآن البضاعة اليتيمة للمكتبة. لكنني أعتقد أن المكتبة عمل فني صريح، يقف في مواجهة معايير الحياة الإنسانية المضطربة الفاشلة بما تنطوي عليه من مواءمات وتنازلات.

المكتبة أشبه شيء بخلية نحل يُخزَّن فيها العسل، والعسل هنا أفضل وألذ وأفيد ما تمخضت عنه التجربة الإنسانية. لاحظ أحد المعلقين على كتاب فيزجيل الرابع "الجيورجيات" "Georgics"، وكان محور حديثه عن العسل والنحل والحب المفقود، أن أربعة أشياء فقط قادرة على الصمود في وجه الزمن: الذهب، وضوء الشمس، والعنبر، والعسل. وآية ذلك أنه بينما كان بعض علماء الآثار ينقبون ذات يوم في بلاد اليونان، عثروا على جرة إغريقية قديمة "amphora" مملوءة حتى حافتها بعسل يزيد عمره على ألفي سنة، فراحوا يأخذون القليل منه لوضعه فوق الخبز وأكله في وجبة الفطور. وبعد مرور فترة من الوقت، لاحظوا وجود شيء ما يرقد في قاع الجرة، وعندما دققوا النظر، وجدوا جثة طفل رضيع! مما لا شك فيه أنها فكرة مؤثرة للغاية أن دفن الوالدان طفلهما في قاع جرة العسل للاحتفاظ بجسده إلى الأبد، وهو عمل يدل على نصيب كبير من الثروة ومن الحب.

* القصيدة التعليمية الكبرى «الجيورجيات» للشاعر الروماني فرجيل. (المترجم)

الذاكرة

”لا تخبرنا الذاكرة بما يحلولنا، بل بما يحلولها“.

مونتيني

وفق بلوتارخ، يحول النسيان كل حدث إلى عَدَم. تنبني وجهة نظر بلوتارخ على افتراض مؤداه أن الذاكرة جهاز وظيفته إدراك الماضي مثلما أن الأعين وغيرها من الحواس الأخرى أجهزة وظيفتها إدراك الحاضر. ومن هنا فالذاكرة مصدر من مصادر المعرفة؛ إذ تربطنا بأحداث الماضي من خلال الآثار التي خلّفتها في أذهاننا. يرى أنصار هذا الرأي أن الروابط بين تجاربنا الأصلية وذكرياتنا عنها تبني جسراً ينقلنا إلى الماضي، وهو وعد يبدو عظيمًا على ضوء الافتقار إلى وجود طرائق أخرى مماثلة تنقلنا إلى الماضي؛ فجميع الوثائق والآثار، التي يستعملها المؤرخون بوصفها أدلة، هي أشياء موجودة في الحاضر، لكنها أدلة مشوبة بالغموض.

سنضع على كاهلنا التزامًا محفوفًا بالأخطار لو عددنا الذاكرة مصدرًا أصيلًا من مصادر المعرفة؛ فالذكريات تحصل في الحاضر (مثلها مثل وثائق المؤرخين)، وغالبًا ما يتعذر التمييز بين الذكريات الحقيقية والذكريات المَتَوَهِّمة أو التخيلات، ومع ذلك فلا تناقض في أن نعدَّ تجربة ذهنية بعينها ذكرى بالرغم من انتفاء وجود علاقة موثوقة بينها وبين حدث حقيقي سابق، ومن هنا يستحيل التحقق

(والحال هكذا) من موثوقية الذاكرة تحققاً كاملاً؛ بسبب استحالة ضبط مؤشر الذاكرة وفق مؤشر الحدث الذي تسبب في نشوء الذكرى، ومن ثم يستحيل قياس دقة الذكريات.

بل حتى الذكريات الحقيقية يمكن أن تُعدَّ غير موثوقة؛ فالمحاكم المعتمدة لا تقبل ذكريات الشهود لو لم تكن مُعزَّزة بقرائن ساطعة. صحيح أن دعم ذاكرة شخص آخر ربما يساعد، لكنها تبقى مساعدة محدودة؛ لأن الذاكرة مسألة ذاتية محضة؛ فأجهزة الشرطة تعلم تمامًا أن شاهدين اثنين على حدث واحد في وسعهما تقديم روايتين مختلفتين تمام الاختلاف على الواقعة ذاتها، وهو ما يحبط تلكم الشهادة؛ فالذكريات تتغير وتتبدل، والذاكرة تضيف تفاصيل وتُسقط أخرى، وتشوه بعض التفاصيل تشويهاً بالغاً تحت وطأة مرور الزمن. ومع أن الذاكرة مصدر غير موثوق من مصادر معرفتنا بالماضي، لكن دورها في الذكاء والهوية الذاتية دور جوهري لا سبيل إلى إنكاره؛ فالذكاء مقترن اقتراناً وثيقاً بالذاكرة، وهي - وإن عجزنا عن الانتفاع بالمعلومات المُكتسبة أو الخبرات السابقة - مما يمثل قيداً شديداً يُكبِّل أداء المهام العقلية والعملية على حد سواء.

وبالمثل للذاكرة دور بالغ الأهمية في تشكيل هوية الفرد الذاتية؛ فعندما يفقد إنسان ذاكرته فأشد ما يؤلمه في تلك اللحظات شعوره بفقدان إحساسه بذاته، ومن الآراء ما يذهب إلى أن ما يصنع ذات الفرد طوال حياته هو حصيلة الذكريات المتراكمة التي يحملها في رأسه، ومتى ضاعت تلك الذكريات توقف المرء أن يكون نفسه، وصار إنساناً آخر جديداً لما تتشكل ذاته بعد.

بيد أن الذاكرة الواعية بإفراط هي شر مقيم. يصف خورخي لويس بورخيس "Jorge Luis Borges" في قصته "فونيس ذو الذاكرة القوية" معاناة إنسان عاجز عن نسيان أي شيء، فيذوق الأمرين نتيجة عبء تذكُّره الكامل لكل التفاصيل.

في ملاحظة متبصرة أدلى بها قبيل المحرقة، كتب شولم آش "Sholem Asch": "ليست القدرة على التذكر، بل على العكس تمامًا، القدرة على النسيان هي النواة الصلبة لوجودنا". وهي حقيقة أقر بها عدد كبير من الناجين من المحرقة بوصفها مرحلة مهمة من مراحل الاستشفاء المطلوب قبل أن يبدأ العمل الصحيح لفعل التذكر.

أطلق إسخيلوس على الذاكرة اسم أم الفنون، مما يجعلها النواة الصلبة من ثم لنشأة ألوان الفنون كافة، بينما أطلق الإغريق على ربّات الإلهام اسم "Mneiai"، والتي تعني الذكريات. على ضوء ذلك فليست الذاكرة فعل تذكُّر فرديًا، بل هي تقليد جمعي.

يذهب إسخيلوس إلى أنه لا وجود لأدب ولا موسيقى ولا تاريخ ولا علوم دون النقل المتواتر؛ فكل تلك الجهود الإنسانية إنما هي جهود تراكمية، ومرهونة بالدرجة الأولى بما تحرزه من تقدُّم، وبدرجة استفادتها من دروس الماضي وأخطائه الواجبة التصحيح.

وهذا واحد من الأسباب التي تجعل التاريخ -بوصفه محاولة لتشكيل ذاكرة جمعية متفق عليها- تقليدًا ماثورًا "tradition"

* شولم آش: رواي بولندي يهودي استقرّ في الولايات المتحدة، ومات سنة 1957 (المترجم).

على درجة بالغة من الأهمية؛ فمن دون دراسة سوابق التاريخ سنكون دائماً عرضة لخطر إعادة اختراع العجلة، بل أحياناً اختراعها بأي شكل ما عدا الشكل الدائري!

يختلف التقليد عن الذاكرة الفردية في نقطة جوهرية، وهي أن الذاكرة الفردية تحتل الصدق أو الكذب، أما التقليد فلا يحتمل إلا ما هو عليه بالفعل. من الخطأ دائماً أن نُهَوِّن من مقدار الوقت الذي تحتاج إليه البشرية لفهم الصدمات التي عانت منها، خصوصاً الصدمات التي ألحقتها بنفسها.

على مدار العقود الخمسة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، صارت الأخبار المتصلة بمحاولات إبادة يهود أوروبا على يد النازية تحت دائرة ضوء المعرفة التفصيلية، وخضع كم هائل من البيانات التاريخية المتصلة بالقضية إلى الفحص والتمحيص بمعرفة الباحثين؛ إذ كان من المستحيل إخفاء واقعة القتل الواسع المُنظَّم لملايين البشر من تلصص أعين التاريخ الفضولية.

وقد أسهم ما أبداه الجناة من شعور منحرف بأنهم ينفذون ما يؤمرون به، كما أسهمت شهادات الشهود وشهادات الناجين من هذا المخطط الجموح المروع في إبراز الأدلة أمام العالم بأسره، وهو أحد الأسباب التي تجعل محاولات إقناعنا بأن الهولوكوست لم يحدث، أو أنها "لم تكن بمثل هذه البشاعة كما يُزعم"، هي محاولات عديمة الجدوى؛ فجسامة الحقائق تضاهي جسامة الوثائق المرعبة على ما جرى.

ومع ذلك لم تغدُ المهمة السيكولوجية المتمثلة في فهم الهولوكوست أسهل، بل ازدادت صعوبة بسبب التحليل المنهجي للحقائق، كلما تعمقت معرفتنا بما جرى، وكلما حفرنا عميقاً للوصول إلى تفاصيل متعلقة بما وقع لأناس بعينهم في تواريخ بعينها وأماكن بعينها (سواء أُطلق عليهم النار، أو أُعدموا بالغاز، رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً ورَضَعًا، قُدِّرَت أعدادهم بالعشرات أو المئات أو الآلاف)؛ كلما فعلنا ذلك زاد شعورنا بالحيرة الأخلاقية والارتباك، وامتزج اشمئزازنا وشفقتنا مع مهمة الفهم.

ومن هنا فنحن لا نعرف إلا ضرورة مواصلة العمل الجاد لقطع رؤوس أفاعي العنصرية والقومية والبؤس الثقافي والديني التي تهدد البلاد والعباد بلا هوادة في كل أصقاع الأرض؛ إذ أظهر لنا التاريخ الحديث بجلاء في منطقة البلقان وأولستر* وكشمير وتيمور الشرقية والتبت ورواندا أن الأخطار نفسها موجودة في كل مكان دائماً، وهو ما حدا بالأوروبيين إلى الحلم بمحاولة توحيد قارتهم لتقليل فرص نشوب الحرب، وما يمكن أن يحدث تحت غطاءها، ولهذا السبب ظهرت حركة حقوق الإنسان مع ما هو معروف عن تأثيرها الواهن في الوكالات الدولية القادرة على إنفاذ الاتفاقيات التي وافقت عليها الدول الأطراف في الأمم المتحدة.

* أسفر تمرد الأرستقراطيين الأيرلنديين سنة 1641 ضد الحكم الإنجليزي إلى مذبحه للمستوطنين في مدينة أولستر في سياق حرب اندلعت بين إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا. (المترجم)

كانت تلك الحركات التاريخية ردود فعل على الهولوكوست،
والحقيقة أن الخطى المتعثرة لتلك الحركات في تحقيق أهدافها
هي علامة تثير قلقنا بشأن ذاكرة البشرية الضعيفة، وانغماسها في
مصالحها الشخصية العمياء، وهي كلها أخطاء تمثل وصمة عار في
تاريخ الإنسانية؛ لذا يجب على الإنسانية أن تحافظ على ذكرى
الهولوكوست حية حتى يكون تكرارها أمرًا مستحيلًا*.

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 2001، وبالمثل نقول أيضًا: لا جرم
أن إهانة الإنسانية والإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني بداية من السابع من أكتوبر
2023 مستمرة حتى اليوم، ولا جرم أيضًا أن ذاكرة الإنسانية لن تنسى تلك المذابح
حتى يحين القصاص. (المترجم)

التاريخ

”أن تظل جاهلاً بما حدث قبل ميلادك
يعني أن تظل طفلاً إلى الأبد“.

شيشرون

ما التاريخ؟ ثمة غموض يلف الاسم نفسه؛ فقد يُراد بالتاريخ إما الأحداث المنصرمة وإما الكتابات التي تتكلم عن الأحداث المنصرمة. ولكن ماذا لو كان الأول (الأحداث) من اختلاق الثاني (مَن كتب الأحداث)؟ فالماضي في آخر الأمر لم يعد له وجود، أما الآن فبين أيدينا وثائق تاريخية وأشياء أخرى نفترض وصولها إلينا من الماضي، فما نلبث أن نرسم حولها التفسيرات، وهذه الوثائق وتفسيرنا إياها هي ثمار الحاضر، فما الغرابة، والحال هكذا، أن ينقسم المؤرخون في ما بينهم؟

إنها لفكرة ساذجة لو ظننا أن الماضي هو بلد بعيد الوصول، خلف ظهورنا، وأن في وسعنا زيارته لو ركبنا آلة الزمن، ومع ذلك فمن المؤكد أن واقعنا يشعر بالإهانة لو زعمنا أن الماضي هو وليد اللحظة الحاضرة، كما أننا نعارض حرية التعبير الممنوحة لمن ينكرون وقوع الهولوكوست على سبيل المثال!

ما التاريخ إذن؟ هل هو فن قادر على الإبداع أم علم قادر على الاكتشاف؟ وفي الحالتين كليهما، هل هناك (أو هل يمكن أن يكون هناك) شيء اسمه حقيقة تاريخية؟ وإذا كان الأمر كذلك فإلى أي مدى يمكن معرفة ذلك؟

كلمة التاريخ مشتقة من الكلمة اليونانية القديمة "histotia"، التي تعني التحقيق، ولكن حتى في العصور القديمة اكتنف المصطلح الغموض القاتل. ومع بداية القرن الرابع قبل الميلاد، حل المؤرخ "historikos" راوي القصص محل المؤرخ "historeon" المُنقَّب في بطن التاريخ. ولكن السؤال الآن: تحت أي فئة علينا أن نُدرج الرعيل الأول من المؤرخين العظماء: هيرودوت، وثوسيديديس، ويوليوس، وليفي، وسالوست، وتاسيتوس؟

لقد فهم هؤلاء الرجال لُبَّ المشكلة أيضًا؛ إذ هاجم ثوسيديديس المؤرخ اليوناني هيرودوت بسبب سرده التاريخي المسهب المُطعم بالقصص والمؤلف من مجموعة مُرتبة ترتيبًا بارعًا يمزج بين الحكايات والحقائق والأساطير والتكهنات حول الصراع الكبير بين الشرق والغرب، بين بلاد فارس وبلاد اليونان. أما ثوسيديديس فاستهل تأريخه للحروب البيلوبونيسية بادِّعاء مفاده أن التاريخ يجب أن يكون "تاريخًا معاصرًا"، وأن يقتصر على ما يمكن التحقق منه عبر النظر والملاحظة الشخصية. وكان ثوسيديديس قد خدم في

* يوافق هذا الطرح كلام ابن خلدون في مقدمته إذ قال: «والتاريخ في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات مبادئها دقيق»، وقد نقلناه عن مقدمة ابن خلدون، (جزء 1 - مؤسسة الرسالة ناشرون). (المترجم)

صفوف الجيش الأثيني، ووضع مؤلفاته في أثناء المعارك، ثم هيمن الفن على العلم في معظم الكتابات التاريخية حتى عصر النهضة.

ولم تظهر إمكانية التأريخ المؤسس على النهج العلمي عبر الاشتغال بدراسة المصادر إلا مع بداية القرن السابع عشر، حين أرسى الرهبان البينديكتيون* مبادئ توثيق مخطوطات العصور الوسطى، ومن ثم دشّنوا المعالجة المنهجية للمواد التاريخية، ولم تسنح إمكانية تحقيق هذا المشروع إلا عندما أرسل ليوبولد فون رانكه** "1795 - 1886" (Leopold von Ranke) في طلب المؤرخين المعاصرين وطالبهم بتسجيل الماضي "كما حدث بالفعل".

وذهب غيره من المؤرخين الوضعيين "Positivists"*** إلى وجود قوانين تاريخية يمكن اكتشافها بطريقة الاستقراء، وهو ما أيّده المفكر الفيكتوري العظيم جون ستيوارت ميل، مضيفاً إليها أيضاً القوانين النفسية. ومن هذا المنطلق فالتاريخ هو في جوهره "علم"، فالبيانات الدقيقة والقوانين العامة تمهد الطريق إلى بلوغ الحقيقة الموضوعية.

* الرهبان البينديكتيون: نظام رهبنة كاثوليكي، أسسه القديس بندكت (480 - 547م) (المترجم).

** مؤسس التاريخ الحديث المدعوم بالمصادر والشواهد، وقد وضع رانكه معايير الكتابة التاريخية الحديثة، وكان ذا نزعة وضعية في التفكير كما سنوضح لاحقاً. (المترجم)

*** وهم أنصار الفلسفة الوضعية، وتُسمّى في اللغة العربية «الفلسفة الواقعية»، وهي رؤية فلسفية تجريبية تحاول شرح كيفية عمل العالم وتفسير ظواهر التاريخ بالاعتماد على البيانات والتجارب الواقعية واستبعاد التكهّنات أو الميتافيزيقا. (المترجم)

وقد عُرض الوضعيون على يد الفلاسفة المثاليين من أمثال فيلهلم ديلتاي "1833 - 1911" (Wilhelm Dilthey)؛ إذ احتج المثاليون (بتأثير من كانط وهيغل) بأنه بينما تفحص العلوم الطبيعية الظواهر من الخارج، فإن العلوم الاجتماعية تدرس الظواهر من المنظور الداخلي للتجربة الإنسانية. وتأسيسًا على ذلك فالتاريخ هو إعادة بناء للماضي من خلال إبداء "التعاطف الفكري" "intellectual empathy" مع أسلافنا.

قال ديلتاي إن التاريخ - بالرغم من ذلك - موضوعي؛ لأن ثمار التجربة الإنسانية - كالكتب والفنون - منتمة إلى المجال العام، وهو ما عارضه زملاؤه الفلاسفة المثاليون. كتب الفيلسوف الإيطالي المثالي بينيديتو كروتشه (1866 - 1952) أن التاريخ ذو صبغة ذاتية؛ لأن المؤرخ نفسه حاضر دائمًا في بنائه، وعلى حد تعبير الكاتب جيمس بالدوين "James Baldwin"، "البشر مُقيّدون بالتاريخ، والتاريخ مُقيّد بالبشر". والحق أن هذه الأفكار تعكس فلسفة التاريخ؛ فهي ليست أحداث التاريخ، ولا هي فعل التاريخ (بمعنى مناقشة التقنيات التاريخية)، كما أنها ليست أعمالًا متعلقة بالتاريخ الفلسفي الذي تجسده النظريات الكبرى حول الأهمية الميتافيزيقية للتاريخ مثلما قدمها كل من هيغل وماركس وشبنجلر وتوينبي؛ إذ ذهبوا إلى أن التاريخ يزيح الستار عن أنماط معينة، ويتحرك نحو غاية نهائية، وما التاريخ الوضعي إلا محاولة للهروب من إغراءات وجهة النظر هاته، من خلال البحث عن الحقائق؛ فحُجج الفلسفة المثالية تكشف أن الكلام عن هذا الهدف أسهل من تحقيقه. وإن محاولات "منكري الهولوكوست" للتهوين من اعتداءات النازي على يهود أوروبا تُظهر بجلاء أن هذه الأفكار لها أهميتها.

القيادة

”القائد هو تاجر الأمل“.

نابوليون

اعتقد كل من أرسطو وشيشرون أنه يستحيل على أي رجل أن يكون قائداً جيداً ما لم يتعلم الطاعة أولاً، وهي الرؤية التي لا تزال مهيمنة على نهج الأحزاب السياسية حتى اليوم؛ إذ يتعين على المرء، لكي يصعد نجمه داخل الحزب، أن يلتزم بإخلاصه لمبادئ الحزب ولا يحيد عنها أبداً.

ربما يُطرح التساؤل إذا ما كانت القدرة على تقليص وجهات نظر الفرد وتوطينه على الإذعان التام هي صفات قيادية مرغوبة، وربما يتدخل متشائم [كلمي] مؤكداً أن هذا هو الحال بالفعل أحياناً؛ ففي أروقة السياسة، تكون المبادئ عائقاً، ويكون النفاق فضيلة محمودة. أيّاً ما كان الأمر فثمة مدرستان فكريتان تناقشان فكرة القيادة. تقول الأولى: إن القائد يجب عليه أن يقود فقط، وإن المَقود رجلاً كان أو امرأة عليه أن يُسلم له قياد أمره، وليس في سلوك الأخير تناقض كما يبدو ظاهرياً. قال بيرجن إيفانز ”Bergen Evans“:

* أستاذ جامعي أمريكي ومقدم برامج تليفزيوني مشهور، تُوفّي سنة 1978. (المترجم)

”في أغلب الأحيان، يكون قادتنا هم تابعونا، ولكن موقعهم من الجهة الأمامية؛ فهم يقودوننا صوب الاتجاه الذي نسير فيه بالفعل.“. فعندما تحرص الحكومات على رصد نبض الشارع ومراقبة الرأي العام، أو عندما تُدَقِّق النظر في آراء مجموعات التركيز “focus groups”، فإنها تُوطِّن نفسها على مواكبة الاتجاهات السائدة، وتسعى إلى تلبية رغبات الجمهور بدلاً من توجيهها، وفي بعض الأحيان، يكون هذا هو المسار الأكثر حكمة.

وكما سبق وأن حذّر سوفوكليس في مسرحية ”أوديب في كولونوس“: ”لا تأمر الناس بما لا تستطيع فرضه عليهم“ (إن أردت أن تُطاع فأمر بما هو مستطاع)؛ فالرأي العام معروف بمناهضة الأفكار اللامعة، حتى لو اقترحها زعماء وطنيون بحق، لا شيء إلا لأنهم تعرضوا لزلزلات مهينة من ورائها.

في الوقت ذاته، ثبت صدق الرأي القائل بأن الناس عموماً يشعرون بالسعادة البالغة عندما يُسلمون زمام أمورهم إلى غيرهم؛ إذ يُؤثر أكثر الناس ترك اتخاذ القرار ليكون في أيدي الآخرين لأسباب عدة، من بينها ضعف الهمة، والجهل، ناهيك عن الكسل.

لاحظ سينيكا أن شقاء البشر لا ينبع من كونهم يتلقون الأوامر، وإنما من كونهم يُجبرون على تنفيذ أشياء ضد إرادتهم؛ إذ إن فئة قليلة منهم تستمتع بحل المسائل المُعقَّدة أو اتخاذ الخيارات

* اصطلاح في علم الاجتماع. ومجموعات التركيز هي إحدى طرائق جمع البيانات، وأحياناً، يستخدم خبراء التسويق المعلومات التي لُجِمت من مجموعات التركيز للحصول على «انطباعات/آراء» عن منتج أو مشكلة أو موضوع معين. (المترجم)

المهمة، وعليه فالناس لا يكرهون الواجب أو طاعة الأوامر في حد ذاتها، وإنما يكرهون فكرة تحمُّل المسؤولية.

من الناس من يقول إن القائد اللطيف المعشر، ذا الروح المسؤولة، المستعد لأن يكون قدوة يُحتذى بها، سيكون متبوعًا من مرؤوسيه بكل سرور وإخلاص، لكن من الصحيح أيضًا (على حد تعبير هوميروس في ترجمة ألكسندر بوب) أن "القائد، الذي يخالط السوق والدهماء، ستضيع هيئته وسط الحشود"، وهي الفكرة التي تشير إلى حاجة القائد إلى إيجاد توازن دقيق بين الحفاظ على مسافة من الآخرين والتواضع (بالمعنى الحرفي لهذا المصطلح).

يُنَبِّه الحكماء دائمًا إلى أن القيادة -وهو ما يحدث كثيرًا- حينما تتخذ قرارات لا تلقى قبولًا شعبيًا وتُقدِّم على تنفيذ إجراءات قاسية، يكون استياء البطانة المؤيدة لها أشد قوة من استياء من كانت تربطهم بالقائد علاقة عملية محضة. وفقًا لبعض الآراء فالسبب الرئيسي وراء امتلاء التاريخ بالغوغاء (الديماجوجيين) هو تكاسل الجماهير الذين يمثلون الأغلبية الصامتة وضعف همتهم، والظاهر أن الناس وسط الحشود يستمتعون بفكرة القائد الحازم، والمرشد والفوهرير "Führer"، فيعتقدون أن قوة شكيمة القائد ستحميهم من انهيار منظومتهم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية (وهو الانهيار الذي يعتقد كل جيل أنه وشيك الحدوث)، وهي المنظومة التي عاشت عصرها الذهبي في الماضي (أو ربما تزامنت مع طفولتهم المبكرة).

تكمُن جذور هذا الدافع في أعماق التاريخ التطوري للبشرية؛ إذ يميز علماء الأخلاق بين نوعين مختلفين من الأنساق الاجتماعية داخل مملكة القردة والحيوانات العليا في الثدييات، أما الأول فهو النسق الاجتماعي "اللانحرافي" "agonic"؛ إذ يُحافظ على النظام داخل المجموعة من خلال العنف، وأما الآخر فهو "نسق اللذة" "hedonic"؛ إذ يُحدّد الترتيب الاجتماعي داخل المجموعة من خلال الحيوان الذي يُبدي ظهورًا أفضل وأكثر جاذبية؛ فعندما يدخل ذكر قردة البابون إلى طابور استعراض العضلات تهرب قردة البابون الأخرى، بينما تنتظر القردة الأخرى للمشاهدة حين يسلك ذكر الشمبانزي السلوك نفسه! لكن المجتمع البشري مزيج بين النوعين، وفي رجال الشرطة ونجوم موسيقى البوب أمثلة على قردة البابون وقردة الشمبانزي على التوالي؛ إذ يجمع القائد الغوغائي بين نمطي الترغيب والترهيب السابقين كما رأينا في مسيرات نورمبرج "Nuremberg rallies"*. وفي هذا النمط، مثال يُحتذى للقادة ذوي الطموح.

وهو ما يدفعنا أن نطرح السؤال الآتي: أي نوع من القادة يحتاج إلى النسق السابق؟ أو على الأقل أي نوع يحتاج إلى جانب نسق قردة البابون منها؟

* المقصود هو التجمع السنوي للحزب النازي في ألمانيا، الذي عُقد من 1923 إلى 1938. كانت تُجرى خلاله فعاليات دعائية نازية، خصوصًا بعد تقلد أدولف هتلر مقاليد السلطة في سنة 1933، وقد عُقدت هذه الفعاليات في مقر تجمع النازيين في مدينة نورمبرج 1938. (المترجم)

المفرد

”كثيرون يتصفّحونه والمعرفة تزداد“*

سفر دانيال 12:4

لاحظ سير ريتشارد بيرتون “Richard Burton”، وهو رحالة ومغامر عظيم، أن “المسافرين كالشعراء؛ جنس غاضب“. ربما يصدّق كلامه حقًا، لكنه لا يغير من حقيقة أن السفر مصدر لفوائد جمّة، على رأسها حقيقة أن الناس يعرفون النزر اليسير عن بلدهم لو كانوا لا يعرفون أي بلد آخر.

غني عن البيان أن السفر مصدر ثري من مصادر المعرفة، وإدراك وجهات النظر المتباينة، وكلا الجانبين - بصرف النظر عن كونهما يمثلان قيمة جوهرية - يتمتع بميزة وضع الفرد نفسه وبني جلده تحت أضواء جديدة مترعة بالحقائق الكاشفة؛ فالأسفار تتيح إمكانيات لم يُحلّم بها بعد، وتُدخل على الذات تحسينات لم تُدر في الحسبان قط، وتمنحنا أسبابًا للرضا عن أوطاننا، وفي ذلك غاية منشودة تستحق العناية.

* هذا ما ورد في الأصل. وليفهم القارئ السياق؛ أوردتها كاملة: «أَمَّا أَنْتَ يَا دَانِيَالُ فَأَخْفِ الْكَلَامَ، وَاخْتِمِ السِّفَرَ إِلَى وَقْتِ النِّهَايَةِ، كَثِيرُونَ يَتَصَفَّحُونَهُ وَالْمَعْرِفَةُ تَزْدَادُ». (المترجم)

في الماضي، دأب المسافرون على نشر المعلومات والمعارف عبر تعريف أبناء أوطانهم بما وقع لهم في السفر من خبرات وتجارب، فكانوا يقصون حكايات مُسهّبة الطول تارة، ويجلبون معهم وباء الطاعون تارة أخرى! ومع ذلك فأغلب الابتكارات التقنية الحديثة والمُنجزات الزراعية كانت ثمرة أسفار الناس وترحالهم عبر البلاد، وحتى عهد قريب، كانت مثل هذه الأسفار ضربًا من المغامرة الجامحة المُفَعّمة بالخطر في أحيان كثيرة. تعود المعرفة بالنفع على المسافر الحقيقي وحده، وليس على السائح، وهي تفرقة حاسمة جديرة بالانتباه؛ فالمسافر كائن نشط، فطن إلى مغزى ملاحظة الدكتور جونسون "Dr. Johnson" القائلة: "في السفر، يجب على الإنسان أن يحمل المعرفة معه لو أراد جلب المعرفة إلى بلاده".

المسافر إنسان ذهب لينظر ويشاهد ويتعلم ويتعاطف ويفهم الأمور على حقيقتها، أما السائح فليس مخلوقًا فاعلاً، بل هو مخلوق سلبي، يتوقع أن يُسافر به إلى الخارج، ويُنقل من المطار إلى الفندق، وتُقدّم إليه وسائل الترفيه والمرطبات، ويُحمى من مضايقات الغرباء؛ فلا يسعى إلى تعلّم أبجديات اللغة المحلية قبل السفر، وإنما يركن إلى المرشد السياحي أو يرفع صوته متحدثًا باللغة الإنجليزية.

يبحث المسافر عن المغامرة، وليس أقلها المغامرة العقلية، بينما يتوقع السائح وقوع حوادث سارة، ولثلا نغمته حقه، يسافر السائح إلى خارج بلاده وفي ذهنه أن يصادف الاختلافات، لكنه يتلقاها بوصفه متفرجًا، لا بوصفه طالب معرفة، ولو أراد هذا ففي وسع المرء الاكتفاء بمشاهدة التلفزيون.

قال تيمبل فيلدنج "Temple Fielding" * "ساخرًا: "لو كنت عضوًا في جماعة مسافرة فليس عليك حتى أن تعرف أن قمة ماترهورن "Matterhorn" ** ليست آلة نفخ نحاسية". ربما كان المتشككون في جدوى السفر سيّاحًا في قرارة أنفسهم.

أعرب الشاعر الروماني هوراس (وهو في العادة رجل متقد الذكاء، ومن المعلوم أن الشباب يحبون قصائد أوفيد، بينما يحب الناضجون قصائد الأول) عن استيائه ممن يُهرعون إلى الشواطئ طلبًا للسفر والرحيل عن أوطانهم، وكان مصدر استيائه أنهم بذلك يغيرون البيئة التي يعيشونها، وليس أرواحهم. وهو قول مأثور يجانبه الصواب عند تطبيقه على المسافرين، مع أنه ربما يصلح تعريفًا مناسبًا للسياحة.

كان المفكر الأمريكي إيمرسون يشاطر رأي هوراس إذ كتب: "السفر جنة الحمقى، ونحن مدينون لأولى أسفارنا باكتشاف أن المكان لا شيء البتة". وهي ملاحظة تسترعي الانتباه قياسًا بما تعلمه الرجل من أسفاره؛ إذ التقى إيمرسون على سبيل المثال في إيطاليا بالكاتب والتر سافاج لاندور "Walter Savage Landor" *** الذي قال عبارته الخالدة: "على الرجل أن يذبح مئة ثور مع أنه لا

* كاتب رحلات أمريكي تُوْفِّي سنة 1983. (المترجم)

** قمة ماترهورن «Matterhorn» أحد أشهر قمم جبال في سلسلة جبال الألب الأوروبية، والمؤلف يصنع هنا مجانسة صوتية بين اسم القمة «matterhorn» وبين مفردة «horn» (بوق نفخ) للتلميح إلى جهل السائح. (المترجم)

*** كاتب وشاعر وناشط إنجليزي تُوْفِّي سنة 1864. (المترجم)

يعرف إذا ما كانت الآلهة ستأكلها أم الذباب“*. إن مجرد سماع مثل هذه الملاحظة القوية من بين شفتي الشاعر هو مكافأة مجزية للسفر عبر أي عدد من المحيطات.

عندما كان توماس جيفرسون “Thomas Jefferson” الرئيس الثالث للولايات المتحدة يشد الرحال إلى أوروبا في ثمانينيات القرن الثامن عشر، اهتدى إلى نتيجتين، الأولى أنه من الأفضل أن يسافر المرء بمفرده؛ لأنه يجد متسعًا من الوقت لتأمل ما يراه، والأخرى أن السفر يجعل الرجال أشد حكمة، ولكن أقل سعادة. أما معاصره العظيم جوته فتبنى وجهة نظر معاكسة إذ قال: “إن رفيق السفر المناسب هو اكتساب عينيْن جديديْن، وحساسية من نوع آخر، والظفر بمعين آخر للمعلومات لتفسير ما يواجهه المرء عند سفره“. في مقدور العزلة أن تجعل الذات بادية في الأفق أمام نظر المسافر. كان سينيكا محقًا لما لاحظ أننا مهما قطعنا من أسفار طويلة فإننا لا نقابل في نهاية الرحلة إلا أنفسنا، مع ذلك ففي وسع الإنسان (في معية رفيق سفر) أن يلتقي مَنْ هو أكثر من نفسه، فينال حظه من السعادة، بل ويزداد حكمة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

* الإشارة هنا إلى الأنشودة الأولى من ملحمة الإلياذة لهوميروس، عندما قال أجاممنون: «ودعونا الآن نُسيّر سفينة سوداء في البحر اللامع، ونجمع فيها العدد اللازم من المجدفين، ونضع على ظهرها ذبيحة من مئة ثور»، في إشارة إلى ضرورة ركوب المخاطر والسفر لبلوغ الهدف. (المترجم)

الخصوصية

”وسط حشود البشر، وفي الأسفار، وحتى وسط المآدب الكبرى،
لا نتوقف على منح أفكارنا الداخلية مساحة من الخصوصية“.

كينيا بيليان [خطيب وبلاغي من الحقبة الرومانية]

من سمات الحياة المعاصرة أن تسمي الشخصيات العامة ضحية
رغبة جماعية محمومة في تحويل كل شيء في حياتهم إلى قصة
درامية طويلة الحلقات.

بحكم التعريف فالمشاهير هم أشخاص ذائع الصيت، وضريبة
الشهرة أن يتوافد المصورون على عتبة باب دارك، ينبشون في
صناديق قمامتك، وكان هذا ديدن الشهرة منذ أمد بعيد؛ فقبل قرن
من الزمان، كتب الكاتب الإنجليزي صمويل بتلر “Samuel
Butler”: ”بين كل شجيرة، يختبئ مصور صحفي، يتجول مثل
أسد يزأر، باحثاً عن فريسة يلتهمها“.

ولا بد أن هذا ما شعر به تشارلز بارنيل “Charles Parnell”
في سنة 1886 عندما كشفت صحيفة ”بال مول جازيت“ “Pall
Mall Gazette” عن علاقته الآثمة بالسيدة كيتي أوشي “Kitty

* سياسي أيرلندي مشهور تُوفِّي سنة 1891. (المترجم)

O'Shea“ وتردّده على منزلها في مدينة إلثام، وهو ما فجّر فضيحة مدوية آنذاك.

وبدءًا من سنة 1843، درجت صحيفة ”نيوز أوف ذا وورلد“ ”News of the World“ على التسمية عن قرائها يوم الأحد بتفاصيل جرائم القتل والطلاق، سائرين بذلك على خطى التقليد القديم، عندما جعل الفيلسوف الإغريقي أرسطوكاس ”Aristoxenus“ من حياة سقراط الخاصة –وخصوصًا ميوله الجنسية– مادة للتكهنات العامة، بعد أن سلّطت الأضواء قبل ذلك بفترة طويلة على أن زوجة سقراط (واسمها زيناتيبي) كانت تعكر عليه صفو عيشته.

في مايو 1897، أُفْرِجَ عن الكاتب أوسكار وايلد ”Oscar Wilde“ من سجن ”رايدينج“، واضطُّروا إلى تهريبه إلى محطة السكك الحديدية تحاشيًا لفضول المراسلين الصحفيين. ولما رأى وايلد شجيرة مزهرة للمرة الأولى منذ عامين، فتح ذراعيه هاتفًا: ”آه أيها العالم الجميل!“ عندها همس إليه أحد الحراس قائلاً: ”حذار من أن تفضح نفسك بسهولة هكذا يا سيد وايلد؛ فأنتَ الرجل الوحيد في إنجلترا الذي يتحدث بهذه الطريقة في محطة سكك حديدية!“ والحق أن الخصوصية مسألة بالغة الأهمية بالنسبة إلى المشاهير؛ لأنهم فقدوها، ونحن عادة لا نُقدِّر الأشياء حق قدرها إلا بعد ضياعها من بين أيدينا؛ فالتناس إذا دخلوا تحت دائرة أضواء الشهرة العامة المتواصلة (حتى أولئك الذين يغازلون ذلك الاهتمام بشوق مثل الأميرة ديانا، ويتلاعبون به ويحددون أنفسهم من خلال هذا

الاهتمام) سرعان ما يفتقدون خصوصيتهم، ويشعرون بحاجة ماسة إلى اللوذ بها! وعلى النحو نفسه، يشعرون بالحاجة إلى شعور يخلطون بينه في أغلب الأحيان وبين الخصوصية، وأقصد تحديدًا العزلة، وشتان ما بين الاثنين؛ فالعزلة هي الرغبة الاختيارية المُرَحَّب بها في الغياب عن الآخرين جسديًا، بينما الوحدة (وهي شعور مختلف) هي الغياب النفسي غير المُرَحَّب به عن الآخرين.

ليس للخصوصية علاقة بغياب الآخرين ولا حضورهم؛ لأن عماد الخصوصية احتفاظ المرء بجوانب من حياته ومشاعره وأنشطته لتظل مقصورة على نفسه أو على قلة مختارة يكشف لهم عنها. الخصوصية ضرورة حتمية، ولا تقل أهميتها عن أهمية الطعام والشراب، وجانب من تلك الأهمية معزو إلى أنها تساعدنا على الأقل في إحكام السيطرة على الطريقة التي نظهر بها أمام العالم.

والحقيقة أن أغلب الناس في حاجة ماسة إلى أن ينظر الآخرون إليهم بعين الحب والرضا للأسباب النفسية والعملية التي نعرفها جميعًا، ربما يكون من المخرج أو المعرقل أن يفصح المرء عن مشاعره وعاداته الشخصية أمام الملاء، خصوصًا في ما يتصل بالعادات المحرجة أو غير المقبولة على مستوى العادات والتقاليد.

في البداية، تكون محاولات الإنسان أقل نضجًا من أن تصمد في وجه تدقيق الآخرين وتمحيصهم، فتحتاج تلك المحاولات أن تعزز وجودها عبر الخصوصية قبل أن تصبح جاهزة للعرض على الآخرين، والحقيقة أن قلة من الناس هي من تملك القدرة على مواصلة العمل دون حياة خاصة؛ ففي الدائرة الضيقة المكونة من

العائلة أو الأصدقاء المختارين، يستطيع الناس أن يتصرفوا على سجيّتهم، وأن يكونوا أنفسهم، وأن يُعَبِّروا عن أنفسهم تعبيرًا تلقائيًا عفويًا، ومن ثم فالميكروفون المخفي، أو العدسة المتلصصة التي تلتقط اتصالاتهم الحميمة مع الآخرين، تُعدُّ سرقة عنيفة واستلابًا لجوهر سعادتهم.

بل حتى العاشقون في حاجة إلى الاحتفاظ بجزء معين من حياتهم بعيدًا عن أعين بعضهم البعض؛ فالعجز عن الاحتفاظ بالأسرار يعني استلابًا للذات، ومن وجهة نظر بروس (مثله كمثل الآخرين) فالذات الأعمق، والذات الأشد خصوصية هي سر مكنون، ويجب أن تبقى سرًّا محجوبًا عن المرء نفسه وعن الآخرين.

لم تظهر مناقشة حق الإنسان في الخصوصية إلا في أثر هوس الصحف الصفراء "tabloid" (صحف التابلويد) بالتطفل على حياة المشاهير والتعريض بها، لكن النقطة الشائكة هنا أن تقديس الخصوصية قد يتحول في بعض الأحيان إلى قناع من شأنه الإساءة إلى الآخرين؛ ففي المجتمعات الحرة، لا يقل حق الصحافة في كشف الانتهاكات المستورة أهمية عن حق الفرد في أن يُترك وشأنه. وهنا يبرز السؤال: أين الحد الفاصل بين كشف المستور بطريقة مشروعة وبين الانتهاك النفسي لخصوصية الآخرين؟

ولأن المسألة تبدو مثيرة للسخط عمومًا، فبدلًا من سن قانون شامل لتنظيم المسألة، فمن المُحَبَّذ أن تُرسم تلك الحدود الفاصلة بعد وقوع الحدث، ومعالجة كل حالة على حدة، وعلى ذلك يصير انتهاك الخصوصية هو الضريبة الواجب دفعها ثمنًا لواجب المساءلة.

بيد أن الصحف الصفراء عادة ما تغلو وتمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، أي أبعد من مجرد المساءلة، وهي تعرف جيدًا ما تفعله، مدمرة في طريقها النوايا النيلة.

العائلة

”احكم عائلتك وكأنك تطهو سمكة صغيرة“.

مثل صيني

ليست عبارة القيم العائلية إلا شعارًا يُقال في غمرة النقاش السياسي بغية الانتصار لتيار اليمين الديني على جانبي المحيط الأطلنطي، بيد أننا كلما أنعمنا النظر إلى ما وراء الأفكار الكامنة وراء الحديث عن ”العائلة التقليدية والقيم العائلية“، بدت تلك الأفكار أكثر إغراقًا في التشوش والتحيز؛ فمن ناحية لا يوجد شيء تقليدي في كلمة العائلة التقليدية، والمثال التقليدي على ذلك هو ”الأسرة النواة“ ”nuclear family“* التي هي ثمرة العصر الصناعي الذي لا يتجاوز عمره القرن التاسع عشر.

أما في المجتمعات السابقة، وفي أغلب المجتمعات غير الغربية اليوم، فكانت العائلات عبارة عن مجموعات أكثر عددًا وأشد تنوعًا، وكانت عادة ما تضم أكثر من جيلين؛ إذ يُرعى الأطفال في كثير من الأحيان بمعرفة الأقارب الذي ينهضون بدور الآباء، إذ يميل الآباء في هذه السن إلى البقاء في العمل طوال ساعات

* يُطلَق مصطلح الأسرة النواة (أو النووية في بعض الترجمات) على الأسرة المُكوَّنة من الزوج والزوجة وأبناهما فقط؛ فهي لا تشمل على أقارب آخرين. (المترجم)

اليوم؛ ففي قلب المجموعات الأكبر عددًا، تعمل آليات العلاقات الشخصية بين الأفراد بطريقة مختلفة تمامًا عن آليات عملها في محيط الأسرة النواة الحديثة الخائفة المنكفئة على نفسها، ولعل ما تُقَيّد به الأسرة النواة نفسها من ضغوط يفسر فشلها الذريع باعتبارها وحدة اجتماعية من الوحدات المكونة للمجتمع.

نكرر: إن أغلب نماذج الأسرة النواة تمنى بالفشل الذريع؛ إذ ينتهي أربعون بالمئة منها بالطلاق، ولنا أن نخمن مدى المواءمات والصراعات المدمرة للروح التي تعصف ببقية العائلات.

لعل أحد أشد التعليقات جذبًا للانتباه حول الأسرة التقليدية هو أنه حالما يتمكن أفرادها القادرون على الكسب من تحمّل تكاليف الحياة يُوسّعون نطاق الأسرة التقليدية الحقيقية عبر الاستعانة بخادم للنظافة، أو أم معاونة، أو جليسة أطفال أو مربية، باختصار ينزعون إلى الاستعانة بأعضاء إضافيين لتقاسم أعباء الحياة وتوزيعها وتغيير طبيعة العلاقات داخل محيط المجموعة في الأسرة الواحدة.

حتى الحقبة الفيكتورية ضُمَّت كلمة عائلة الخدم أيضًا، وهو استقرار واثق مؤداه أنه لا توجد أسرة في أي بقعة من عالم اليوم لا تستعين بنوع من أنواع المساعدة ما دامت قادرة على ذلك ماديًا، فيحل هذا الشكل محل الهيكل العائلي الأكبر الضائع في المجتمعات السابقة لتأسيس المجتمع العائلي.

إن عبارة القيم العائلية المقترنة بنموذج الأسرة النواة هي تعبير مُختَزَل لنظرة أخلاقية سابقة معادية للجنس والمخدرات والإجهاض، وتحض على إبقاء الشباب جاهلين جنسيًا حتى سن

الزواج، وهو الزواج الذي يجب أن يكون مُؤيِّدًا. تكمن العلاقة بين نموذج الأسرة التقليدية والقيم العائلية في المفهوم العاطفي للسيطرة الاجتماعية الذي ستمارسه الأولى على الأخيرة.

صحيح أن بعض الأسر التقليدية تعيش في سعادة بطبيعة الحال، لكننا نخطئ لو تجاهلنا الوجه الآخر من الحقيقة المتمثل في هجوم ستريندبرج "Strindberg" على الأسرة باعتبارها مهد الشرور الاجتماعية كلها، فضلًا عن اعتقاد بتلر المتشائم بأن "التعاسة نابعة من هذا المصدر أكثر من أي مصدر آخر".

والحقيقة أن أنصار القيم التقليدية يقفون في وجه السعادة إذ ينكرون حقيقة أن مساعي أي عائلة تُكَلَّل بالنجاح في اللحظة التي يختار أفرادها بحرية ما يشاؤون من طبيعة واتجاهات، وفي اللحظة التي تحظى فيها اختياراتهم باحترام العالم الخارجي، أيًا ما كانت طبيعة اختيارهم.

يحتاج الناس إلى الصحة لتقاسم أعباء الحياة والتشارك في متعها، ولتقديم العزاء بعضنا إلى بعض، والاستمتاع بجو الألفة، وإلى تلقي الحب وتربية الأجيال القادمة.

هنا ينطبق المثل الذي صَدَّرنا به الفصل على أي عائلة: أدِّ عملك على أكمل وجه كما لو كنت تطبخ سمكة صغيرة، وهي النصيحة التي يسديها الصينيون بنبرة شديدة التهذب.

* المقصود هو الكاتب المسرحي والروائي السويدي أوجست ستريندبرج، المتوفى سنة 1912. (المترجم)

الشيخوخة

”تمسي الشيخوخة عادة مرذولة في

عيني رجل لم يخصص الوقت الكافي ليشكلها على يديه“.

أندريه موروا

في العصور الكلاسيكية، قدّر الرومان الشيخوخة حق قدرها، وحددوا مراتب البشر انطلاقاً من مبدأ الأقدمية “seniores priores” الذي بموجبه كانت تمنح الخبرة صاحبها مقعداً متقدماً في مجالس الدولة.

وحتى لو صَحَّت ملاحظة لاروشفوكو أن ”كبار السن يحبون إسداء النصائح الجيدة من باب تعزية أنفسهم بأنهم لم يعودوا قادرين على ارتكاب الآثام“، فمن صالح المجتمع أن يفيد من ثمار الخبرات المتراكمة متى استلزم الأمر.

أما الصينيون فيمضون في هذه المسألة حتى حدودها القصوى؛ إذ لا يرى حكم الشيوخ الصيني ”الجيرونتوقراطية“* من تحت الخامسة والسبعين أهلاً لتولي مقاليد السلطة؛ ففي اعتقادهم، يصقل

* في الأصل «gerontocracy»، وهو شكل من أشكال حكم الأقلية التي يخضع فيها كيان ما لحكم قادة أكبر سناً من معظم السكان البالغين، وكان الإغريق القدماء من أوائل من آمن بفكرة حكم الشيوخ. (المترجم)

الزمنُ رؤيةَ الإنسان إلى الأمور، وآية ذلك تعليق تشوان لاي "Zhou Enlai" الشهير على الثورة الفرنسية عندما سُئل عما إذا كان يعتقد أن الثورة كانت خيرًا أم غير ذلك، فأجاب الرجل (بعد فترة من الصمت للتشاور): "من السابق لأوانه أن نقول ذلك".

صارت العملة الرائجة لهذه الأيام أن يحتل الشباب مركز الصدارة في الإعلانات، كما لو كانوا هم الحلقة الأهم لتمثيل الجنس البشري، والسبب الرئيسي لذلك أن المُعلّنين يعرفون أن الشباب لديهم معتقدات على استعداد لدعمها بالمال، على رأسها اعتقادهم بأن الجميع يستمتع بوقته، وأن الشيوخ لو أرادوا الاستمتاع فعليهم الخروج إلى مكان يعبق بالدخان ويضج بالصخب، وأن يرتدوا الملابس التي يرتديها غيرهم في تلك الأماكن.

لذلك ينطلق كبار السن إلى النوادي الليلية، أو يسافرون إلى جزيرة إيبيزا بحثًا عن الانغماس في النشوة من خلال مزيج من الأصوات الصاخبة والمشروبات الكحولية وتعاطي المخدرات، ويسخرون من رفاقهم الشيوخ الذين انسحبوا من ملذات الحياة، يرى هؤلاء "أن لا أحد يعشق الحياة مثل شيخ مسن" مثلما لاحظ سوفوكليس، وأن تراكم السنون يضيفي على الإنسان حكمة من النوع الذي تحلى به الثور العجوز في الحكاية الخرافية (تقول الحكاية: يرى ثور صغير السن بوابة مفتوحة تفضي إلى حقل واسع ترتع فيه الأبقار، فيخاطب الثور العجوز بسعادة قائلاً: انظر ... ها هو الباب مفتوح، علينا أن

* أول رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية، وعمل تحت قيادة زعيم الثورة الصينية ماوتسي تونج. (المترجم)

نسرع الخطى إلى هناك ونأكل القليل. فيجيب الثور العجوز: لا، بل علينا أن نتمهل الخطى إلى هناك ونأتي على كل شيء!).

بالمناسبة، لا يوجد شيء اسمه "منتصف العمر"؛ فهذه هي الفترة الحياتية التي يسود فيها الزعم أن عقلك الواسع وخصرك الضيق يراوحيان مكانيهما، أو هي الفترة الحياتية التي تكون فيها أصغر سناً من القدرة على لعب رياضة البولينج، لكنك أكبر سناً من الاندفاع نحو الشبكة لضرب كرة التنس، بحسب ملاحظة فرانكلين آدامز "Franklin Adams".*

يُولد بعض الناس شيوخاً، ويموت بعضهم الآخر شُبَّاناً في التسعين، والمسألة كلها مرهونة بموقف الفرد من الحياة، وهو الموقف الذي يستطيع المرء التحكم فيه حسبما أشار الرواقيون منذ زمن بعيد. واقع الأمر أن ما يحدث مع مرور السنوات هو تضائل حماقة الفرد وزيادة رصيده في البنك، وفي الحالتين كليهما فالشيخوخة نشاط غير مكروه، ومع ذلك تنتشر كثير من الدعاية المغلوطة عن فكرة الشيخوخة، من بينها مثلاً ما ذهب إليه أريتينو (خالطاً بين القدرة على الركض لركوب الحافلة والصحة الوافرة) إذ قال: "تتحلى الشيخوخة بعقل راجح وسيقان ضعيفة معتلة". على أن أغلب الأمثال والأقوال المأثورة، التي تصور الشيخوخة على أنها خليط من ارتعاش الأطراف والنسيان، مُستَمدة من أزمنة كان البشر فيها يشيخون إذ يبلغون الأربعين، أما اليوم فيجب على الإنسان أن يبلغ على الأقل ضعف هذه السن كي ينال شرف بلوغ الشيخوخة.

* صحفي وكاتب أمريكي تُوفِّي سنة 1960. (المترجم)

يقول جوزيف جوبيرت: ”الحياة بلد بعيد زاره الكبار وعاشوا فيه، أما من لم يُكْتَبَ لهم زيارته فليس أمامهم إلا أن يتعلموا من الكبار سبيل الوصول إلى ذلك البلد البعيد“.

الهدايا والعطايا

”رُبَّ هدية بسيطة تغدو هبة سخية بكثير من الأريحية“.

نيويورك: نيو يوركر

يكاد الجميع يتفقون على استحالة تقدير قيمة الهدية وفق سعرها؛ إذ لا يوجد مبلغ مالي قادر على تحديد قيمة الهدية الملائمة، ولا تحديد الوقت المناسب لإهدائها، ولا تحديد مدى ملاءمتها، ولا حتى تحديد إذا ما كانت مهداة بمشاعر صداقة أو حب حقيقية أم غير ذلك.

يمثل هذا النوع من الهدايا جزءًا من ذات المُهدي؛ إذ يعكس حقيقة أن المُهدي خصص جانبًا من ذهنه للتفكير في المُهدى إليه، كما يعكس رغبة المُهدي في البحث عن هدية واختيارها بطريقة تعرب عن مشاعره، حتى أبسط هدايا الواجب، التي تُوزَّع في المناسبات التقليدية على مدار سنة، تجبر المُهدي على التفكير في متلقي الهدية تفكيرًا مختلفًا، أقصد في ما يتعلق بشخصيتهم وطبيعة اهتماماتهم واحتياجاتهم؛ لأن هذه العوامل الأخيرة هي ما يقيّد اختيار الهدية.

* شاعر إغريقي تُوفِّي سنة 250 قبل الميلاد. (المترجم)

فمن غير الملائم مثلاً إهداء أطفال لُطِخت ركبهم بالوحد
”أملح الاستحمام المُعَطَّرَة باللافندر“، مثلما هو من غير المناسب
إهداء العَمَّات العجائز مسدس لعبة مُزوَّداً بغطاء من البلاستيك!

ومع ذلك فتقديم الهدايا من باب الواجب مسألة ذات أثر طيب،
على الأقل للتعرف إلى العوامل المُشكِكة لسيرة إنسان وتطوُّرها، أما
بخلاف ذلك فلا قيمة تُذكر للهدايا الممنوحة بدافع الواجب؛ لأنها
خالية من المشاعر الصادقة، وأفضل الهدايا هي التي لا تُقدَّم في
ورق التغليف، بل التي تُهدى في صورة مواقف وإيماءات وأحاسيس
ومشاعر تضامن وأوجه مساعدة ذات صلة في وقتها.

ولننظر مثلاً في التقاليد التي أرساها سين نو ريكيو ”Sen no
Rikyū“ (أعظم معلمي فن تقديم الشاي في اليابان)؛ إذ ينص
التقليد أن يدعو المضيف صديقَه لاحتساء الشاي، فيزين الأول
غرفته بأغصان الزهور، وينقش جدرانها بعبارات الترحيب احتفالاً
بانعقاد أواصر الصداقة بينها.

يتجلى السلوك الراقي وتظهر فخامة الهدية في حسن اختيارها،
ومع ذلك فالهدايا لا تخلو من التعقيد، أو على حد تعبير سوفوكليس:
”ليست عطايا الأعداء نعمة، بل هي نقمة“.

فأي هدية تُمنَح وعين صاحبها في الحصول على مقابل أو التزام
معين من الطرف الآخر تصير وبالأعلى المُهدى إليه، مع أن الأخير
أخذ الهدية على طبق من ذهب وقتها، ولعل هذا هو سبب تحذير
مارتياليس ”Martialis“ عندما قال: ”الهدايا خطاطيف صيد“.

* شاعر روماني عاش في القرن الأول أو الثاني الميلادي تقريباً. (المترجم)

ثمة شعور سائد بأن متلقي العطية يشعر بالاستياء من المُهدي، سواء صح ظنه أن العطية أُهديت بغرض الإيقاع في الفخ أو لا، وعلى عكس ذلك يشعر المُهدي براحة الضمير حيال من أهداهم.

أن تجزل العطاء لهو شعور مُفَعَم بالعدوثة والدفء؛ لأن ما يقترن بالعطاء من رضا ذاتي لا يمكن أن ينطوي على كثير من الغش أو التدليس، اللهم إلا في حالات نكران الجميل الشاذة، أو حتى عدم الاكتراث الذي قد يبدیه متلقي العطاء.

على أي حال، يجب على متلقي الهدية أن يعرب عن سروره وامتنانه (وهي الأشياء التي ربما لا يُشعر بها بالقدر المطلوب)؛ إذ يشعر متلقي العطية أنه في وضع المدين، وهو ما يسوؤه! قال إيمرسون: "نحن لا نسامح اليد العليا المنفقة، واللثيم يعرض اليد التي أطعمته".*

ومن بين الأقوال المأثورة أيضًا مثل يقول: "Bis dat qui cito dat" "من أسرعت يده بالعطاء فقد أحسن إلى الناس مرتين" (He gives twice who gives quickly). وفي هذا الصدد، يقول دكتور جونسون "Dr. Johnson"*** عبارة المشهورة: "ما أفجع أن تعلق منزلة الإنسان ببطء بسبب الفقر المحبط!" وكان دكتور جونسون (نظرًا إلى مروءة بتجربة مريرة) قد قدّم طلبًا إلى السياسي إيرل بوت "Earl of Bute"*** يلتمس فيه أن يشملته الأخير

* وهو ما يوازي عندنا «اتَّقِ شر من أحسنتَ إليه». (المترجم)

** كاتب وناقد إنجليزي عظيم الشأن تُوفِّي سنة 1784. (المترجم)

*** جون ستوارت: يُعرَف أيضًا بقلب إيرل بيوت الثالث، سياسي بريطاني تولى رئاسة

الوزارة في بريطانيا. (المترجم)

بالرعاية المادية، ولم يُجَبْ طلبه إلا بعد أن ذاع صيت جونسون في أرجاء إنجلترا. أما في رسالته التي رفض فيها لاحقاً عرض المنحة بنبرة مستهزئة فقال: "من يرغب في رؤية الآخرين سعداء فليسابق الريح كي يمد يده بالعطاء؛ فكل لحظة تلكؤ تنقص شيئاً من قيمة الإحسان".

يُذَكِّرنا استياء الدكتور جونسون بمعضلة أخرى، ألا وهي صعوبة تقديم الهدايا لبعض الناس؛ فلن يعدم المرتابون والمتشككون وسيلة للتذمر والجأر بالشكوى مهما أجزلنا لهم العطاء، وفي أحيان أخرى، يكون متلقي الهدية نداءً، أو يتمتع بذوق شديد الخصوصية إلى درجة تجعل اختيار الهدية الملائمة ضرباً من المستحيل، يضيف إيمرسون (الذي كان عدواً لمبدأ الإهداء وتلقي الهدايا برمته): "كم هو مؤلم أن نقدم هدية لإنسان يتمتع بفرط الحساسية، أو أن نقدمها إلى ند لنا؛ لأنه سيكون في المرتبة الثانية من بعد من نجود عليهم بالإحسان".

والحق أن أسهل من يمكننا إرضاؤهم بالهدايا هم من يتمتعون بدائرة اهتمامات واسعة، ويتحلون بحماسة متقدة تجعلهم يقفزون إلى أذهاننا متى طرقتنا باب أي متجر، لكن هؤلاء الأفراد عملة نادرة هذه الأيام؛ فبالنسبة إلى قطاع عريض ممن يختارون الهدايا، تبقى معضلة العطاء في حد ذاتها هي الأعظم.

قال أنطونيو بورشيا "Antonio Porchia": "أعرف جيداً ماذا وهبتك، لكنني لا أعرف ماذا تلقيت مني". وهي مقولة تنير البصيرة، لكنها كاشفة عن حقيقة ذات صلة، وهي أنك لو كنت

* شاعر أرجنتيني معروف بالكتابة الشعرية، تُوفي سنة 1968. (المترجم)

تعرف ما حصل عليه المُهدى إليه عندما تلقى عطيتك، فإما أنك تعرفه حق المعرفة، وإما أنك تحبه حبًّا جمًّا، أو كلا الأمرين معًا.

مفاسف الأمور

”لا يتعثر الرجال في الجبال، بل في الحجارة“.

مثل هندوسي

بحسب الحكمة الموروثة، يستحق شهر أغسطس لقب أسخف شهور السنة؛ بسبب غياب المهمة، والمراد بها أخبار السياسة؛ إذ يكون معظم قادة الأحزاب في عطلات صيفية، ما يضطر المؤسسات الإخبارية إلى النبش عن أي مادة لسد ثغرات نشرات الأنباء.

والحقيقة أن كل ما يجدونه يندرج تحت باب توافه الأمور دون استثناء. من بين الأنباء التافهة المُقدّمة مثلاً نبأ عن رأس آدمي عُثر عليه في بطن سمكة البَقلة (الغادس) ”cod fish“، ونبأ آخر عن رجل من لندن يحقق رقمًا قياسيًا عالميًا في التجشؤ تبلغ درجة قوة صوته 118 ديسيبل. وقع الاختيار على تينك الخبرين من أخبار شهر أغسطس من باب ضرب الأمثال، ويمكن استكمال القائمة بعشرات الأنباء الأخرى.

ربما يشير دارس لوسائل الإعلام الإخبارية أن هذا اللون من الأنباء هو المهيمن على الصحف الشعبية والصفراء على مدار العام، ولا يرقى إلى درجة التعليق إلا عندما تلجأ الصحف ويلجأ المذيعون إلى مثل هذه الأنباء في أيام الصيف القائظ، لكن من يتجاهل هذه

الأخبار بوصفها تفاهات إنما يغض الطرف عن نقطة مهمة، وهي أن سفاسف الأمور تضرب بجذورها في نسيج التاريخ؛ فالحقائق كامنة في التفاصيل الدقيقة، وعدد لا يُحصى من الأحداث، التي تبدو غائمة الملامح أو مبتذلة، يكتسب أهمية أكبر من أهمية الاضطرابات الفردية الكبرى.

وهنا تحضرني مقولة مانويل جونزاليس برادا "Manuel Gonzalez Prada": "إن إزاحة قليل من الرمال لقادرة على تغيير مسار أشد الأنهار عمقاً".

ثمة معنيان على الأقل يمكن على ضوءهما النظر إلى تفاهة الأمور، المعنى الأول أن يكون الشيء صغيراً أو غير واضح المعالم، والمعنى الآخر أن يكون الشيء عادياً أو مألوفاً أو مبتذلاً. وفي الحالتين كليهما تقتضي المسألة الفحص والتدقيق للوقوف على حقيقتها، أو على حد تعبير والتر باتر: "بلادة العين وحدها هي ما تجعلنا نرى شيئين يبدوان متشابهين".

فقد يعمي علينا الشيء الصغير في خضم التعددية المطلقة للعالم، وقد يخفى علينا الشيء العادي المبتذل بالمثل؛ لأن الاعتياد يطوي الأشياء في غياهب الخفاء، والقدرة على رؤية مثل هذه الأشياء -في حد ذاتها- ملكة فريدة، لكنها ملكة لا تُؤتى إلا لمن تحلى بيقظة الذهن وحدة الانتباه؛ فالقدرة على رؤية الصغير والعادي في خصوصيتهما الكلية تسلط الضوء على نسيج العالم تسليطاً ثرياً، وتغمر الإنسان بالدهشة؛ لأنها تكشف أن الأشياء التافهة الصغيرة

* شاعر وصحفي وكاتب من دولة بيرو، تُوفِّي سنة 1918. (المترجم)

يمكن أن تنطوي على معنى جليل، وأنه قلما يوجد شيء عادي مبتذل على الإطلاق.

لاحظ بليني الأصغر "Pliny the Younger" أن البشر يجوبون الآفاق ويقطعون أسفارًا طويلة لرؤية الأشياء التي لو كانت عند أطراف أصابعهم لظلوا عنها غافلين، ومعنى ذلك أنه خليف بالإنسان أن يعيش حياته كعابر سبيل، وأن يبقى مشحونًا دائمًا بالفضول والانتباه، مفتشًا عن غرابة الأشياء كي تبدو أمام عينيه طازجة.

وأما سبيل النجاة من الآثار السلبية المثبطة، التي يتركها الزمن والعادات على صفحة أحاسيسنا، فهو أن نتذكر مقولة توماس كارلايل "Thomas Carlyle" المشيرة للجدل؛ إذ زعم أن أشد بقاع العالم قفرًا هي نافذة مطلة على اللانهاية، وأن نستحضر بالمثل كلام ريلكه "Rilke" في كتابه الرائع "رسائل إلى شاعر شاب" إذ قال: "لو لم يبدُ لك العالم مُفَعَّمًا بالسحر، فلا تلومن إلا نفسك، وقل لنفسك إنك لا تتحلى بالموهبة الشعرية الكافية لتستدعي ثراء هذا العالم".

ثمة عدد أقل من الأسباب التي تدعونا إلى إعطاء الأشياء الصغيرة حقها؛ ففي مقدور تلك الأشياء أن تمنحنا شعور الطمأنينة والعزاء، مثلما في مقدورها أن تمنحنا ما يشيع في نفوسنا ضيقًا لا يتناسب مع حجم قوتها.

* محام ومؤلف وقاضٍ روماني تُوفِّي سنة 112 ميلادية تقريبًا. (المترجم)

يتضمن الجانب الأكبر من أغلب السير الذاتية تدوين ما جرى في صيغ مفرطة في التحفظ، ولا نرى في تلك السير هوة شاسعة بين ذكر التفاهات التي تورث الشعور بالضيق والانهازم، والتفاهات التي تشيع البهجة وتصنع الحياة بصبغة إيجابية؛ فكلاهما واقف على قدم المساواة، ومن ثم فالقول إن التفاهات تشيع السعادة أو تورث التعاسة في حياة الإنسان إنما هو قول مبتذل؛ فلو رأى المرء أهمية في الأشياء الصغيرة التافهة فجدير به أن يحكم بالمثل على أهمية نقيضها، ولهذا السبب وحده فالأمور الصغيرة التافهة جدرة باهتمامنا أيضًا؛ لأنها تصقل حاسة رؤية الأشياء لدينا، وتساعدنا على معاينة مادة التجربة.

قال الفيلسوف الإسباني أورتيجا إي جاسيت "Ortega y Gasset": "الرجل الذي ينكر وجود الأشياء الصغيرة لن يستطيع رؤية الأشياء الكبيرة". لا جرم أن رجلًا بهذه العقلية يفتقر إلى حس الموازنة بين الأشياء، وهو عيب شنيع؛ لأن القدرة على الموازنة ضرورية لإصدار الحكم مثلما هي ضرورية لأن يعيش المرء عيشة سوية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

المحتويات

7	تصدير
13	الباب الأول: عن الفضائل والخصال البشرية
15	الوعظ
22	التسامح
26	الرحمة
30	اللباقة
34	المواءمة
38	الخوف
42	الشجاعة
45	الهزيمة
49	الحزن
53	الموت
61	الأمل
65	المثابرة
69	التبصُّر
72	الصراحة
76	الكذب
81	شهادة الزور
85	الخيانة
89	الولاء
93	اللوم

96	العقاب
99	الوهم
103	الحب
118	السعادة
125	الباب الثاني: عن الخصوم والمغالطات
127	القومية
131	العنصرية
135	الأنواع
139	الكراهية
143	الانتقام
147	الإفراط
154	الاكتئاب
158	المسيحية
173	الخطيئة
179	التوبة
185	الإيمان
198	المعجزات
201	التنبؤ بالغيب
206	العقّة
210	الوثنية
215	الطعن في عقائد الآخرين
217	الفُحش
223	الفقر
226	الرأسمالية

235	الباب الثالث: الرفاهة والماديات
237	العقل
244	التعليم
250	التفوق الإنساني
253	الطموح
257	التمثيل
261	الفن
264	الصحة
268	وقت الفراغ
272	السلام
275	القراءة
280	الذاكرة
286	التاريخ
290	القيادة
294	السفر
298	الخصوصية
303	العائلة
306	الشيخوخة
310	الهدايا والعطايا
315	سفساف الأمور

معنى الأشياء

قراءة منعشة ومثيرة للتفكير تجمع بين البصيرة والفلسفة والنهج العلمي للحياة اليومية، بقلم أحد أبرز الفلاسفة وأكثرهم شهرة في المملكة المتحدة.

لا يهدف الكتاب إلى إقناع القراء بتبني نظرية فلسفية معينة ولا وجهة نظر محددة، بل يدعونا إلى استكشاف النطاق المذهل للرؤى التي يمكن استخلاصها من تاريخ الفلسفة الثري.

يقدم غرايلينغ دليلًا لا يُقدَّر بثمن لما هو مهم حقًا في عيش الحياة، سواء عند مواجهة النجاح، الفشل، العدالة، الظلم، الحب، فقدان أو أيٍّ من التجارب العميقة الأخرى التي تلقي بها الحياة على كاهلنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات
حياة

